الحياة فى مصر





المشروع القومى للترجمة

تأليف : إنريكو بيا

ترجمة : نجوى عمر

مراجعة : عامر الألفى

763

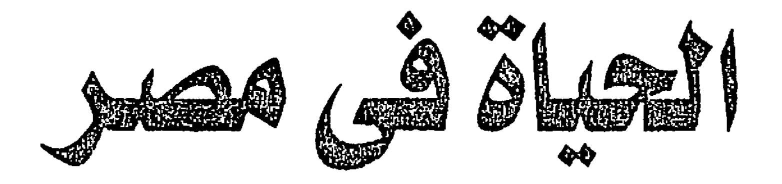




جاء هذا الكتاب "الحياة فى مصر" على شكل تداعيات تمليها الذاكرة على صاحبها كيفما اتفق، على ضوء أى تشابه فى الأسماء أو الظروف أو القرب المكانى، دون مراعاة للتسلسل التاريخى، ودون تقسيم الكتاب إلى فصول أو أبواب، بل يكفى أن يقص الكاتب حكاية عن إحدى الشخصيات التى فى مصر، وفجأة تقفز إلى ذهنه شخصية أخرى لها الاسم نفسه، فيسترسل فى رواية ذكرياته عنها.

الغلاف / لنجلاء فتحى

المشروع القومى للترجمة



تـألـيـف : إنريكو بيا

تـرجـمـة : نجوى عمر

مراجـعـة : عامر الألفى



المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٦٢
- الحياة فى مصر
- إنريكو بيا
- نجوى عمر
- عامر الألفى
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب
VITA IN EGITTO
Enrico Pea

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

مقدمة المترجمة

فى جو أقرب ما يكون إلى عزلة المجتمعات المغلقة فى داخل مدينة مفتوحة .. مجتمعات لها طوابع حياة تختلف فى كثير من الأحيان عن الطوابع المحلية ، يكتفى أصحابها بأنماط حيواتهم الثقافية على الرغم من المعايشة والاحتكاك الذى يتم بينهم وبين أصحاب البلد ، هكذا كانت مدينة الإسكندرية فى فجر القرن العشرين .. مدينة تفتح أبوابها للزائرين والمستوطنين من أصقاع مختلفة من أوروبا ... إنجليزيين .. فرنسيين .. إيطاليين .. إسبانيين .. يونانيين .. بالإضافة إلى مجموعات من اليهود الوطنيين ، والبدو ، والمصريين ، الذين يطلق عليهم الأجانب اسم (العرب) .

فى داخل هذا الجو العالمى نزح الكاتب الإيطالى إنريكو بيا ، وعمره خمسة عشر عامًا ، ليعمل فى حرفة إصلاح السفن فى ميناء الإسكندرية ، وليكوّن بنفسه ثقافته الخاصة ، وليسجل بعد عودته إلى إيطاليا عام ١٩٤١م تجربة حياته فى مصر التى دامت لمدة سبعة عشر عامًا ، رجع بعدها ذا أسرة وأولاد ، وذا نضج فكرى ملحوظ ، وذا مشروعات إنتاج أدبى لا بأس به .

جاء هذا الكتاب (الحياة فى مصر) على شكل تداعيات تمليها الذاكرة على صاحبها كيفما اتفق ، على ضوء أى تشابه فى الأسماء أو الظروف أو القرب المكانى ، دون مراعاة للتسلسل التاريخى ، ودون تقسيم للكتاب إلى فصول أو أبواب ، بل يكفى أن يقص الكاتب حكاية عن إحدى الشخصيات التى صادفها فى مصر ، وفجأة تقفز إلى ذهنه شخصية أخرى لها الاسم نفسه ، فيسترسل فى رواية ذكرياته عنها .

ولذلك قد يستخدم الكاتب فى بعض الأحيان تقنية (الاسترجاع) ، بل قد يكون من الأوفق أن نقول : إن حوادث الكتاب جميعًا جاءت على هذه الطريقة ؛ حيث تناول – وهو على سطح الباخرة التى ستقله وأسرته إلى إيطاليا – كثيرًا من الحوادث والشخصيات ، وأحيانًا كانت أحداث الحاضر تتداخل مع ذكريات الماضى .

لا شك أن إنريكو بيا قد عاش فى بيئة شبه معزولة عن المصريين – إلا فى أحوال نادرة – تلقى الصدفة فى طريقه بأحدهم ، فلا يكلف نفسه مشقة بحث أحوال الشخصية المصرية ، ولا التعرف على خصائصها ، بل يكتفى بسرد مواقفه معها دون تعمق ، ولا حتى محاولة لدقة الفهم . ومع ذلك فهو ليس متحاملا على المصريين ، بل إنه فى مواقف كثيرة يدافع عنهم ، ويشعر بالتعاطف معهم ، فهم شركاء له فى البؤس ومعاناة شظف العيش ، فى مواجهة البرجوازيين وطبقة المستغلين ، سواء كانوا من الإنجليز الدخلاء ، أو من السادة الوطنيين .

تشهد على ذلك علاقته (بمحمد) العامل العجوز ، الذى يعمل معه فى الميناء ، والذى لم تطل المناقشة بينهما إلا بسبب حادث استثنائى وقع لأحد الزملاء ، وأدى إلى تدخل الجميع .

وكذلك علاقته (بأمينة) الخادمة فى بيت صديقيه اليونانيين (إيانكو) و (جورجى) ، جاءت عن طريق جلوسه لانتظار الصديقين اللذين كانا دائمًا يتأخران عن الموعد . فى فترات الانتظار هذه سمع من (أمينة) أشياء كثيرة عن البيت ومن فيه ، كما عرف منها شيئًا عن أحوال المرأة فى مصر ، ولكن لم يكن له تعليقات مستفزة عن ذلك الأمر ، بل إن نبرة كلامه تشى بتعاطف مع المرأة ، قد ينشأ عن الغموض الذى يحيط بهذا الموضوع ، أو عن الواقع المشاهد فى الحالات الجزئية التى لا تصلح لتعميم الحكم .

كان بيا يتردد على بيوت أصدقائه من الإيطاليين ، أو من اليونانيين ، أو من الفرنسيين ، ولم يذهب إلى بيت واحد من البيوت المصرية ، لذلك جاءت معرفته بالمصريين محدودة .

ولكن ذلك جعل من كتابه وثيقة مهمة لمعرفة أحوال الأقليات التى كانت تتخذ من الإسكندرية وطنًا لها (مؤقتًا أو دائمًا) ، فمعظم الأعمال الروائية المصرية لا تنقل صورة حقيقية لمجتمعات الأجانب فى مصر ، ويكون اهتمامها منصبًا على الشخصيات الوطنية ، وحتى لو تناولت شخصية أجنبية فإن هذا كان يعد مكملاً للأحداث ليس إلا ، كما أنه لم يكون على درجة عالية من الدقة والموضوعية . ومن هنا تنشأ أهمية هذا الكتاب .

يعد كتاب (الحياة فى مصر) من كتب أدب الرحلة ، التى تقدم فى سلاسة مواقف الحياة التى عاشها الكاتب ، ونقلها بأمانة .

ويمتاز أسلوبه بالوضوح والصراحة التى تجعله لا يخجل من الحديث عن نقائصه الخلقية دون مواربة ، وكذلك الحديث عن نقائص أصحابه دون محاولة للتشويه أو التزييف ، فإذا ما حدث خطأ فإنه يعزوه إلى النسيان ، أو البعد الزمنى ، أو التشابه بين الشخصيات ، ولا يجعل للتعمد يداً فيه .

اختار الكاتب نقطة غريبة للبداية ، جعلها مدخلا للعمل الأدبى ، حيث إنه لم يتبع ترتيباً زمنياً معيناً .. هذه النقطة هى فكرة لمسرحية يريد أن يكتبها ، وقد تسلطت عليه تسلطاً قوياً طوال مدة إقامته فى مصر ، ولم يتم له الشفاء منها إلا فى أخريات أيامه هنا . هذه الفكرة تتعلق بشخصية (يهوذا) خائن المسيح ، ولكن شخصيته كانت ذات ملامح مختلفة عن ملامحه المعروفة فى التاريخ . لم يكن (بيا) مصدقًا ما فى الكتب الدينية ، وأراد أن يقدم رؤية جديدة ليهوذا أقرب إلى العقلانية ، وظل يهوذا يصاحبه فى كل مواقفه حتى انزاحت عنه الفكرة بشكل فجائى ، فشعر كأنما تحرر من ثقل .

قدم (بيا) فى كتابه شخصيات ذوى ملامح متميزة ، بل إن الحق أن الاهتمام برسم الشخصيات شكّل عنده ملمحاً أساسياً ، فهى مرسومة بدقة تبدأ بالوصف الشكلى (أشقر – سمين – ذو إصبع مقطوعة – أجهر العينين – أسمر داكن اللون ... إلخ) وتمر بطريقة اللُّبس ، وتصفيف الشعر (ترتدى نقاباً من التل – تمسك شعرها بمشبك – يطيل سوالفه على عارضيه – تطير الجلابية فى الهواء وتنتفخ ... إلخ) ،

وتنتهى بتصوير الملامح النفسية (نقى الروح - طاهر - عسير فى التعامل - شديد البخل ... إلخ) .

هذا الوصف الدقيق من شأنه أن يجعل شخرص العمل حاضرة فى ذهن المتلقى حتى بعد أن ينتهى من القراءة . وقد دل ذلك على حضور ملكة المسرح لدى الكاتب ، وشغفه بهذا الفن الأدبى .

كانت الحياة فى مصر بالنسبة للكاتب قاسية لا ترف فيها ، غير أنها لم تكن سلبية فى كل حالاتها ، وإنما تخللتها لحظات من السعادة ، والتجارب النافعة التى لم تمح من ذاكرته مدى الحياة ، كما انتفع بصداقات من نوع متميز ، كتلك التى جمعته بالإيطالى (بيترو فازاى) ، وتلك التى جمعته بالشاعر الإيطالى الكبير (جوزيف أونجاريتى) الذى ولد وترعرع فى مدينة الإسكندرية ، وشارك (بيا) العضوية فى جماعة (الكوخ الأحمر) الفوضوية ، واقتسما الكثير من آلام الحياة ومسراتها .

وكالصداقة القوية التى جمعته بالإسبانى الشاب (بيبيكو) ذى القلب الطاهر ، المتدين ، والذى كان على النقيض من أفكار (إنريكو بيا) ولم يمنع هذا التناقض قيام العلاقة المتينة بينهما .

ظل يكن للكثيرين منهم مشاعر الود ، على الرغم من افتراق طرقهم فى الحياة ؛ فمنهم من رحل إلى فرنسا ، ومنهم من استقر فى صعيد مصر ، ومنهم من سافر إلى إيطاليا ، ومنهم من لم يعرفنا الكاتب بمصيره ، فلم نعد نعرف أين ذهب ، ولا كيف انتهت علاقته بصاحبنا .

كما أن هناك شخصيات عرفناها عن طريق آخرين ، ولم يحدث لقاء بينها وبين الكاتب ، مثل شخصية سالوموني سلامة اليهودى الوطنى ، الذى عرفه (بيا) عن طريق (بيترو فازاى) ، وقرب إلى القارئ صورته الشكلية والسلوكية والنفسية ، التى تصلح نموذجًا للشخصية اليهودية ذات الطباع العسيرة والغريبة فى كثير من الأحيان .

لم يكن هدف الكتاب رصد مظاهر الطبيعة فى مصر ، غير أنها نالت قدرًا طيبًا من الوصف ، وخصوصًا ما كان منها متعلقًا بالبحر والميناء ، وعلاقة القمر بالبحر ، والصحراء المترامية التى كانت تحد المدينة من أحد جوانبها ، والأمطار الغزيرة النادرة . هذه هى أبرز الظواهر الطبيعية فى كتاب (الحياة فى مصر) .

وكذلك لم يكن من أهدافه الحديث عن الأحوال السياسية فى مصر ، لذلك لم يرد عن ذلك إلا إشارات عابرة عن القصف الإنجليزى للمدينة أيام الثورة العربية (يقصد العرابية عام ١٨٨١م) . وحديث عرضى عن قيام الحكومة برصف الشوارع بالأسفلت ، وإدخال الإنجليز للسيارات ، ومعارضة بعض الناس لهذا المشروع .

لكن الأحوال الاجتماعية نالت النصيب الأوفى من قلمه ، وخصوصًا العادات والتقاليد للأسر اليونانية فى مصر .. تقاليد الزواج .. ووضع المرأة فى البيت .. وتفاصيل العادات المتبعة فى الجنازات ، وتشييع الموتى ، وتقاليد الدفن للأجانب والوطنيين .

كما نقبل تفاصيل شنق أحد المواطنين المذنبين ، تم الشنق فى ميدان (محرم بيه) ، وتزاحم الناس من كل الجنسيات والألوان ليستمتعوا بمشاهدة فصل الختام لحياة إنسان كفَّر عن ذنبه بدمه .

أما الأحوال الاجتماعية الخاصة للمصريين ، أو العرب - على حد تعبيره - فقد كانت نادرة الورود ؛ نظرًا لبعده - كما قلنا من قبل - عن التعامل المباشر مع أصحاب البلد ... فقط بعض شوارد تتعلق بوجود (المشربيات) ودلالتها على صفة الغيرة المتأصلة فى النفس الشرقية ، أو الزواج المبكر للفتيات ، أو الاعتقاد فى وجود (عفاريت) . وهنا فى الغالب تقع منه أخطاء ناجمة عن سوء الفهم ، أو قلة المعايشة الطبيعية ، أو عدم الاهتمام بمثل هذه الأمور، أو الاعتماد على أقوال بعض الناس ، فهو ليس مطالبًا - على أيَّة حال - بالتمحيص العلمى الدقيق لكل ما يسمع أو يقابل عن طريق الصدفة .

وتبقى النقطة الأخيرة ، وهى التعرض للحياة الدينية .. والأمر هنا يتشعب ، فبالنسبة للدين المسيحى لم يكن (بيا) فى بادئ أمره متدينًا ، وإنما كان أقرب إلى الشك ، فقد كان رسم (بيبيكو) لعلامة الصليب قبل العمل مما يثير نفوره ، كما كان الحديث عن الشيطان والجحيم - من وجهة نظره - حديثًا لا يليق بالرجال الناضجين .

غير أن المشهد الأخير من الكتاب يحمل فى طياته ميلاً إلى الحياة الدينية الهادئة القريبة من النفس ، فعندما شاهد المهاجرين السوريين يقيمون شعائر الاحتفال بالعيد على ظهر السفينة ، تحركت نوازع نفسه

وفوجئ بنفسه جاثيًا على ركبتيه كما يفعلون ، دون أن يشعر . وكأن هذا إيذان ببدء حياة جديدة بعيدة عن التجديف الذى لا يورث إلا القلق والحيرة والتمرد .

هذا فيما يتعلق بالدين المسيحى الذى يعرفه جيداً ، أما عن الدين الإسلامى فتبدو معلوماته عنه سطحية مشوشة تصيب أحيانًا وتخطئ أحيانًا .. فهو يعرف مثلاً معرفة عابرة أن الصلاة الأولى تقام فى وقت الفجر ، ولا بد أن يدعو لها المؤذن .. ويعرف أن الكلب والخنزير (نَجِسان) طبقًا لتعاليم القرآن ! ويعرف أن محمداً ﷺ حرَّم على أتباعه شرب الخمر ، لذلك هم يتخذون (الحشيش) مسكرًا ! مع ما فى هذه المعلومات من مغالطات ، أو سوء فهم .

ولكنه على الرغم من ذلك لم يتناول الإسلام بسوء ، ولا بمحاولة تشويه أو تجريح ، وإنما كان يتذكر زميله العامل محمداً ويحسده على سعادته بإيمانه المطمئن .

وأخيرًا أرجو أن تقدم ترجمة هذا الكتاب صورة جانبية للحياة فى مدينة الإسكندرية فى مطلع القرن العشرين ، من الممكن أن تضاف إلى الصور الجزئية الأخرى ، فنعرف شريحة من تاريخ بلدنا ، بقلم أجنبى له رؤيته الخاصة ، التى إن لم تتطابق مع رؤى كتابنا المصريين ، فإنها تنضاف إليها وتتحاور معها لتكتمل الملامح والرتوش .

نجوى عمر

إن فكرة وجود شخصية يهوذا أخرى تحتوى بداخلها أخلاقًا مختلفة كل الاختلاف عن الطابع المعروف منذ القدم فى الكتب القديمة ، هذه الفكرة واتتنى وأنا فى مصر فى شكل إلهام وليس عن طريق قراءة الكتب الصفراء عن هذا الموضوع بالذات . قبل أن تبرق الفكرة فى عقلى ، وكأن أحداً قد ألقاها فى أذنى فجأة . كنت أسمع فى بعض الأحيان كلمات تحرضنى على معالجة هذه الفكرة تزداد كلما مرت عليها الأعوام . هكذا حقا جاءتنى تلك الفكرة بشكل فجائى . الأمر الذى أدهشنى شىء لم أفكر فيه أبداً من قبل . أخذت تتحد فى عقلى فلا أستطيع انتزاعها . كان من طبعى ألا أفضى إلى إنسان بشىء ، لكنى سكنت « الكوخ الأحمر » الذى يموج بالناس من كل الجنسيات ومن كل الأمم ، تحدثت فى هذا الموضوع بتوسع كبير ، كنت حينئذ فتى لا أزال ، غير أنى كنت متحرراً من سيطرة أى فكر يمارس على الأعضاء الجدد ، بعد ذلك أصبحت فى « الكوخ الأحمر » جنديا عجوزاً من جيش التمرد . اجتزت بنجاح فترة التمرين التى يسمى العضو فيها فى اللهجة الشعبية «الموالى» وأصبحت إيجابيا أخطو إلى مرحلة النشاط الفعلى ، ظهرت فىَّ مبكرًا جدًا حاسة النقد ، هكذا كان يقول ذوو اللحى البيضاء الذين

صهرتهم نار « العالمية » . حقًا لقد علمونى إلقاء الحصى على الأوثان لأصيب المعلمين المباشرين وأخالف آراء الكبار . تلك الحلبة لم أتنازل عنها : لم أكنّ تقديرًا لأحد ، ولم أعترف بولاية روحية تجاه من يعتقد أنه يعرف أكثر منى . عنيدًا كنت لا أتراجع ، لأننى آمنت أننى تخطيت أصحاب نظريات « المساواة الاجتماعية » الذين يعدون مرشدين لى فقط لأنهم ولدوا قبلى ، وليس لدى ميزة أخرى .

فى مرحلتى الثانية تحدثت كثيرًا عن أفكارى المهمة حول صورة خائن المسيح مع « جوزيف أونجاريتى » . الآن هو أيضًا تلميذ «الكوخ» كان أقرب إنسان إلىّ ، ربما هو الوحيد الذى استطاع أن يعى فى تلك البلاد ، حيث يعد الرجال الذين يهتزون حبًا للشعر نادرين . كان أونجاريتى الشاب يشارك فى الجدل والشجارات بداخل نيران «الكوخ» .. فى أثناء نموه ، نبتت له شعيرات خفيفة شقراء على شاربه . ولحية صغيرة وسوالف كان يطيلها على عارضيه ، هى الصورة المثلى لخروج الإنسان من مرحلة المراهقة إلى سن النضج . لم تكن كل معاركه من أجل الخبز والمساواة ، فهناك أيضًا الرغبة فى التحرر من قوانين البرجوازيين : الرغبة فى السيطرة على العالم . كان تحركه دون هدف . يحطم بغضب الشباب ، ليرى كيف تصنع الحياة .

لم يكن أونجاريتى مغرمًا بالمسرح ولا يحمل عنه حتى فكرة طيبة ، غير أنه لم يخالف اتجاهى إلى ذلك الجانب لعطف كبير كان يحمله لى . وفيما بعد فهمت أن المسألة ليست هى أنه موافق على نيتى فى التشهير

بالمسيح ، إذ إنه فى هذا يشعر بالتحرر من الفكر الدينى مثلى ومثل الآخرين فى « الكوخ » ويوافقنا على ذلك وإنما المسألة أنه لا يحبذ ميلى إلى المسرح باعتباره فنا . فهو عبارة عن حوار وتناقض فى العواطف .. فن يشتبك بالفنون الأخرى .. شعر مقيد وغير نقى . يشجب تلك الضرورة فى أن يعهد بالكلمات إلى أشخاص يرددونها : يغنونها بالصوت والتعبير الذى لا يُؤدَّى حتى كما يريد له المؤلف . ويصحبونها بحركات أصبحت مبتذلة . غير ممكن .. فن كله شعر فى عمل يؤدى على المسرح ! وبالنسبة لمن ؟ لأونجاريتى الذى كان يضبط فى ذلك الحين أوتاره الرقيقة على (قيثارته) الذهبية ، غير ممكن .. يأخذه الرعب تجاه فكرة عمل شعرى من أجل المسرح . رغم ذلك فهو لم يحاول أن يجعلنى أعدل عن فكرتى ، واقترح علىَّ تناول الموضوع مع الأديبين الفرنسيين الأخوين «جيوفانى ليونى» و «إنريكو تويل» الأول قاص والثانى شاعر ، كلاهما يعمل مهندساً فى ميناء الإسكندرية .

كان الأخوان تويل يعيشان بعيداً عن مدينة الإسكندرية على حدود الصحراء التى تؤدى إلى ليبيا ، فى منزل خشبى على شاطئ البحر ، أو بتعبير أدق ، كان البيت معلقًا بالبحر ، شُيِّد على منحدر ، تسنده أوتاد كبيرة مطلية بالقطران ، تتكسر عليها الأمواج عندما يهدر البحر من الجهة المطلة على البحر ، كانت الشرفة عالية عن الماء ، فى مستوى طابق أول لأحد البيوت ، ومن جهة اليابس كانت هناك القضبان الحديدية الضيقة التى تتوغل حتى مناجم الحجر الهش القريبة من هذا الجانب

لا يرى غير رمال الصحراء ، وبعض الخيام البدوية ، والصخور الصفراء المكومة بشكل بدائى تكاد تكون جدرانًا . تلك القضبان الحديدية الضيقة المنخفضة كانت تحمل الحجر فيما بعد إلى مخازن قريبة من المدينة ، كانت تلوح على البعد عميقة عندما يدير الناظر ظهره إلى الشمس فى وقت الغروب .

فى منزل الأخوين تويل كانت هناك الجدة ، عجوز فانية ، تطالع التوراة ، وشابة هى الأخت الصغرى ، ذات وجه شاحب كبير وعذب .

أذكر أننا وصلنا أنا وأونجاريتى وقت الغروب على حمير شهباء إلى ذلك المنزل الذى بدا لنا أكثر من خيالى .. مهيب ، لكنه مهما يكن فهو يعد ضائعًا فى الصحراء أكثر من أن يعد مشيداً على أقدام البحر . لم تكن حوله زروع تشيع البهجة : منظر مقفر ، لم يكن يكسر صفرة الرمال وصفرة الأحجار سوى سواد ذلك القطار المترب الذى كان يلهث باهتزازه مثقلاً بالحصى ذهابًا وإيابًا على القضبان المتناهية الصغر .

كان الحِداد يخيم على هذا البيت حديثًا يحمل وطأته كلها تقريبًا الأخ الشاعر ، ولكن الآخرين أيضًا عليهم ظلال الألم : مصابة قلوبهم بشكل غير مباشر من أجل عروس الأخ الفقيدة، ولكنهم منشغلون بقدر ما هو منشغل بجرحه العميق ، ولئن كانوا لا يرتدون الحداد ، فإنهم يتفقون فى هيئتهم على مشاطرة الشاعر حزنه . ولم يكن البيت مطليا بألوان فخمة : المشربيات مغلقة ، والستائر تهدئ الضوء . الأثاث داكن

اللون ، والمكتبة جميلة وغنية وواسعة . الحديث منخفض ينبعث من عمق الحلق .. حديث متناغم .. نعم .. لكن هذه النبرة الفرنسية الحنجرية تعطى لأذنى الماجنة شعوراً بأنها صلاة هامسة فى طقوس لا أعرفها .

كانت الجدة قليلة الكلام غير أنها ليست منعزلة ، كانت تشارك بذكاء فى الحوار الذى بدا لى وظيفة طقسية شعائرية . لم تكن تقرأ فى التوراة المفتوحة على ركبتيها ، تترك يديها تنسدلان فوقها مع عقدهما وهما مفتوحتان على الصفحات الملونة وتشبه الرقاع الحقيقية ، لكنها أنصع قليلا من الرقاع الحقيقية التى دعموها بمثلث حاد الزوايا فى ذلك الكتاب الفخم المطبوع بحروف هجائية كبيرة .

حملت الأخت القهوة المحلاة بالسكر ، والزبد فوقها كما يفعلون فى الشرق ، أسندتها إلى نضد أعلى كرسى مستدير ومنخفض كان يمثل نموذجًا لإحدى المآذن ، ثم قدمتها لنا بنظام .. الجدة أولاً ثم أنا مثلا لأنى حديث الوجود فى البيت . بدت لى كما لو كانت ترقص وهى تجول بها فى الحجرة بشىء من التمعن والذوق ، تكسر الجو القاتم الذى خيم فى شبه الظلام على صورنا الثابتة ، التى تعطى فى النهاية فكرة الحياة . كان ظهور الأخت رقيقًا ومرحًا أيضًا بالنسبة لأونجاريتى الذى كان يرمقها بعينيه الزرقاوين وتتسع على شفتيه ابتسامة .

لولا هذه الشابة لكان يمكن أن يعد البيت مقبرة . الشاعر ما زال مرتديًا السواد ، هزيلاً، شواربه تميل إلى الحمرة ، كان يقيس الخطوات

على تلك الأرضية الخشبية كما لو أنه يخشى أن يوقظ نائمًا هناك . على مكتبه القريب من باب حجرة نومه المغلق كانت هناك الأوراق الأولى لقصيدة كان قد شرع فى كتابتها ، يتذكر الأوقات السعيدة قبل رحيلها :

(من أجلك أود أن أترك الباب الكبير مفتوحًا)

لكن الحياة الآن مستحيلة ، إذ إنها ذهبت إلى الأبد ولا أحد يمكن أن يتحمل ذنب إهلاكها حتى لو كان اللّه ، لأن اسمه هذا كلمة عبثية .. لكن فرانسيس جيمس لم يكن يفكر هكذا ، ذلك الذى يبعث من أورتنسيا خطابات حارة فى الحب المسيحى يطمئن بها صديقنا . فى ذلك اليوم وصل أحدها قال عنه تويل الشاعر إنه « مؤثر » فى ذلك الخطاب يريد فرانسيس جيمس ألا يستسلم أحد لليأس ، وضرب لذلك أمثلة ، حتى يكون مقنعًا ، أب ومعلم أكثر من كل شىء .. أخ فى المسيحية : تلك التى يعهد إليها أمر ألا يترك صديقه الشاب على حافة الهاوية التى تقود إلى الجحيم .

كان هنرى تويل يضحك بمرارة من هذه الخطابات الساذجة ، من هذه المطمئنات ، ويسألنا متهكمًا إن كان يمكن أن يوجد إنسان بهذا الإخلاص ، أو أن طمأنات فرانسيس جيمس تعد على الأصح ميولا أدبية . مثله مثل الآخرين جميعًا . وقبل أن يتلقى منا إجابة ، وكأنه يريد أن يعوق إمكانية التأكيد ، نهض من على المكتب وفتح المكتبة وتناول كتابًا ذا غلاف أحمر وقال : « أريد أن أعرض عليكم طبعة نادرة لجزيرة البطريق » .

لم تكن اللحظة مناسبة للحديث عن يهوذا الإسقرطى مع هنرى تويل الذى يلفه ألم لا يجد منه راحة فى شىء يتعلق بالإيمان ، هو مريض

حتى الجنون ، فقررت أن أهجر الفكرة ؛ لأننى لم أكن أريد فقط أن أبسط للشاعر عقدة أحداث قصتى الدرامية ، ولكننى أيضًا أريد مشاركته ، وأدركت أن هذا ليس ممكنًا . أشرت إلى أونجاريتى أن يمسك عن الكلام ، لكنه بدلاً من ذلك تحدث مع الأخ القاص ووجده متحمسًا لأفكارى التى كانت فى حقيقة الأمر سبًا وحشيًا ليهوذا الإسقرطى خائن المسيح .

وفى هذا الموضوع انقضى اليوم .

بدت لى الحجرة الطويلة التى تطل نوافذها على الشرفة الفسيحة أمام البحر من جانب ، وعلى رمال الصحراء الصفراء وحصاها من الجانب الآخر ، بدت لى أكثر قتامة فى الغروب : بها برودة الضوء المزيف ، الضوء الشرقى ضوء المريض ، الضوء الذى بدخوله البيت من فتحات الشبابيك يلتقى فى وسط الحجرة بأشعة الشمس الحمراء التى تهبط ، فيصنع معها شرائط أفقية كأنها شفرات قاطعة ، تتقاطع وتذوب ليتحول الضوءان معًا إلى لون آخر يعطى شعورًا بالثلج الصناعى ، تمامًا مثل مؤثرات ضوئية على خشبة المسرح تسلط على صور لدراما غير واقعية .

لكن النهار الآن مضى ، وأضيئت الأنوار وأخذ كل شىء وجهًا آخر .. الأثاث والأشخاص . فحدثت نفسى قائلا : «ها هو ذا المسرح» . الآن تغير المشهد والحجرة نفسها أصبحت عادية بعد أن ولى النهار ، فقدت الزيف الذى صبغتها به انعكاسات الضوء على خشبة المسرح .

عادت حجرة يسكنها أناس عاديون . انظر كيف يكفى القليل لتغيير مظهر الناس والأشياء ! المصباح من أعلى يحتفظ بكل شيء تحت مخروط الضوء في وضوح غير مبهر لكنه دافئ ودود ملؤه قلوب الأسرة والضيوف ، حتى الحزن بدا ذابلا ، ولو كان هناك بعض التجاعيد فهى لا تكاد ترى ، واتتنى رغبة فى الابتسام أنا أيضًا للأخت الشابة كما كان يفعل أونجاريتى ، لكنى بمضى الوقت تآلفت مع الجدة كنت أدير حوارًا معها ، بينما كان الآخرون أمام المكتبة الفائقة الجمال ينظرون فى المكتب ، يقلبون صفحات نادرة مرسومة بيد الفن ، تبعث فىّ أنا - بوصفى رجلاً خشنًا - الملل .

كانت الجدة هادئة ، بذلك اليقين الذى يكون للحكماء ، الذين رأوا الكثير فى الدنيا ، فلم يعد يزعجهم شيء .. لا خوف يمكن أن يستبد بهم ، حتى ولا الآخرة التى تفزعنا نحن ، لأنه لم يعد هناك فى نفوسهم شك لا فى ذلك الخير ، ولا فى ذلك الشر الذى يمكن أن يكون فى انتظارهم .

قلت لها : « كم من الكتب ، وكم يولع أحفادك بالأدب ؟ » .

أشارت الجدة برأسها موافقة . فلمّحت قائلا : « بالتأكيد فى بيت كبير كهذا بعيد عن المدينة . من شأن تلك الكتب أن تكون مواساة كبرى » .

بدا لى أن الجدة لم تقتنع بهذا التفسير .. فطنت إلى هذا من نظرتها ومن فمها الذى انغلق بطريقة تبعث على الشك ، حتى الكتاب الذى كان على ركبتيها أغلقته .

« هل كل هـذه الكتب من الأدب الحديث ؟ » .

« نعم نعم ، كلها » أجابت حينئذ وأمسكت كلمة ، فبـدا لى كما لو أنها تريد أن تضيف « مع الأسف ! كلها حديثة » .

قلت مصرا على هذه النقطة : « بالتأكيد تكون مصدراً للراحة » . لكن الجدة حينئذ قررت أن تقول : « لو كانت هكذا ، لما كان هذا حال حفيدى ... » مشيرة إلى حفيدها الشاعر الذى لم يعد يجد متعة فى شىء على الإطلاق . واصلت إصرارى .. « على أيَّة حـال ، من بين تلك الكتب الكثيرة ... فقاطعتنى قائلة : كثيرة جداً ، أكملت قد يكون هناك واحد ذو فائدة لروح حفيدك المضطربة » .

« لو كان هكذا ... لكنها كلها كتب عديمة الفائدة » .

« هل قرأتها ؟ » .

شرعت فى الضحك فبدت جميلة تلك العجوز الضئيلة وشعور الذنب يلفها .. انكمشت بين سنادات المقعد وظهره . كانت ملابسها بسيطة وصحية طبقًا للعادات السلوكية فى كل حياتها . عندما فرغت من الضحك قالت لى : « إن هذه الكتب ليست لى . أنا يكفينى هذا » . رفعت الكتاب الذى كان على ركبتيها « هنا بالداخل يوجد كل شىء » ، ثم كررت هى السؤال فجأة : « وأنت ألم تقرأ التوراة أبداً ؟ » فأجبتها بالنفى .

قالت : « عندما يتقدم بك العمر ، ربما تفهمنى ، وعندئذ ستعطينى الحق » .

ولكنى كذبتها القول .. فأنا قرأت التوراة ، وأقتنى منها طبعة جميلة ، كانت عن ترجمة ديوداتى ، من لوكا مثلى ومثلى غريب . وكان لها الفضل فى تمرس ذوقى بالآداب . وهدّأ فى الحنين ، بقراءة أعمال العهد القديم ، ولو أنه فى ذلك الشكل القديم المقعر ، لكنه على كل حال غنى ودقيق ومشرق الأسلوب فى طريق استخدام بلدنا ، بدا لى وقتها أنى أسمع قصًا تخريفيًا لفلاح من لوكا ، أحد أولئك الذين جابوا العالم غير أنهم ظلوا متمسكين بلغتهم ، يتحدثون ببطء وثقة دون كثير من الحماسة ، مركزين على كل حدث تركيزًا مناسبًا ، نعم ، لدرجة أنهم لو رفعوا نبرة صوتهم قليلاً لنقلوا الأحداث بحيوية أكبر ، لأنك تعرف أن القاص يحتفظ فى صدره بتلك الصورة أو بذلك الحلم ، وأيضًا بتلك الظروف ، دون أن يلقى بالكلمات الضخمة المحرشة مفخمة ، القاص يوصل شعوره الشخصى ، لأن به انفعالا مكبوتًا من أثر التعاليم التى تأصلت فيه منذ زمن غابر عن طريق الإتروسك سكان أرض لوكا الجميلة الذين نزلوها مستعمرين وأسسوا إيطاليا ، وعنهم ربما أخذ طيلة حياته مزيجًا من رقة الروح وصفاء اللغة .

بالتأكيد كنت أشعر به ، طعم بلادى ، فى لهجة ذلك المترجم البروستانتى المنعزل وأصبحت حقًا - دون أن أريد - شديد التعلق بوطنى ، غارقًا فى مخيلتى كنت أعتقد أن الحنين الذى يعذبنى قد هدأ ،

ولكنى على العكس وجدته قد شُحِذ ، انظر إلى القدر .. كان لا بد أن يعاودنى الحب الإيطالى فى أثناء المعايشة العالمية فى مصر البابلية هذه التى من شأنها أن تقنعنى بعدم الجدوى وبضرر الأوطان . فيما بعد ، وبينما كنت أجدف جاءتنى رغبة الرب فى الميل إلى الأدب والتشوق للعقيدة وإلى الجحود من خلال كتاب حصلت عليه فى أحد معابد البروتستانت نظير مبلغ زهيد .. لم يكن شراءً كاملا ولا إهداءً كاملا . إنما عن طريق دعاية كان الغرض منها زعزعة الكنيسة فى روما ، حتى الذى أعطانى الكتاب لم يكن يتكلم لغة الكتاب الذى يبيعه .. كان يرطن بلكنة شمالية كلمة « التوراة إيطاليا » فهم أننى إيطالى . لكن هناك فى ذلك المعبد كانت أكوام من نسخ التوراة على مائدة البيع مترجمة إلى جميع اللغات . طبعات ثمينة وأخرى أقل ، لكل الأذواق .. طبعات ضئيلة الحجم يحتفظ بها فى الجيب وكبيرة توضع على الأرفف ولم يكن للثمن أهمية .

ثم عرفت أن ديوداتى المترجم كان من لوكا ، فبدت لى القراءة القديمة حينئذ أكثر سهولة . اكتشفت فى نفسى قدرة على التحمل لم أكن أعرف أنى أتمتع بها . كانت لغة المترجم هى التى دفعتنى للتعاطف مع التوراة ؛ لو لم يكن من لوكا منفيا ثائرًا لما قرأت ذلك الكتاب المليء بالتكرارات ، المكتوب على هيئة مقاطع شعرية ، فى أغلبها قاتمة لا إنسانية ، وكانت ستبدو لى مضحكة تلك الأحداث التى لا أومن بها . لكن منذ أن قالوا لى إن ديوداتى اللوكى الثائر على الكنيسة هو الذى

عمد على يد البابا نفسه وعلى يد ملك ، وقت أن كانت لوكا بغير الأسوار الحالية بدا لى أن تلك الأحداث التى قصتها التوراة ، والتى تبدأ من خلق العالم وما تلاه تؤدى إلى إنكار وجود اللّه ، وإلى وضع الإنجيل والكنيسة موضع السخرية .

ليس هناك أسوأ من العصامى الذى كون ثقافته بنفسه عندما يتمادى فى الخطأ ! عندما يعتقد أنه كشف شيئًا ما يصر عليه . هو الذى تعب كثيرًا ليتعلم أشياء تأتى للدارس النظامى مرتبة وبشكل تدريجى غالبًا لا يكون به شغف وإنما يتصرف بطبيعته المتعالية والعنيدة فى الحصول على المعرفة ويعتقد أنه امتلكها وليس من السهل زحزحته ، وإقناعه بالخطأ . الدارس من بدء الدراسة حتى الشهادة الجامعية ، خطوة بعد خطوة ، لا يمكنه أن يفهم ماذا يعنى أن يظفر بالمعرفة بنفسه . تمامًا كالغنى ينفق ماله بسهولة ويصل إلى النضج مع الوقت الذى يهرب منه ، فماذا يعرف عن الخبز والملح ؟يعرفه .. نعم ، ولكنه لا يعرف كيف يحوزه ، ولا يعرف كيف ولماذا تقيم الثروة فى بيته . من ولد غنيًا لا يتساءل عن ذلك أبدًا ، وهو ينفق كعادته دون أن يعى قيمة المال . وهكذا فإن الدارس النظامى يجد نفسه غنيا ، أى مثقفًا ويتجاوز الامتحانات عامًا تلو الآخر دون جهد ودون أن يعرف ذلك .. إنه انتظم على يد الوالد والمعلم، فهو قد تعود على السم مثل ميتريداتى المحظوظ . على أية حال بين ألف من هؤلاء المؤهلين الذين أصبحوا كذلك بدقة ، ربما يظهر عشرة مثقفين يفهمون الواجبات والمتاعب ، وربما أيضًا

يتجاوزون عن تعالى مَنْ تسلقوا دون إرشاد ودون آلات فوق جبل من زجاج ، وعن أخطائهم ، وربما أيضًا كان هؤلاء العشرة عصاميين للوصول إلى العلا ، اضطروا إلى تحصيل العلم بأنفسهم ، بينما لم تعطِ المدرسة والجدول التسعمائة والتسعين الآخرين، متواضعى العلم والثقافة الكثير مما يؤخذ فى الاعتبار .

لا أريد أن أمدح العصامى ، فربما يعد مدحًا لنفسى لأنى أعى جيدًا أن ما يعرفه العصامى يعرفه مهوشًا فقط . وهذا الحدث يؤدى إلى الإبداع لو كان العصامى خصب العقل . الآن عرفت أن الإبداع ذنب ، أنه من الصعب فهم المعنى الحقيقى للكلمات ، عرفت لماذا لا تضع الكنيسة الإنجيل بين يدى الشعب دون أن تقول لهم مقدمًا كيف يجب أن يفهموا ؟ حينئذ بدا لى أنها تفعل هذا بدافع شرير .. لأنى كنت أعتقد أن قراءة الإنجيل كما هو كانت كافية لكشف قناع البابا ، والمسيح وأمه وخلافات أخرى دقيقة هكذا حول أحداث الإنجيل كانت تتردد فى ذلك الدير ، حيث اشتريت التوراة المترجمة عن اللوكى الثائر على البابا ، منحتنى الثقة والاعتزاز فى أن يهوذا لم يكن خائنًا من أجل ثلاثين دينارًا ، ومن هنا جاءتنى الرغبة فى تأمل هذه الشخصية كثيرًا فى بغضها للكنيسة .. لا يمكن أن تكون الثلاثون دينارًا باعثًا لمثل هذه المأساة ، نعم .. هنا يأتى عمل الخيال .. وكما يأتى الخيال جاءتنى فكرة أبوة يهوذا فى ساعة صفاء .. وهبت له أحد الملوك أبًا ، ملكًا سيئ الحظ . آخر ملك حمل على رأسه تاج الأمة الإسرائيلية . ليس منحدرًا من سلالة داود ، بل قبيلة

ماكّابيا ، سلالة المحاربين الذين بعد أن حرروا الوطن من الاستعمار الأجنبى بجيوشهم . استعادوا حقوقهم ، ليعود ازدهار التاج المتهاوى باسم أسرةٍ مالكة جديدة هيأتها الإرادة الإلهية .

كان هذا الاكتشاف الأخير هو الذى جعلنى أشعر بالفخر . نسبت أبوة يهوذا الإسقريوطى إلى إيركانو الثانى ، الملك الأخير الذى خلعه إيرودى مغتصب العرش ، المعتدى على الأبرياء ، وأسره .. تلك المذبحة التى فر منها المسيح .

قامت الجدة تويل ، وأعطتنى الكتاب لتخلّص يديها . فتحت الشيش الذى كان يؤدى إلى شرفة خشبية تطل على الصحراء ، ثم على الفور استعادت الكتاب من يدى بشكل غيور . على الشرفة شريط من ضوء القمر المقوس ، لأنه كان يتجه فوق السطح ناحية الغرب ليترك على موائد الشرفة ظل مثلث واسع ممتد كشكل هندسى رُسم بالحبر الشينى فوق مشروع هندسى ، الشاعر والقاص وأونجاريتى يتابعون تصفح الكتب ، وأنا بقيت أمام المشهد .. مذهولا من هذا المنظر الجليل المهيب .. رمال ، صخور : وصحت .. ها هو ذا مشهد آخر من مسرحية حياتى . لا سحابة ! كل شىء ساكن حولى .. المشهد.. الهواء والأشياء . بمجرد أن مالت نسمة بحرية تجاه الشرق تصاعد دخان من إحدى الخيام البدوية المفتوحة من هذا الجانب ، هناك بين الكثبان الرملية ، وتشكل ظهر جمل يرتاح ويجتر . أما الخيمة البدوية فتبدو حقا كجمل مشقوق البطن .. حتى شكل العنق والرأس تمثله الحبال التى تسند

الخيمة .. تلك النيران الضئيلة التى تبدو ساطعة داخل البطن المفتوح لا يمكن أن تكون لطهى عشاء إحدى الأسر . يمكن أن تستدعى نفسك أى شيء غير هذه الفكرة إذا رأيت مشهداً مهيباً فى وسط الصحراء . كانت الأصوات التى تصل إلى الشرفة تسبب إزعاجاً . غير أنى لم أجسر على النطق بكلمة . يكفينى أن أغذى عينى من مشهد لا يستطيع أى مسرح فى العالم أبداً أن يقدم مثل روعته . وانتبهت إلى أنه حتى الجدة التى جاء ت معى إلى الشرفة لم تستطع أن تقول شيئاً كانت مستندة إلى إفريز الشرفة ، ويبدو أنها المرة الأولى التى تعجب فيها بتلك الروعة . ولا الفتاة التى انضمت إلينا الآن ، ووقفت بينى وبين الجدة ، بذراعين متشابكتين على المسند استطاعت أن تقول كلمة عند وصولها . ضحكت دون جلبة فتحت فمها الواسع ، وارتسم الضحك على وجهها الكبير وعلى عينيها . لفت ذراعها حول عنق الجدة وضمتها إليها قليلا . ونظرت إلىّ كانت تريد أن تقول شيئًا . ربما أرادت أن تقول : إن الوضع هنا فى هذه الشرفة أجمل وأمتع منه هناك داخل تلك الحجرة أمام الكتب ، حيث كانت هى قبل أن تأتى وتنضم إلينا أنا والجدة . كانت هناك مع الإخوة ومع أونجاريتى تتحمل بصبر أمام تلك الأرفف المكدسة بالكتب ، لتسمع استعراضًا لقراءات الأدب ، وماذا تعنى بالنسبة لها تلك الثرثرات ؟ ولو لم تكن قد غادرتهم منذ البداية ، فهذا فقط حتى لا تبدو عديمة اللياقة أمام الضيوف . لكن بمجرد أن فتح الشيش ولاح ضوء القمر ، لم تعد تحتمل . جاءت هنا لتستمتع هى الأخرى . بل إنها أحق الجميع

بهذه المتعة لأنها شابة فى مقتبل العمر وتحتاج لأناس مرحين من حولها .. أولاد فى مثل سنها يأتون بأعمال جنونية .. بدلا من ذلك وجدت نفسها هنا كتلميذة منسية فى إحدى المدارس الداخلية تحت التصفية . وها هم أولاء المصفون هناك .. الشاعر والقاص وأونجاريتى الخبير يبدو أنهم يقومون بالجرد وبتقدير الكتب . من بينهم الأخ الشاعر وقد تحدثت عن مزاجه . أما بالنسبة للآخر .. القاص ، فهو يكتب قصة بعنوان «الثلاثى الملعون» . والجدة التى كانت أكثرهم صفاء لا تستطيع بالتأكيد أن تجارى مرح هذه الشابة التى تكبح غرائزها ، وتقمع وثبات شخصيتها ، فهى تقريبًا خائفة أن تعاقب لانتهاكها قوانين البيت ، ترى هل يعد إذن وصولنا اليوم إلى هنا عيدًا ؟ عيدًا كبيرًا ! على الأقل بالنسبة للفتاة هذا لو حكمت عليها من خلال عينيها وابتسامتها ، لو حكمت على ما شعرت منها .. كلها حياة مكبوتة . لديها اليوم على الأقل فرصة لقلب الحياة ، بعد أن تحطمت العادات الباهتة . يكفى تجهيز القهوة والبسكويت . وتحريك الأقداح المذهبة ، وترتيب الفوط على الصينية .. نوع من الخدمة الفاخرة المفاجئة .. تأنقت قليلا من أجل الضيوف ، الذين لم يكونوا ثقلاء بالمعنى المفهوم ، وإنما كانا إيطاليين ذوى طبيعة مجنونة مثل أخويها ، القاص والشاعر . ترى هل يكون هذان الضيفان شاعرين أيضًا ؟.. يبدو تدفق الحياة أكثر سرعة ، وإذا قرع الكأس بالآخر وأصدر رنينًا ، فإن صوتًا عذبًا يشيع فى المنزل الكئيب . ولو كانت تتوجه بسرعة للقاء الضيوف فبفضل شبابها ، مبررة خطواتها الراقصة

بفعل المرح الذى يصدر من داخلها . لكن الحياة لن تكون دائمًا هكذا .. وحتى هذا الانشغال غير المنتظر يعد سعادة قصيرة . فعندما نمضى ، وسنمضى من هنا فى خلال فترة وجيزة ، سيعود البيت كما كان دائمًا صامتًا ومغلقًا . والفتاة التى وقفت الآن بينى وبين الجدة وذراعاها على حافة النافذة انتابها الضيق ؛ لأنه فى خلال ساعة سوف يغلق القوسان اللذان غيّرا تقاليد الشهور .

لماذا تحول رأسها - كما أفعل أنا - تجاه الشمال ، إلى ناحية المدينة ؟ والجدة أيضًا تنظر إلى الإسكندرية التى هى عبارة عن ضوء يتلألأ فى الظلام . حتى جانب الميناء يبدو مضاء من أثر الفنارات المصفوفة على الرصيف ، ومقدمات بواخر الشحن السوداء تشكل لمن ينظر إليها كتلة واحدة كما لو كانت منحدراً لإحدى القلاع ، لا يمكن أن يقال إنها سفن ما لم يفطن إلى السوارى بين إشارات الليل الحمراء والزرقاء . هذه الإشارات على حافة المدينة .. هذا الجزء من المرفأ الذى تحميه الجلاميد الصخرية الصفراء . هذه القطعة المختصرة من البحر الذى يرى حيا زاخراً بالزبد بين الحصى .. هذه كلها تعطى الشعور بالحنين للحياة .. اليقين بأننا لسنا فى وادٍ صحراوى .. الأمل فى أنه بعد مسافة قصيرة سنلتقى بالبشر ، وحركات المرور ، والرغبات ، ونشعر بعودة النبض إلى القلب . الآن تحول ثلاثتنا تجاه المدينة ، تجاه ذلك الجزء الكبير من البحر الذى ينحنى وتلجمه الصخور . الآن تبتسم الجدة أيضًا مثل حفيدتها . الصحراء خلف ظهورنا ، تتقدم لتنبسط على إيماننا .. تواجه الشرقة ، لكننى أتحاشى النظر إليها وأريد أن أنساها .

والحديث أيضًا يمكن أن يدور دون القيود السابقة .

كنت أعرف أن الشرفة تدور حول المنزل كله ، ولكنى عاودت السؤال عن ذلك ، فأجابتنى الفتاة : « نعم ، ولكن من ناحية البحر ، مساءً يكون الجو باردًا » .

تحركت من ذلك الجانب تجاه المدينة . تبعتنى الفتاة . توقفت عند بلوغى نقطة العمق فيه ، حيث تشكل الشرفة مربعًا عموديا على الجانب الآخر للمنزل ، لأن رؤية الميناء بدت لى قريبة جدًا ، ففاجأتنى .

قالت لى الفتاة : « هناك فى العمق الآخر أيضًا يرى بشكل أفضل » ، فذهبنا حيث قالت ، أى إلى الجانب المقابل للشرفة .. إلى ذلك الجانب من المنزل الذى يواجه البحر عن قرب ، هو الأكثر ارتفاعًا على المنحدر وتحت الشرفة كان البحر يهدأ ، والموجات الميتة التى لا تسبب زبدًا ولا تحدث صخبًا . منذ قليل كان يبدو لى أننى فى نهاية العالم ، لكننا بدلا من ذلك خرجنا توا من الميناء ومدخله المعرّى الضخم الذى ليس له جبل يدل عليه . لون الرمال المنخفضة يختلط بذلك اللون الترابى للبحر .

« الملاح المستهتر غير الخبير الذى يغامر دون دليل ، لابد أن يغرس مقدمة السفينة وسط الصخور » قالتها الفتاة ، حيث إنها رأت سفن الشحن المختلفة تغرق هنا . وذكرت إحداها التى غرقت حديثًا ، كانت إيطالية ، وكان على ظهرها الممثل أرميتى نوفيللى وفرقته

الكوميدية . وحدثتنى عن الغرق الذى حدث فجرًا وعملية الإنقاذ . قالت : « كان يوم الاثنين » ، ثم سردت التفاصيل بدقة : « السفينة كان اسمها القاهرة .. سقطت هناك » وأشارت إلى المكان . « هناك مرتفع أرضى تحت سطح البحر يشكل خطرًا على السفن » وجعلتنى أرى الشمندورة بالفنارات ، كان حديثها واعيًا . « حدثت فى العصور الماضية هزات أرضية ابتلعت الأرض ، ودفنت أساس هذا الميناء الشهير .. ويوجد أيضًا (ميناء مدفون) لا يزال تحت تلك المياه الهادئة لم يمسه أحد . يمكن أن يرى أثره عندما يكون البحر هكذا ساكنًا – وهذا نادرًا ما يحدث – لأن الطين لا يجد ما يحركه فيعكر الماء » . ثم ضحكت الفتاة وقالت : « صديقك أونجاريتى يعرف أن هناك تحت الماء (ميناء مدفونًا) ... وتظاهرت بأننا نستطيع أن نحدق فى المياه الصافية ... وضحكت مرة أخرى من غرابة أونجاريتى .

لكننى لم أعد أستمع ، ولم أعد أنظر فيما حولى ، أرى فقط الفرقة الكوميدية الغارقة فى فجر ذلك الاثنين . أرميتى نوفيللى الذى كنت أعرفة فى زى الملك أوديب ، أجد نفسى الآن أمام مهابة كوميديا يهوذا الإسقراطى . إنه المسرح الذى يطاردنى .. إنها الشخصية الشريرة التى تستولى علىَّ وتصحبنى أينما ذهبت وأينما أذهب .. تظهر لى حتى لو لم أبحث عنها . بينما أنا أتمثل يهوذا والكوميديا والغرق ، قمت بجولة فى الشرفة ، عدنا إلى نقطة البداية .. أمام الصحراء . لم تعد الجدة فى مثلث القمر ، حيث إنه قد رحل إلى الجانب الآخر .. الغربى .

عندما نزلنا أنا وأونجاريتى لنعود إلى المدينة ، كانت دجاجة عرجاء تصعد السلم ، عرفنا أنها الوحيدة فى الحظيرة ، لأنها لم تكن تبيض ، ولأنها كانت تسير إلى الموت الطبيعى .

والحمير البيضاء بلون الحمام يكاد يغلبها النوم على حرارة الكثيب الرملى ، حتى لا تكذِّب المثل السائر : (الكسول يستحق الضرب) . وفى أثناء الطريق أبدت الحمير الحِران وأرادت أن تطرحنا عن ظهرها فانزعجنا ، نحن ، لأننا نحيفان وعلى غير خبرة بالركوب .. كخلفاء زائفين لدون كيشوت فى هذا العصر المادى .

لم تدم علاقتى بالقاص جين ليون طويلا ، بعد أن كنا قد تبادلنا الأفكار حول الشخصيات وحول طريقة حبكة الأحداث ، ظهر أن اتفاقنا قد انتهى ، كما هو الأمر فى عقد قران فاشل اكتشف صبيحة الزواج ، ولم يكن ذلك بسبب خيبة أمل فى حب ضائع ، فلم يقل احترامى لشريك حياتى الذى أخطأت فى اختياره ، وإنما هى شخصياتنا التى لم تنصهر معًا ، بسبب اختلاف الطبائع .. أنا عصامى ، وهو نظامى مدرسى . ثم تميز فينا بعد ذلك - كجميع الشخصيات عناد بهدف تكوين عبقريتنا - تكبُّر فى مذاهبنا الفكرية .. صفات لا تخضع ولا ترتبط بكلمات الآخرين وأفكارهم لا بالكلمات ولا بالأفعال ، حتى لو اتفقنا على عمل ما بشكل عام ، فإن الاختلاف الذى يفصل بيننا يظهر واضحًا فى طباع ذاتية خاصة .. كما حدث بيننا فى الرأى الخاص بيهوذا الإسقراطى ، الذى كان يحرن متفاديًا فرس الشيطان يكبحه اثنان من الساسة ، كلٌ يجذب

ناحيـة الإسطبل المقـابل ، الذى كنا نمثله أنا والقـاص . بعـد أن ظلت شخصيـة يهوذا تسيطر على فكر واحد لوقت طويل ، رفضت الآن فى عقلى - بوصفها شخصية شريرة - الالتصاق والتكيف مع تلك الطرق القـدرية التى تميل إلى الوفـاق . هكذا بدأت بذور الاخـتـلاف تنمـو فى التفاصيل وفى الشكليات ، كلما اتسعت دائرة الدراما .

لم أكن أريد - مثـلاً - أن يظهر يسـوع فـى المشـهـد . بينمـا فكر شريكى أن يكون المشهد الأول هو مشهد يسوع وسط الحواريين . وكان حواره غنيا وخاليًا ، غير متعصب كما هـى الأهداف التى نرمى إليها ، لكننى لم أفكر فى أن المسـيح يمكن أن يتـحـدث لغـة مـزدهرة وعـذبة هكذا ، لو استطعت لاستبعدته من الدراما . من حيث إنه شخصية ترى على خشبة المسرح متحركة ومتحدثة . ثم حديثة بتلك الطريقة : كان حديثًا أنثويا متكلفًا .. هو مسيحىٌ فرنسـى أكاديمى .. جدلى .. رفيق ، شهوانى ووثنى تلك الوثنية المتداعية . ليس رومانيًا وليس ساميًا . كان مثل سان سباستيان الذى يمتلئ بالحس وبالإيمان معًا . سادىٌ لا تبدو عليه البطولة وكأنه بيزانيللا التى تمثل الخطيئة عند دانونتسيو .

كنت أريدها أنا دراما ليهوذا . كنت أراه ثائرًا دون جدوى ، بينما كان يسوع يقتحم الحشود ويصنع المعجزات ، كان يتجهز للاستشهاد .

لكن هذه الأعمال المسيحية كنت أريدها خلفية للأحداث ، فى حين يشحذ يهوذا السنان لتحقيق أمله . فالمسيح ليس فى صراع مع يهوذا ، ولا حتى كان يعرفه .

كان يهوذا فى تصورى يرى الجموع تنفضُّ من حول المسيح وتلتف حوله هو . وكنت أريد كلمات زهيدة ملائمة للمواقف .. مأساة قاتمة . وفى الحبكة الفنية إذا لزم الأمر اتجهت دائمًا إلى راسين ، بدلا من اتجاهى إلى دانونتسيو : « الملكة الكبرى أتاليا » على الرغم من أنها مصدر خيال الشعر السكندرى وبلاغته ، فإنها من الممكن أن تكون نموذجًا أفضل من ذلك الذى يريده شريكى ، الذى أصبح متحمسًا للكلمات القديمة التى وضعها دانونتسيو الحديث على لسان الراقصة اليهودية الشهوانية « الملكة أتاليا القاسية » كنت أود أن تكون الملكة بدلا من قديس دانونتسى فى ثوب درامى الهدف الوحيد هو تعريته ، وجميل هو فى عريه .. سقيم .. غامض كعرى روبنستن هذه الراقصة الروسية .. الساديَّة .. تتعذب على الفحم المشتعل وتستعذب بلذة مريضة كل طعنة .. كل ضربة سهم بارتعاشة وكلمة غنية بالرنين . حتى الأم التى تنعت سيباستيانو بالابن، هل تستمتع أم تعانى أمام تلك المشاهد؟ يبدو أنها تستمتع ، حيث إنها تضحك بدلا من أن تبكى ، الكلمات المنتقاة التى تقولها ثمينة ولامعة ، ليست التى تخرج حقا من القلب . ليست تلك التى تقولها أمٌّ مضطربة بسبب الألم ، لاستشهاد ابنها هنا ، مربوطًا إلى أحد الأعمدة .. مصابًا بجروح من سهام الرماة .

وأخوات القديس اللاتى كُنَّ حول الأم يعزينها عبارة عن كورس مبتذل الثياب ، تصدر عنهن عبارات الاستعطاف ، لإقناع القديس بأن يرحمهن ويرحم الأم وينكر الأفكار السيئة التى من أجلها ربط إلى

العمود ليكون هدفًا للرماة الذين يتمرنون برمى السهام . كانت هذه الأشكال المقززة تبدو لى وكأنها سباب إنسانى . لم يكن التجديف هو الذى يخيفنى ، بل على العكس ، ربما كانت مأساة يهوذا التى أعيشها قائمة كلها على التجديف ، عارية ، أرضية .. كنت أريد أن يكون السباب إنسانيا واقعيا لو جاز هذا القول .

حل الصيف ورحل شريكى إلى باريس لمحاولة نشر كتابه (الثلاثى الملعون) ، كان الناس يفرون من صيف مصر فى ذلك الوقت على بواخر شركات ميساجيرى مارتيمى إلى مارسيليا ، بالتنافس مع شركات الملاحة العامة إلى كاتانيا .. نابولى .. ليفورنو . وكذا بواخر شركة نورد لويد دوتش تبلغ بريندیزی وتريستى ، بينما كان بواخرنا تصل إلى بريندیزی والبندقية من ذلك الجانب . كان هناك إذن مجال للاختيار ، الشرقيون يذهبون للهو ومرضى الكبد يذهبون إلى فيشى أو إلى مونتكاتينى . بينما يتجه التجار إلى تريستى . ومنها إلى ألمانيا لشراء البضائع المختلفة ، وإلى جنوة ، ومنها إلى ميلانو وإلى مرسيليا وإلى بلچيكا وإلى أى مكان آخر .

أما حديثو الزواج فينزلون إلى فينيسيا ليجددوا شهر العسل . خلاصة القول أن كل من يمكنه الإنفاق كان يرحل .. فالرحلة أيضًا كانت تتكلف كما تتكلف اليوم . الفقراء فقط والوطنيون هم الذين يمكثون فى مصر ، فى لهيب الصيف ، وكذلك الذين يعملون فى الأرض ويملكونها .. الفلاحون .. صناع الرخاء الحقيقيون لهذا المجتمع العالمى المفتوح الذى اجتاح المدينتين الكبريين . القاهرة والإسكندرية .

بطبيعة الحال ، لم أستطع أنا السفر للترفيه الخارجي . كنت قد قمت بزيارة عسكرية ذات صيف منذ سنوات ، كنت في العشرين من عمري ، وجئت إلى مصر بعد أن استبعدت من الخدمة العسكرية لعيبين ، ورحلة أخرى قمت بها لمحاولة عقد اتفاقات في التجارة التي أزاولها الآن . لكنها كانت رحلات في الدرجة الثالثة ، على الزوارق القديمة ذات المدخنة البيضاء والسوداء . على أسطح تلك البواخر كان جانب من عنبر الشحن مجهزًا للنوم ، يقوم على مكانين منظمين موضوعين على المائدة في دائرة على جوانب مركب الشحن كأنها الأرفف ، الواحد فوق الآخر ، وعلى تلك الأرفف كثير من الحشايا المتجاورة فوقها الرجال والنساء والأطفال في فوضى . وعندما يكثر المسافرون توضع على سطح السفينة على شكل ظهر حمار ، كما لو كانت خيمة من معسكر ، لينام هناك جزء من المسافرين .

أذكر أني قمت ذات مرة برحلة مع حصانين وضعا في «صندوقين» كأنهما أسطبل مؤقت بالقرب من هذه الخيام ، كانت هي الخيول التي أهداها حاكم إرتيريا ، فرديناندو مارتيني، لست أدرى لمن ، ربما للملك . في إحدى المناسبات رأيت أيضًا العملات الفضية لأمبرتو الأول بتاجه الإمبراطوري . كانت عملات أثرية لم تعد صالحة للإنفاق ، محتفظًا بها في مجموعات كتلك الخاصة بماريا تيريزا .

كانت مقدمة سفينة الشحن تلك - التي من المفروض أن تستخدم مشرفة في أثناء السفر ، وكاستراحة لمسافري الدرجة الثالثة - تمتلئ

بأقفاص بها قرود وسلاحف أصلها البحر الأحمر من غابات إرتيريا .
كانت القرود حقا تشبه الآدميين ، حتى فى الرذائل : نظريات داروين التى كنت قد عرفتها فى الجامعة الشعبية ، وشحذها خيط ملاحظاتى المباشرة في أثناء الرحلة التى استمرت لثمانية أيام . كنت أقضى الأيام بأكملها أمام أقفاص القرود ، أتحدث معها . كانت تعانى دوار البحر مثلى ، ومثلى كانت تشكو الأسر . وقرب المساء تكتئب مثلى ، نعم كانت تتأوه مثلى لاختفاء الشمس . فى نهاية الرحلة تركت القرود الكآبة فى قلبى ، كما لو كانت شخصيات إنسانية تعلقت بها .

لم يكن فى هذه الدرجة ولا على هذه البواخر البرجوازيون وكبار الموظفين المصريين الذين يطلبون الرحلة إلى أوروبا ، فى فترة إجازاتهم الخارجية . كانت هى الدرجة الخاصة بالمهاجرين السوريين الذين تحملهم البواخر الإيطالية إلى سويسرا ، ومنها يستقلون بواخر أخرى إلى أمريكا فى الظروف نفسها مع مهاجرينا ، وكانت خاصة أيضًا بفقراء الإيطاليين الذين تعيدهم قنصلياتهم إلى الوطن .

كما كانت خاصة بالمسجونين فى رحلة إلى محكمة أنكونا طبقًا لقانون الامتيازات .

إلى جانب هذه الدرجة الخاصة بالبهائم وبالسوريين وبالمسجونين وبالفقراء كانت هناك درجات أخرى فى هذه المراكب ، وإن لم تكن فخمة حقا كما فى البواخر الفاخرة ، فإنه كان هناك فاصل حقيقى يشحذ

الكراهية الطبقية . على العكس من ذلك كان شريكى يرحل فى الدرجة الأولى ، ولن يمكنه أن يتغذى بمثل هذا الشعور المشتعل تجاه البرجوازية هكذا مثلما تشبع أولئك الذين بلا إرث دون كثير من التدقيق على الاتهامات التى تنسب إليهم .. بسبب الثروة ، المسئول عنهم المجتمع البرجوازى كله ؛ ولذلك فهم الهدف الوحيد الذى تصوب إليه سهام المحرومين المسممة التى كانوا يعانونها . لكن شريكى لم يكن به كل فساد روح البرجوازية ، وإنما بعض أخلاقياتهم فقط .. ضيق الأفق ، والنزعة الانقلابية الفكرية ، وأخلاق ثورية زائفة .. محافظة وملحدة .

موت الوالد فى حادث مأساوى ، والأحزان الأخرى فى منزله جعلته أكثر مادية – التى هى سمة العصر – وإنه لا يوجد خير فى العالم – لمن يفكر بهذا الأسلوب سوى خير نفسه ، الذى يعد راحة البرجوازيين . والقصة التى كان قد انتهى من كتابتها ، والتى حملها الآن لتطبع فى باريس لدى الناشر جراسيه (الثلاثى الملعون) لا أعرف إن كانت تنطوى على هذه الأخلاقيات أو على أخلاقيات غيرها . لكن الغلاف كان ملونًا بألوان مزعجة .. صور مخيفة ومقبضة .. فقط كوحش من الجوع يلتهم وجه جثة . لم يكن الموضوع فقط هو المرعب ، وإنما الألوان متوحشة الأصفر الكبريتى ولون الدم المتجلط .

بهذا السفر وبهذه الذكريات توقفت علاقتنا مؤقتًا . كما نقول : «مؤقتًا» بمودة زائفة ، إذ إن أهدافنا فى الواقع كانت متعارضة .. وعلاقتنا لم تعد قائمة .

ترك جين ليون تويل عندى ذكرى العصر المادى البحت . فى خلال حياتى رأيت منزله الخشبى ذا الأوتاد على شاطئ البحر مرة أخرى ، بقيت لدى انطباعات الزيارة الأولى ، الخطابات المسيحية لفرانسيس جيمس إلى الأخ هنرى الشاعر .. الشباب القلق للأخت التى ما زالت داخل قوقعة الطفولة ، وتتلهف للخروج منها .

لكن ذكرى الجدة بقيت فى قلبى أكثر من الجميع .

بينما لم تترك الكتب المصفوفة على الأرفف فى ذلك المنزل على البحر عندى أية ذكرى ، كتابان فقط كنت أعيد التفكير فيهما كثيراً .. ذلك الذى كانت الجدة تحتفظ به على ركبتيها ، كبيراً وأصفر بحروفه الكبيرة فى بداية الآيات ، وذلك الذى رأيته تحت الطبع بغلافه المخيف ، ذكرى الكتاب الأول والصورة النقية للمرأة الجميلة ساهمت فى إنعاش تفكيرى .. غلاف (الثلاثى الملعون) رأيته دائمًا فى عينى كل صديق ينتحر لأن الانطباع عن ذلك الغلاف الوحشى يتوافق مع النهاية المأساوية لوجود شاب .

ربما كان يدعى نيقولا زوجرافو ، لكنى لست أجزم إن كان هذا اسمًا حقيقيا ، بسبب أنى وجدته اسمًا ولقبًا ، عند هذه النقطة من ذكرياتى أكاد أصدق أن رنين كلمة «زوجرافو» التى تكون اسمه قد ارتبط بذاكرتى .. «نيقولا» يبدو لى أنى ما زلت أسمعه يجرى على لسان القاص تويل بوصفه صديقًا حميمًا يمكننى أن أتوقف عند عمره الشاب،

فهو في حوالي الخامسة والعشرين .. أقول تقريبًا لأنني رأيته مرة واحدة ومنذ عدة سنوات .. يونانيا .. أسمر .. ذا شعر أسود مصفف بعناية بالغة . ليس طويل القامة .. شاحب اللون ، يرتدي ملابس سوداء .. ربما ، ولكنها قاتمة بالتأكيد . هي مرة واحدة ، فكيف يمكن أن أتذكر بدقة ؟ قابلته ذات عصر في منزل القاص الذى لابد أنه كان صديقًا له منذ زمن طويل . بقيت الفكرة عنه مهوّشة بالضرورة . لم يكن نيقولا زوجرافو ثرثارًا ، ولكنه كان يعرف أشياء كثيرة ويتحدث عنها بإتقان ، عن مدننا التى كان قد زارها فى رحلاته السنوية . كان يتحدث عن فينيسيا - أكثر من بقية المدن - كأديب مفتون من عصور أخرى ، ولأنه يونانى إسكندرانى كانت لديه لازمة - عند الحديث بلغتنا - موجودة عند الإيطاليين والمالطيين المولودين فى مصر . كان يعرف لغات أخرى بشكل سطحى ، إلى جانب لغتنا والفرنسية التى كان يتقنها كأنها لغته الأصلية . كان يتحدث عن فينيسيا بحنين وتحسر من ترك هناك إنسانًا غاليًا .. « الآن فهمت شيئًا .. يخيل إلىّ أن شيئًا ما يجعلك تتأمل الموت .. ليست فينيسيا ، وإنما الحب هو الذى يجعلك ترتعش هكذا » كنت أفكر بينى وبين نفسى . لكن القاص تويل أكد لى فيما بعد أننى كنت على حق . كان اليونانى يعرض على جين تويل لوحاته المائية الصغيرة . كان يرسمها كهواية . لم يكن يدّعى أنه رسام . فلم يكن ذلك رسمًا ، وإنما مشاهد متوقفة على الورق النشاف .. مشاهد « حارات » وجسور صغيرة ، ومنازل وميادين ، أماكن تلح على عقله أكثر من غيرها .

أوقفها هنا بألوان جميلة ، للتذكر .. حتى « الشمس » كانت موجودة ذلك الصبـاح ، وأكمل بكلمـة يونانيـة للصـديق الذى يعرف أسـراره . وبآهة فهمت أنا أيضًا انطباعاته ، التى كانت ذكريات من رأى ساعات سعيدة فى تلك الأماكن المحددة بالفن المتواضع ، لكنها بالنسبة له رموز جميلة وغـاليـة فى الوقت نفسـه .. ذهب .. بنفسـجـة ولؤلؤة وأزهـار.. عـقـد .. أغصـان ، تحت الحوائط النقيـة ، تحت الشرفـات ناصعـة البيـاض فى الميادين التى كانت رخامية أيضًا ، لكنها قديمة منذ عصور ، فى مرآة القنوات المائية ، شديدة النقاء هى أيضًا بمياه صافية صافية صافية مـثل السـمـاء ، مـصـقـولة هى أيضًـا وزرقـاء .. كل الزيف قـائم هـنا . كـالعاشق السـعيد يرى كل الأشـيـاء حـالـمًا . يرى القـذارة التى تطفـو بشكل كريه على تلك القنوات المائية الآسنة فى الغالب . وإذا انتبه إلى تلك القذارة فإنه ينزعج . ليس من أجل نفسـه ينزعج .. لا يريد أن تقع عيناها على ذلك القبح ، الذى أهان حاسة الشم لدى جميلته . لا يريـد .. وعلى ذلك القبـح يسكب الأزرق والوردى ، انعكاسـات الجـدران المزهرة والميـاه الآسنة تلمع على الفـور .. الجـمـيـل .. اللون المثـالى للقنوات تقـوم على جوانبها النباتات المفروشة المزهرة . تظل السماء فوق رأسه ، وكل شىء كاذب يصنع الحب . لم تكن هذه اللوحات لليونانى الشاب شائقة ، مثلها فى ذلك مثل تلك التى ترى فى كل بيوت البرجوازيين ، حيث توجد فـتـاة فى الجـامـعـة .. هـى نسـخ مـشـوهة من الأصـول ، حـتى لو رئيت الأشياء على حقيقتها ، مع الجهد فى تغيير الحقيقة ، فإنها دائمًا تكبير

لبطاقات مصورة لامعة .. بطاقات مصورة ملونة لفينيسيا فى شكل ربما لم يعد موجوداً . هل كانت النماذج الأولى حقيقية ؟ أو ربما حتى لم يعد هناك وجود حقيقى لهذه الفينيسيا ؟ لكنها هكذا انطبعت الآن فى عيون بسطاء العشاق البرجوازيين وأرواحهم .

على النقيض من تلك اللوحات للطالبة العاشقة، كان غلاف «الثلاثى الملعون» بدا لليونانى الشاب شناعة فى مقابل طهر ، تجديفًا فى مقابل صلاة .. النار فى مقابل الجنة ، جنته هو .. تصوير أكثر تعارضاً من هذه التى لم تكن موجودة فى لوحاته . لا يمكن تخليها . وقال هذا ، وذكر أيضاً معتقداته عن الفن بصفة عامة ، وكانت أراء برجوازية مقززة بالية .. « جميل ذلك الذى يحوز الإعجاب . الجميل نعرفه جميعاً . يلمس قلبك ويحرك مشاعرك فى الرسم كما فى بقية الفنون » . وأشياء من هذا القبيل ، يردد القول الشائع بشكل شائع لأنه رومانسى .

كانت تصدمنى تفاهة الكثير من التصميمات ، وتعوقنى أن أتعاطف مع نيقولا زوجرافو . كنت بالكاد أتحمله .

كان الأولى بى بعد أن عرفت نهايته المأساوية ، أن أحمل لنفسى تأنيباً أن انتابها عداء سخيف تجاه شاب كان يمثل الفصل الأخير فى مأساته .. البنك الذى كان نيقولا زوجرافو موظفًا فيه كان مقره أثينا ، لكن فرع الإسكندرية لم يكن يقل عن المكتب الرئيسى ، من حيث الأعمال الضخمة . وليس من فراغ أن تعد الإسكندرية لدى اليونانيين الحاليين

العاصمة الثانية لليونان . ويمكن القول إنه ليس هناك يونانى لم يزر مدينة الإسكندر الأكبر مرة واحدة فى حياته على الأقل .

وبالتأكيد لكل أسرة – سواء كان أصلها من الجزر أو من اليابسة – بعض الأقارب الذين يمثلونها هنا . وليس هذا خطأ ، حيث إن الإسكندرية هى قبلة اليونانيين . فى الواقع هنا تتكون وتتراكم ثروة أفضل العائلات . منتجات كريت ، وتينوس ، وقبرص ، وسميرنه ، أى منتجات الجزر الأخرى الكثيرة والجميلة المنتشرة فى بحر إيجه ، توزع مفضلة مصر ، ليس فقط المنتجات الآتية من الجزر ولكن من كل الأرجاء اليونانية أو المجاورة لليابس ، ومن أيبرو ومن ألبانيا دون تحديد ، يوجد من كل شىء .. خمر ، زيت . دخان ، صابون ، فحم الخشب ، زيتون معبأ فى براميل ، رخام ، جبن وإسفنج .. الإحصاء لا يفيد ، فكل شىء موجود .. كل شىء . ويوجد أيضًا نساء جميلات يغامرن بعبور البحر كيلا يمتن عوانس فى مسقط رءوسهن . يأتين إلى هنا على أمل أن يحققن المثل القائل : « زوجات وأبقار من بلادك » يأتين ليسهلن واجبات الزواج : المئونة الضرورية لكثير من الشباب والكبار والأولاد .

لأن المجىء إلى هنا لا يعنى بالنسبة لهم اغترابًا حقيقيًا . إنما كما لو كانوا يذهبون من جزيرة إلى أخرى . كما لو كانوا يرسون من جزيرتهم إلى فاليرو ، لكى يضعوا أقدامهم على يابس وطنهم. تصل البضائع والناس من الموانى الكبيرة على البواخر ، بينما من الجزر الكبيرة والصغيرة تقترب القوارب من إيجه إلى هذا الميناء الشهير ،

بتصريح من صاحب الميناء وبسرعة ، على الرغم من أنها شراعية تدل على أمان ومعرفة الطريق الأكثر اختصاراً تبعًا للفصول ؛ لأنه باختلاف الفصول تسود أنواع الرياح . وأصحاب المراكب الصغيرة هذه ، التى تشبه أغلفة الجوز ، لديهم الخبرة : لا يفعلون شيئًا سوى رحلات مكوكية من الجزر اليونانية إلى الإسكندرية منذ أن شبوا ، كان آباؤهم ملاكًا حقيقيين للقوارب ، يحملونهم على ظهر هذه السفن ، وأحيانًا تعيش الزوجات أيضًا على القوارب ، يعملن بالتجارة ، ليولد الأولاد - الذين سيصبحون فيما بعد أصحاب قوارب - على السطح إن كان الجو حاراً، وفى عنبر الشحن على لحاف إن كان الشتاء .

والمنتجات التى تنقل بهذه الطريقة لا تتكلف كثيرًا ، فالأشرعة ما زالت اقتصادية بعد سنوات من تعب الآلات . وربما يمتلك اليونانيون الآن أيضًا مراكب شراعية آلية . لكنهم فى عصر أجداد زوجرافو كانوا يشقون البحر من موطنهن كريت إلى ميناء الإسكندرية ، ولست أقول : إن محركات احتراق ولا حتى الباخرة كانت قد اخترعت . وإنما كان البحر حينئذ « كله بهجة بالقوارب الشراعية » ينعم بالكلمات وبالخيالات .. عندما ترى بعيون العقل ، رأى زوجرافو البحر هادئًا .. عابسًا فى الغروب الربيعى .. لم تكن تبحر تلك القوارب ، وإنما تتهادى . والأشرعة إنما هى مراوح مزينة . وكل المشاهد نظيفة ومرتبة فى هذه الرؤية . لم ير الحياة هذا الرجل .. الحياة الحقيقية .. الخادعة المزينة . الآن أرثى لرسومه المائية عن فينيسيا على مكتب الروائى . كنت أريد

وقتها أن أقول له كلامًا فظيعًا ، من الممكن أن صورة مقززة تقيم التوازن . كنت أريد أن يكون غلاف (الثلاثى الملعون) أكثر توحشًا . بينما كان يدور تفكيرى حول هذه الأشياء بدا زوجرافو يغنى أغنية أثيرة .. « جميلة تلك التجارة على القوارب الشراعية ! كم كانت رائعة بالتأكيد حياة البحر ! » قالها زوجرافو بحنين جارف ، بينما هو يحكى أن جده الأكبر استقر فى الإسكندرية .. أنشأ متجرًا للبيع بالجملة للزيت والزيتون والصابون ، وازدهر . ثم انتقل من الجد الأكبر إلى الجد . وهنا توقف الازدهار .. لأن الجد عندما بلغ نهاية أيامه لم يجد فى الابن الحقيقى - والد زوجرافو - الذى ولد لأب امتلك الرخاء بالفعل - أىّ ترفه ، تتلمذ أولا فى المدارس اليونانية ، ثم فى مدارس اليسوعيين . وبدلا من أن يمارس تجارة الصابون ، ترفع عنها ، وانتهى الأمر بأن توظف فى البنك كما لو كان حدثًا اجتماعيًا خطيرًا . كما لو كان نيقولا قد ولد موظفًا ، بل شغل الابن محل والده .. كم هو وضع اجتماعى رائع إذا كان لدى الأب أعمال تجارية ورثها ، لكن الابن لم يرث حقًا صفات رجل الأعمال ، وليس بإمكانه أن يعرف من أين يبدأ لو كان الأمر يتعلق بالتجارة ، إذا كانت تجارة تجزئة وبخاصة فى أنواع تجارية رائجة ، يقال عنها أصناف أساسية من الدرجة الأولى كالصابون والزيت والزيتون والجبن الأبيض . إنها تجارة شعبية جدًا فى نظر الرجال الذين تعلموا تعليمًا راقيًا . يكفى النظر إلى يديه الناعمتين ، وأظفاره المعتنى بها وذلك الشعر المتموج المقسوم إلى نصفين بشكل دقيق .. قمتين

صغيرتين على الرأس « بكلة » مكوية ، ربما على طراز القرن الثامن عشر ، إذن فإن تأوه زوجرافوا وتذكره البحر والأشرعة الخيالية يعد حنينًا رومانسيًا .. ليس هو بالتأكيد من يمكنه أن يبحر على تلك القوارب مع كثير من الأخطار والكوارث .. حافيًا كثيف الشعر . لكنه هو الذى - يعد مهذبًا - قرأ الكتب ، يذكر هذا على سبيل التناقض العلمى ، عند قول شىء ضخم ! عندما يقول : إنه ينحدر من هناك ، من أناس أقرب للغلظة يا إلهى ! أى تطور حدث فى أجيال قليلة كهذه ! أم يشعر بكثير من البؤس لدرجة أنه يجول بفكره بوعى ما ، وبحسرة صادقة ، أن أولئك الأجداد الكبار الأصحاء والبسطاء كانوا يعيشون سعداء على الرغم من مخاطر البحر ، سعداء بالقليل ؟ هو الآن يقول : « ليت » إنه ضعيف وذاوٍ ، فتسمعه يقول : « ليت والدى أيضًا كان قد واصل تلك الحياة ، لو كنت أنا أيضًا قد أصبحت بحارًا مالكًا لواحد من تلك القوارب ، ما كانت لتتملكنى الرغبة التى لدىّ الآن . الظمأ الذى يذيبنى . ما كنت لأعانى الآلام التى أعانيها ... » حنين من الأدب الساحر . وربما كان يقول شيئًا آخر لصديقه تويل ، لو لم أكن أنا حاضرًا هناك أمنعه من قوله ، وأخالفه ليس بكلماتى ، وإنما بمنظرى العدائى .. ينفث شعورًا زائفًا .

وكل هذا الذى يحلم به هل هو موجود فى الأعماق ؟ أحلام غير مشروعة دون أساس لموظف بالبنك يشكو بهستيرية ، فقط لأنه عاشق ، لا يشعر بشىء من مشكلات المجتمع ، وكأنه مصاب بالصمم تجاه

الصراعات الأهلية التى تصدم العالم وتزعجه وتصل أصداؤها إلى هنا . أتخيله أنا من واقع القليل الذى أعرفه عنه .. إنه بالنسبة لى نصف رجل ، لا لحم ولا سمكة .. صورة شاحبة مثل كثيرين هنا . وأبتكر أنا هذه الشخصية أيضًا ، وأتصورها أكثر تفاهة وخسة مما هى بالفعل . بل إننى لأظن أنه حتى يخجل من كونه يونانيا . إنه يشعر بالخسارة لأنه ليس فرنسيًا لأن الصورة المعتادة عن اليونانيين أنهم أجلاف وتجار جبن وزيتون .

إنه يتذكر أسلافه .. نعم .. لكنه يتذكرهم لأنهم بعيدون فى الزمن . ويضيف بعد ذلك فورًا - لكى يعرف كم خطوة قام بها - أن والده نفسه كان قد اتخذ تيارًا علميًا غير أصيل أخذه عن مدارس اليسوعيين . وأساس تلك الثقافة أن يرطن المرء فيما بعد بلغات كثيرة . كان آخر تاجر فى الجبن والصابون من أسلافه هو الجد ، والد زوجرافو ، سبيريديونى الذى على حد تعبير نيقولا : « لم يكن يريد أبدًا أن يضع قدمه فى مخازن تلك البضائع المزيتة » . يوجه هذا القول لى أكثر مما يوجهه لتوبيل ، كى يجعلنى أعتقد أن والده كان بالفعل شيئًا آخر . هو حتى لم يعرف الجد . الجد الذى كان قد مات عجوزًا بعد أن اتخذ زوجة فى كبره . وعندما مات لم يكن لابنه سبيريديونى زوجة ، وبالتالى فإن نيقولا لم يكن قد ولد حينئذ . فيما بعد اتخذ والد زوجرافو زوجة نصف فرنسية ؛ لذلك يشعر نيقولا بأن دمه أكثر نقاء ؛ ولذلك أيضًا فإن دم هذا الحفيد المنحرف عن طريق آبائه البحارة مضطرب وغير أصيل بسبب قصة الحب .

قال زوجرافو فجأة : « يا للنساء اليونانيات ! » وعلى الفور تلوح في خيالي بنات البقالين والخبازين في حوانيت المدينة ، بنات الخبازين اللاتي هن في الأصل « بنات بلده ومن دينه نفسه » قلت هذا لأهينه ، ولأنه تقريباً شعر بالإهانة ، قال : « الدين نفسه !.. لا » بعد مأساة وفاته عرفت أنه كان كاثوليكيا مثل الأم .

يمكن أن أكون قد خلطت هذه الشخصية مع أخرى ومع آخرين ، أو أن أكون قد نسبت إلى زوجرافو قصتة لم تكن كلها قصته . ولكن بسبب مشاعر الحب غير السعيدة التي قادته إلى الانتحار بطلقة من مسدس في القلب ، بعد أن عاد من فينيسيا ، بسبب ذلك الحب وتلك النهاية ، يمكن أن تحدث القصة نفسها أو قصة أخرى .

ويستدعي اسم سبيريديوني هذا في ذهني الآن ، شخصية يونانية أخرى بهذا الاسم له الأصل البحري والتجاري نفسه ، دلف أبناؤه إلى سبل الحياة المرفهة التي أصبحوا عليها ، تربوا ليستقروا في مدينة الإسكندر ، حيث الفكر المهزوز الذي لا يضبط ، تشربوا أفكاراً ورغبات تجعل منهم أبناء غير شرعيين .. لا أسماك ولا عصافير .. نصف شرقيين بهم رخاوة ، هؤلاء الأبناء المولدون من بنور متعبة ، ونصف أوروبيين أفرزتهم ثورة اجتماعية ، كما هي «الموضة» .. موضة العلوم الوضعية . وسبيريديوني هذا الذي ألمح إليه الآن كان والد صديقيّ إيانكو وجورجي . وإذا كنت ذكرت اسمه فذلك لأني أرى أمام عيني اللوحة النحاسية ذات الكلمات اليونانية التي لم أستطع قراءتها .. رأيتها

للمــرة الأولى يجــرى الاسم على لسان الأبنــاء بشىء من اللامبـالاة .. مـازالت اللوحـة مـهملة هناك على واجـهة بوابة المتـجر المغلقة الآن ، كان يملكه تاجر طموح بالقرب من البيت ، حيث كانت البضائع مكدسة حتى وقت قريب ، البضـائع التى كان سـبيريديونى يتـاجر فيـها منذ ستين عامًا . غير أن حديثنا الآن عن الأبناء .

أصـيب إيانكو بالصلع وهـو فوق العـشرين بقليل ، بغيـر ذاكرة ، والآخر جورجى ، أكثر مـعرفة من سـابقـه ، فـهو يذكر أخـاه الأصلع ، وتنحصر كل معرفته بالضبط فى تذكر ما قرأه فى اليوم الماضـى . كان يدعى المعرفة بالفلسفات الجريئة ، ينكر على غير أساس ، على الرغم من أنه ذهب بعد ذلك إلى السوربون بباريس . لهما أخ آخر عرفته معرفة سطحية ، يدعى بانايوتى، قصير النظر ويصر على عدم وضع النظارات، به شىء من التخلف العقلى ، كان يحتفظ بأعينه مغلقة ، ويسير منحنيًا كما لو كان قد أصبح عجوزًا . لم أتبادل معه كلمة على الرغم من أننى كنت أقـابله كـثيرًا فـى البـيت ، بينمـا كـانت يصـعـد أو ينزل سلم ذلك الصالون الكبير ، الذى كان يبدأ بمجموعة من الدرجات انطلاقًا من عتبة الشارع ليصل متقاطعًا مع دوران طابقين ، مباشرة حتى الطابق الأخير من عمـارة مـتـهالكة ، حيث كانت شـقة سـبـيريديونى فى أعلى المبنى ، الدرج ينتـهى إلى شـرفة مـضـاءة بمصبـاح منخـفض من الزجـاج الملون متناسقة مع السقف المبتور بفعل القصف الإنجليزى عام ١٨٨٢م .

في وسط هذه البسطة الأخيرة كان باب شقة سبيريديوني . ولكنه لا يرى من بئر السلم ، ولا يُرى الطابقان الوسيطان المعترضان السلم وينشران الضوء على الشقق الأخرى المؤجرة ، وإن كانت الأبواب الواسعة التي تؤدى إلى الطابقين ترى من أول درجة على الشارع ، كانت إذن ظاهرة كلها للعين الواحدة من أعلاها إلى أسفلها ، مهيبة كسلم في قصر أحد الباشاوات ، مزودة بحبل جانبي (درابزين) ، هو بمثابة دعامة لمن يريد أن يستند إليه عند الإصابة بدوار ، خاصة عند نزول درجات السلم المنحدرة الوعرة ، من السقيفة الزجاجية إلى الشارع .

كان بانايوتي يستند إلى الحبل الأيسر عند الهبوط ، بينما يلتصق بالحبل المقابل في أثناء الصعود . نظامي حتى في هذا وفي ساعات الخروج .

كان يحييني دائمًا بالطريقة نفسها .. كما لو كان دائمًا يراني للمرة الأولى .. لم يكن يتعرف على ، ومن جهة أخرى لم يكن يعرف سوى لهجة يونانية تعلمها من أمه الكريتية التي كان يقضي في كنفها وفي كنف الخادمات معظم أيامه ، كما لو كان خادمًا هو أيضًا في البيت . وعلى الرغم من غبائه ، كان هو الوحيد الذي لا يستشعر الخجل من الأم الوضيعة . فالأخت الصغرى ، ميرى ، لم تكن راضية أيضًا عن أن لها أمًا كهذه ، بينما الأخت الأخرى - الأكبر منها ، والتي تزوجت من بقال وأصبحت سمينة مثل الشرقيات كثيرات الجلوس - لم أعرف مشاعرها تجاه الأم . رأيتها مرة واحدة في جنازة الوالد سبيريديوني .. كانت

منشغلة بطية سوداء تحفظها متوازية مع القبعة الواسعة ، الطية موضوعة كنقاب على قبعة تشبه تلك التي يرتديها القساوسة اليونانيون الذين يقيمون القداس .

في تلك الجنازة كان زوج هذه الأخت - البقال - يلبس أيضًا على الطريقة الأوروبية .. رجل طيب وميسور الحال ، كريتى أيضًا مثل سبيريديوني . ومثله كان متعصبًا ضد الأتراك ، لكن ليس من أجل هذا يبدو إخوة زوجته - إيانكو وجورجي وميرى - غير سعداء بمثل هذا الصهر .

كانت الأخت الصغرى ميرى - على العكس - نحيفة يتناقض سلوكها ومظهرها الطفولي مع القناع المأساوى الذى لا يصدق بالنسبة لأعوامها السبعة عشر فقط . لم تكن تضحك ، ولا تبتسم ، عيون سوداء وواسعة تثبت على مَنْ يحدثها ، تتأثر بضوء الشمس . شفاه غليظة ووجه ممتقع بلون الأرق . أحيانًا تكون وجوه الراهبات المكلفات بالسهر على المرضى شمعية اللون هكذا . لكن ميرى لم تكن لديها أيَّة عاطفة دينية . أخذنا نتحدث عن الموت ، فقالت ميرى : إنه شيء طبيعي .. لا يجب أن يفزع منه أحد . ورسمت على وجهها ابتسامة حتى تجعلنا نرى أنها واثقة مما تقول . وأكدت بوضوح أنها عندما تضج بالعالم ، فإنها ستنتحر بهدوء .. دار هذا الحديث ذات يوم بمناسبة انتحار شاب من «الكوخ الأحمر» .. زميلي وزميل أخَوَيْهَا . شعرتُ بالندم كما لو كنت قد سعيت أنا أيضًا في دفع ذلك التعس إلى هذه الخطوة السيئة .

بينما كانت الفتاة اليونانية ذات الأعوام السبعة عشر تتهمنى - لا بالكلمات الصريحة - وإنما بذلك الوجه الخالى من الشعور ، وتلكم الأعين الثابتة ، وبالفم الذى ترتسم عليه ملامح التلذذ القاسى . كانت ميرى خاوية العقل تتشرب ما ينفثه الأخ جورجى فى أذنيها من نظريات يقرؤها . كتمثال لا يكتنفه أى غموض ، سرعان ما تتضح تفاهته عند بداية الحديث فى أى موضوع . ولكنها تمثال فى الوجه فقط (لأن جسد طفلة نحيفة ليس بذى أهمية) خصلة من الشعر ناعمة سوداء مصقولة بالدهان الذى جعل الشعر ملبداً ، يجاورها الحواجب . وخصلتان أخريان مكويتان بعناية تغطيان الأذنين وتحيطان بالوجه الشاحب بلون الرهبنة كما قلنا . وعلى الرأس - من حيث تنتقل الخصلة إلى أسفل - مخفية الجبهة - لفة لولبية تحتفظ بها ثابتة ومستقيمة بماسك الشعر (البنسة) : وجه التمثال وشعره .. الأنف اليونانى والشحوب المصرى أثاراً لدى فكرة إحدى تلك الصور المرسومة على التوابيت التى كنت قد رأيتها فى متحف الإسكندرية يحفظون بداخلها المومياوات . خلاصة القول ، هى نموذج يترك انطباعًا لدى رؤيته . لكنك تدرك على الفور أن الدهشة كلها تكمن فى مظهر ذلك الرأس المصفف بعناية ، وأن بداخل تلك العلبة يوجد فقط مخزن للأفكار المعوجة استقته من فم الأخ جورجى ، وكأنها دمية تتدلى من ذلك الفم إلى درجة تجعلها تعتقد أنها بذلك تواكب العصر . لدرجة تجعلها تعتقد أنها تحررت من الأسرة وتفوقت على بنات المجتمع ، الخاضعات المطيعات فى عرف العائلات

اليونانية ، حتى وإن كانت نصف شرقية ونصف أوروبية . فإن عائلة كعائلتها - كما قلنا - ما زالت تعد المرأة أمة .

بهذا الأسلوب دخلت الثورة فجأة ، مع ازدياد الثروة ، انتقل أبناء سبيريديونى الأكثر تميزًا من مدرسة الجيزويت - كما هى سمة العصر - ليرتادوا «الكوخ الأحمر» ، حيث التقيت بهم بين الفوضويين الآخرين ، التقوا على الحلم الجرىء فى رد اعتبار يهوذا .

أن تكون المرأة خاضعة للرجل فهذا قانون الشرق كله ، ولا يبعث الدهشة فى إنسان أن توجد فى مصر عائلات لا يكون للمرأة فيها أى اعتبار - المرأة التى هى أم الأبناء ، أى الزوجة الشرعية ، ولا أتحدث عن العائلات المسلمة فحسب ، حيث يحدث على العكس من ذلك أن يتوارى اسم المرأة غالبًا حين تكون أمًا لولد وتنادى باسم ابنها الأول من أجل اللياقة الزوجية وكشرف للبيت ، فجوزيف على سبيل المثال : «أنت ! يا أم جوزيف» هكذا يقول الرجل وهو يناديها وفى ذلك النداء عطف وارتياح كبير . لكن فى بعض العائلات الأخرى ، التى ولدت فى الأجواء الشرقية أو تغبرت بعادتها ، والتى هى مسيحية بطريقة ما - وإن لم تكن كاثوليكية . كما هو الحال فى العائلات القبطية ، والأورثوذكسية واليونانية ، هم فى النهاية أناس منقسمون عقائديًا ، فتجد المرأة هى التى تصنع السعادة والأبناء للرجل الذى يعتمد عليها بشكل تلقائى .

أما المسيحيون الخالصون .. هؤلاء الذين ولدوا شرقيين أو أصبحوا شرقيين .. المعجونون بالنظم المحلية .. أكثر أصالة من ملك مصر فإنهم

يحتفظون بالنساء فى مرتبة سفلى أكثر من المسلمين أنفسهم : « أى جنس من المسيحيين هذا ؟! » كنت أفكر فى هذا بينى وبين نفسى ، بينما ألفيتنى للمرة الأولى فى بيت أصدقائى أبناء ذلك السبيريديونى الكريتى ، الذى تحدثت عنه ، فى وجود صاحبة البيت (والدتهم) التى كانت تقوم بالخدمة مع الخادمات العربيات فى تقديم القهوة والفطائر والخشاف والشراب (الذى ربما يكون عصير الزبيب) وفطائر فى الأطباق الصغيرة (وهى قطع صغيرة من الخبز المحشو بالزيتون وبالسردين أو بشىء آخر) هى الأم ظلت محنية الرأس - كالخادمات - أمامى وأمام الأبناء أنفسهم ، ليست أمًّا - لو حكمنا عليها من الهيئة التى يعاملها بها أصدقائى وهى زوجة شرعية ، ولا صاحبة البيت - كما هو المفهوم لدينا - وإنما بدلا من ذلك تبدو تمامًا كالأخريات غير أنها أكبرهن سنًا ، كما لو كانت خادمة هى الأخرى . لم يقل لى واحد من الأبناء إن تلك هى الأم . أنا فهمت هذا من نفسى ، من الشبه الذى بينها وبين إيانكو - أكبر أبنائها الذكور - ومن لوحة معلقة على الحائط ، كالحة بلون القهوة باللبن ، بها صورتها وهى شابة .. عروس إلى جانب سبيريديونى الزوج .. عملاق يبلغ طوله المترين ، يستند بمرفقه إلى عمود صغير ، شوارب لينة مائلة تجاه الذقن ، تعود لترتفع فى لفة على الخدين كما كان ينظمها الملك قسطنطين .

لم يقم الأبناء بتعريف من أى نوع ، تقريبًا كانوا يخجلون من تقديم أمهم لى وهى تقوم بالخدمة فى المنزل ، فى هيئة شعبية وضيعة ..

تخجلهم من الحديث عنها .. هم يتبسطون مع الخادمات دون أن يعانوا من ذلك شيئًا ربما .. دون مجهود ، لأن هذا هو عرف الطبقات الدنيا من العائلات الشرقية الغنية . على الرغم من أن أبناء سبيريديونى الكريتى تطبعوا بطباع العصر فى مدارس اليسوعيين الفرنسية ، فإن النزعة الشرقية تعاودهم عندما يدخلون إلى البيت بتقاليد الوالد . حتى لو نادى الأبناء أمهم لطلب ما فإنها كانت تجيب قائلة : « أى أوامر ؟ » كما يقولون فى مصر ، والإجابة نفسها لو كان المتحدث الزوج أو السيد .

كانت الأيقونات الأورثوذكسية فى كل مكان ، على جدران الحجرة وجوه ملتوية تميل إلى الشبه اليونانى ، لكن صورة السيدة مريم والطفل موجودة دائمًا ؛ تشير بالتأكيد إلى أنها أسرة مسيحية . أنا – لأننى متطلع – فطنت الآن إلى هذا ، كنت أوجه انتباهى إلى أسلوب الأبناء والأم ، بينما كان يتجه شيئًا فشيئًا إلى الخادمات . هؤلاء الأخيرات كن يتمتعن بحرية أكبر من تلك التى تتمتع بها الأم نفسها ، مع أنها تعد فى نهاية الأمر صاحبة البيت . حتى كانت إحدى الخادمات العربيات تبتسم وهى تقدم لى طبق الخشاف (وهو شراب أحمر .. به قطع مثلجة من التين المجفف والبلح والموز) ، بينما كان قدح القهوة ما يزال فى يدى ، قلت : « شيئان فى الوقت نفسه كثير جداً » ، وأجابت هى مجترئة بصوت مرتفع : « حقا » .. ابتسمت وهى تبتعد واستدارت . ثم التفتت من جديد لتنظر إلىّ قبل أن تختفى فى فراغ الباب المؤدى إلى المطبخ . عرفت فيما بعد أن هذه الخادمة تدعى أمينة . فى بدء حياتها عملت فى

بيت جماعة من الإيطاليين .. كانت تتحدث لغتنا فى لهجة هى خليط من الصقلية وَالمالطية . تعاطفت معى ، كانت تبدو لى صقلية هى أيضًا مع أن وجهها أكثر سمرة.. كانت هى التى أخبرتنى عن صحة سبيريديونى، عن تقاليد الأسرة وأشياء كثيرة عن حياتها البائسة التى ارتبطت فى الوقت الحالى بالعبودية فى هذا البيت المظلم .

لم أرَ سبيريديونى الكريتى حيًا مطلقًا . غير أن أمينة أخبرتنى بتفاصيل حالته الصحية ، فى أثناء انتظارى بالصالون لسيديها إيانكو وجورجى - أصدقائى - اللذين لم يكونا منضبطين قط فى مواعيد القيام من الفراش ؛ لذلك كانت استراحتى لانتظارهم طويلة جداً فى بعض الأحيان . غير أنى كنت أستريح هناك فى ذلك الصالون نصف الأوروبى على طراز القرن الثامن عشر ، البرجوازى المنخفض الذى يمتزج بالطرز الشرقية ، أثرثر مع أمينة الخادمة .. أتلقن بؤس حياتها ، وحكايات عائلة سبيريديونى الكريتى . وإذا كنت الآن مؤهلاً للإشارة إلى هذه الأشياء ، فالفضل يرجع إلى أمينة الخادمة التى تطوف بعقلى الآن بعد أعوام كثيرة .. يرتسم فى عينىّ وجهها الأسمر ، وفى أذنى لهجتها الصقلية المالطية .

قالت لى ذات لقاء : « الخادمة العربية لا يتزوجها أحد .. إذا عملت خادمة مرة واحدة تبقى كذلك طول عمرها .. ظروفها لا تتغير إلى الأبد .. وهكذا فالأفضل أن تكيف نفسها فى ذلك البيت . حيث يمكنها على الأقل أن يتقدم عمرها وتموت . وعندكم ، ألا يحدث هذا أيضًا ؟ » .

أجبت : « عندنا تصبح الخادمات فى بعض الأحيان سيدات .. يتزوجهن الأرمل العجوز الضعيف . أو حتى السيد الصغير ، فى بعض الحالات وهو فى مقتبل حياته » .

أسرعت تقول : « ويحدث هذا أيضًا .. يقال : إنه حدث .. العجوز كاريكليا أيضًا تقول هذا . لكنى لا أعتقد . ثم إنه يتطلب حظًا لامعًا ... وبالنسبة لى لم أعد أنتظر مثل هذا الحظ .. أصبحت عجوزًا » .

حينئذ سألتها كم عمرها ؟ فأجابت : «حوالى ثمانية عشر عامًا ... الفتيات العربيات يتزوجن فى الثانية عشرة ، ثم من عساه يتزوجنى ؟ وأنا لم أعد بكرًا ؟ » أرادت أن تقول : لم أعد فتاة عذراء . لكننى قلت لها : « يمكن أن يأخذك ذلك الذى نالكِ أول مرة » . فقالت : « كان ذلك إيطاليًا مثلك » .

رأيت الآن حركة بالباب ، وأدركت أمينة أيضًا أن هناك شخصًا ما يتجسس وراء الباب . ذهب فكرى إلى الخادمات الأخريات . لكن أمينة قالت : « لا ، لا ، إنه بانايوتى » ازداد وجهها الصغير دكنة ، حين صعد إليه من القلب شىء من احمرار . ظلت مضطربة - قامت من مجلسها وأتت بحركة كما لو كانت تريد أن تتجه إلى الباب - لكنها أمسكت عن ذلك وعادت أدراجها مرة أخرى .

قلت : « آه ! هل بانايوتى غيور هكذا ؟ ! .

وافقت أمينة دون كلام . ثم قالت بصوت منخفض :

« إنه يغار حتى من إخوته .. نعم من إخوته ، وعندما أدخل حجرة العجوز يأتي خلفي دائمًا » .

فسألت متعجبًا : « هل يغار من سبيريديوني العجوز ؟ » .

أجابت : « هو لم يقل شيئًا عن العجوز مطلقًا . لكنني عندما أقوم بتدليك رأسه ، يظل بانايوتي واقفًا هناك ينظر إليّ كما لو كان حاسدًا ، وبعد ذلك بمجرد أن ينفرد بي يريدني أن أقوم بتدليك رأسه هو أيضًا بالسائل نفسه العلاجي الذي أقدمه للعجوز » .

دائمًا تحكي الأم أن بانايوتي ولد عندما كان سبيريديوني قد أصيب بالعجز . من أجل ذلك فهو يستحق الشفقة ومن المؤكد أنها تبغي له الخير فوق ما تبغيه للآخرين .. تبرر ذلك بقولها : « هو الذي سيبقى لي عندما يرحل الآخرون جميعًا » . وتؤكد في بعض الأحيان أنه لا أحد من أبنائها أقرب إليها من بانايوتي . فالثقة بينها وبين الابنة ميري كانت منعدمة تقريبًا ، حتى على الغداء لا يجتمعون جميعًا ؛ لأن لكل منهم توقيتًا لا يتوافق مع غيره . المائدة في حجرة الطعام ، مجهزة دائمًا .. تتوسطها آنية الزيتون والجبن والخبز تحت الأغطية السلكية دائمًا ، والنبيذ المطبوخ في إبريق الماء لأنهم لم يكونوا يستخدمون الماء كثيرًا على المائدة . كان إيانكو وجورجي يتوقفان على تلك المائدة قبل الذهاب إلى الفراش مهما كان الوقت متأخرًا من الليل .

كانت العجوز كاريكليا هي التي جلبت أمينة إلى الخدمة هنا ، وأوصتها « لو كنت حكيمة فاحرصي على أن تكبري هنا ، هذا العمل

صنع من أجلك ، ليس من الخيـر لك أن تذهبى هنا وهناك .. هل تفهميننى ؟ » كانت العجوز كاريكليا تملك مكتبًا للتخديم « مخدماتى » .. هكذا تسمى الأماكن التى تهتم بجمع الخدم والخادمات وتقوم بتشغيلهم فى المنازل الخاصة .. مكتب تخديم . هكذا يسمى عندنا . وكاريكليا أيضًا هى التى دبرت لأمينة أمر الخدمة فى بيوت أخرى قبل هذا ، وكانت تعرف ما حدث من السيد الإيطالى . لم تتردد إذن فى إمكانية أن تقوم أمينة فى تلك البيوت بمهام بعضها ظاهر وبعضها خفى ، وخصوصًا فى خدمة أتعس أبناء سبيريديونى . بانايوتى ، الذى كان أثير أمه . الأم التى كانت قلقة فى ذلك الوقت خشية أن يتحطم ابنها المسكين العاجز عن المقاومة إذ إنه ليس له رفاق خارج البيت كالأبناء الآخرين . راودها التفكير حول الخادمة الصغيرة بشكل فطرى ، فمن وجهة نظر الأم والعجوز كاريكليا كان الأمر يتطلب أن تتاح تسلية ما لبانايوتى باختيار رفيقة فى مثل سنه أو حتى أصغر منه بسنوات ، تمامًا مثل أمينة يمكنها أن تعطف عليه . ثم مع مرور الزمن ربما يصبح رجلا . كان من الممكن أن توجد له كاريكليا فتاة جزيرية (كأن تجعلها تأتى خصيصًا من زميرنه أو من قبرص أو ميسولونجى ، الغرض من إحدى تلك الجزر التى تمتلئ بفتيات جميلات يصدرن إلى هنا لكى يتزوجن) فالعجوز كاريكليا كانت تقوم أيضًا بترتيب عقود الزواج ، وفى عملها هذا تحتفظ بالجدية والسرية والإتقان . كانت حكيمة فى تقدير المهر . وفى الحكم على الطبائع والأخلاق . يستشيرونها فيما عساه

يحدث فيما بعد . بالنسبة لبانايوتى كان يراد له فتاة قابلة للتكيف ، وهو ما تريده الأم أيضًا ، ولئن كان الآباء لا يحكمون بدقة فى شأن عيوب أبنائهم ، فإن نقائص بانايوتى كانت تبدو جلية حتى للأم الواهمة أن الأيام يمكن أن تحسنه ، وتجعله يصل إلى حالة شبه طبيعية . فزودته بوجود أمينة من حوله حسب مشورة العجوز كاريكليا .

فى بعض الأحيان كانت أمينة تقول لى : إن بانايوتى قد أصبح عجوزًا مثل والده سبيريديونى ؛ إذ إنه ينام بعد الأكل مثله . وأيضًا كان أقرب الأبناء شبهًا به من ناحية الشكل - لأنه فى الشخصية يشبه الأم - لو استبعدنا قصر النظر الذى سلم منه الأب فى شبابه .

كانت السيدة كاريكليا تعرف سبيريديونى عندما كان شابًا ، حيث كان يمتاز عن باقى أبناء جزيرته ببعض الملكات . هى كريتية أيضًا . يذكرها سبيريديونى بالخير أمام الأبناء . بدأ هو من لا شىء لحسن حظه ، يبيع كالآخرين ، على قارب كان يديره بنفسه شاقا البحر من الجزر إلى هنا ، كان يحمل فى البداية بضائع جزيرته إلى ميناء الإسكندرية . ثم توقف عن ذلك ، فقد أقام علاقات مع الجزيريين الآخرين . وفتح مستودعًا لتجارة الجملة بالقرب من الجمرك ليسهل له تهريب البضائع .

بعد الثورة العرابية الأولى سنة ١٨٨٢م والقصف الإنجليزى الذى نسف بيوت المدينة ، عاد سبيريديونى مرة أخرى مثل جميع الأوروبيين

الذين فروا إلى الأمان . دفعت لهم تعويضات مالية تبلغ عشرة أضعاف الخسائر ؛ إذ إنهم وجدوا محالَّهم خاوية ، فى قلب المدينة الأوروبية ، بالقرب من ميدان القناصل . أعاد بناء السقف فوق الجدران المفتتة عند الأجزاء التى سلمت من المدفع ، ظل الطابق الأخير من المنزل منخفضاً كنصف طابق ، بذلك السلم الفخم غير المتناسب معه الذى تحدثنا عنه . وعلى الفور أمر سبيريديونى بنقش الاسم واللقب والصفة على لوحة نحاسية ، ألصقها على واجهة الباب الكبير فى المدخل .

وعندما تقدم به العمر ونال منه الإعياء والمرض .. وهو على قمة ازدهاره كما هو المتوقع أن يصل إليه بسبب التجارة ، شعر بالوحدة .. وذلك الشعور البغيض بالفراغ الذى يعانيه الرجال المتقدمون فى العمر وهم بغير أسرة سوى بعض الخدم العرب يحيطون به فى الشقة أعلى ذلك السلم ، بدأ يفكر شارداً فى أنه لا أحد من دمه يمكن أن يهتم به ، عند تعذر نزول السلم فى بعض الأحيان ، يفكر فى المحالِّ التى تكتظ الآن بأكوام البضائع فى الطابق الأرضى من القصر نفسه .

« كم كانت ستصبح جميلة » كان يداعبه التفكير أحياناً وهو يقف أمام اللوحة النحاسية اللامعة على واجهة البيت والمنقوش عليها اسمه « كم كانت ستصبح جميلة أن يضاف إلى اسمه » وأبناؤه « فى الواقع كانت اللوحة النحاسية من الكبر بحيث كانت تلك الإضافة ستزيدها جمالا ! منذ ذلك الحين وقد شغل نفسه كل صباح بالإشراف على تلميع اللوحة بالزيت وبتراب القرميد الإنجليزى ، وبقياس الفراغ الذى توضع بداخله

كلمة « وأبناؤه » بالنظر ، يمكن أن تكون على سطر اسمه . تركز فكره حول تلك اللوحة النحاسية ، بالإضافة إلى رغبة الأسرة . أصبح سبيريديونى الكريتى مهتمًا حتى بالمسات الجمالية . فاشترى ما يزين به البيت . ثم أدرك أنه بإضافة كلمة « وأبناؤه » إلى تلك اللوحة ، متصلة باسمه ، فإن هذه الأحرف الجديدة التى ستضاف إلى جانب من اللوحة يمكنها أن تخل بتناسبها الجمالى . ضايقه هذا الاكتشاف ، فوضع ثقته فى بعض الأصدقاء ووجدوا معًا التعديل الفنى للعنوان ، والذى يعطيها كمالاً فى نظر الآخرين .. هذا التعديل هو وضع كلمة « شركة » أو « مؤسسة » قبل اسم سبيريديونى ، وبهذا يتزن الفراغ المقابل لكلمة «الأبناء» عند نقشها على الجانب الآخر للوحة فى نهاية الاسم .

وفى الوقت نفسه ذاعت الرغبة السرية للأسرة حتى أن أحدهم كان يضحك ، لكن شاع وظهر للكثيرين لأن سبيريديونى كان يريد أن يتزوج . وها هو ذا الخبر قد وصل إلى مسامع السيدة كاريكليا المواطنة الحكيمة والأصغر منه سنًا التى كانت قد امتلكت بالفعل « مكتبًا للتخديم » ، كما كانت تشتغل أيضًا بإبرام عقود الزواج وما زالت .

منذ ذلك الوقت رتب الطابق الأول صالة للرقص ومسرحًا ومكانًا للاجتماعات ، ذلك الطابق الذى دمره القصف .. الجدران التى كانت تشكل الحجرات دكت ، فأصبحت الشقة كلها حجرة . لابد أن يكون مرتادو الحلقة الترفيهية معروفين ، فهى ليست مفتوحة للعامة ، وإن لم تكن خاصة بالمعنى المفهوم لدى بعض الطبقات . ومع ذلك فإن مرتاديها كانوا

من جنسيات مختلفة ومن كل الدرجات الاجتماعية وكان هناك تفضيل لصغار الموظفين المناسبين وعمال أوروبيين ، يأتون من أجل الترويح عن النفس يومىّ السبت والأحد . لم يكن للنساء حرية الدخول إن لم يكُنّ فى رفقة رجل ، سواء كنّ نساء شرعيات بالنسبة له أو لا . كان يمكن أن توجد هنا إذن يونانيات وإيطاليات وسلوفاكيات ، ممن كن يخدمن فى بيوت السادة فى يوم عطلتهن . ومن أجل هذا يخلو الصالون من الجلوس فى عصر يوم الأحد . بينما يكون مسرحًا مساء يوم السبت .. تحضره فرق مسرحية (من الهواة الدوليين) وكانت ثلاث فرق . ويجرى التمثيل باليونانية والإيطالية والفرنسية . ولكن بعد انتهاء العرض وإخلاء الصالون من المقاعد التى تملؤه (حتى الآن يحدث هذا) يبدأ الرقص ليستمر إلى الفجر . لم تكن هناك رسوم للدخول ولا حتى لحضور العرض .. كانت الطلبات تقدم بسعر يفوق ثمنها الاعتيادى وبذلك كانت تغطى جميع النفقات . لم يكن سبيريديونى يرتاد الصالون على الرغم من قربه من منزله – لم يكن زير نساء ، ولا اجتماعيًا يميل إلى المخالطة بالدرجة التى تجعله يطرب لوجوده وسط ضجة شباب يرقصون ؛ لذلك كانت مفاجأة لصاحب المكان ولمن يعرفونه عندما رأوه للمرة الأولى على مائدة القهوة في الصالون ، بصحبة السيدة كاريكليا وفتاة لا بد أنها هبطت إلى مصر منذ فترة وجيزة ، من جزيرة ، ربما للبحث عن عمل ، يبدو هذا من وجود السيدة كاريكليا ، ومن مظهر الفتاة المندهش ، الزى الوطنى الجزيرى نفسه يقول : إن الأمر يتعلق بخادمة ثقة للسيدة

كاريكليا ترتب لها أمر عمل ما . الفتاة تعطى هذا الانطباع ، ولكن هل كان سبيريديونى هو السيد الذى ستعمل عنده؟ مؤكد أن الأمر لا يتعلق بمغامرة .. ثم إن السيدة كاريكليا لم تكن تعرف بأنها المرأة التى تعار لأشياء مشبوهة .

هو أول لقاء عاطفى لسبيريديونى ، بعدما حرضته السيدة كاريكليا بحجة أن يصحبها إلى الصالون ، لأنه - باستثناء ذلك الوضع - لا يمكن لامرأتين أن تدخلا بمفردهما .

سمع سبيريديونى دق باب البيت فى ذلك المساء - كحالة غير مألوفة - وكانت السيدة كاريكليا قد طلبت منه ذلك . والخادمة التى كانت معها ظلت إلى جانب فى الطابق الأرضى من الصالون الذى نعرفه .. تحت السقيفة الزجاجية الملونة التى يضيئها القمر الآن . وفى الأسفل على السلم تسربت مربعات الضوء الشطرنجية الحمراء والبيضاء والصفراء والزرقاء عن قصد من أعلى ، لتشيع الجو الخيالى فى أول لقاء بين سبيريديونى وتلك التى أصبحت زوجته بعد بضعة شهور . وحتى بالنسبة لها - عروس المستقبل - كان السلم الكبير الساحر فى تلك الليلة ذو الألوان البراقة وبهجة العيد بعد ذلك فى الصالون الأسفل هو الوقت الجميل الوحيد فى حياتها ، لأنها قبل الآن لم تستمتع بروعة الأعياد ؛ إذ إن الكنيسة التى كانت بجزيرتها - حيث ولدت وترعرعت - صغيرة وفقيرة « كاهنها » عجوز .. الجدران غير مزينة ، مرقعة بالورق اللاصق لأن زوجة الكاهن ماتت ، ولم تعد به رغبة

فى شىء ، يتجنب الغناء حتى فى أيام المناسبات . بلغت العشرين من العمر. وكما لو كانت العشرون عامًا كلها معًا يومًا واحدًا رمادى اللون.. قال الآباء كلمة : « لا يوجد هنا شىء طيب يمكن عمله » . ثم العبور على القارب مع عذاب القىء ودوار االبحر . والآن مر أكثر من عشرين عامًا أخرى .. ضاعفت عمرها . فيما عدا الفانوس السحرى لذلك السلم ، وضوء ذلك القمر ، وبهجة ذلك العيد .. فإن كل شىء عبارة عن يوم رمادى ذليل آخر .. يوم فيه شعور مؤكد بالبؤس أيضًا . خمسة وأربعون شهرًا والبطن ينتفخ لينجب الأبناء . خمسة وأربعون شهرًا تقطعها التسعة أشهر فى مائة وواحد وستين يومًا .. انضباط أرنبى .. مائة وواحد وستون يومًا ، لأن إحدى السنوات كانت كبيسة . المجموع إذن خمسون شهرًا وأحد عشر يومًا . كانت عائلة سبيريديونى جميلة ونموذجية ، تعمل بانتظام ، تلك الأعمال الشاقة التى تحقر الحب والحياة .

أصبح سبيريديونى المتعب من السباق الكبير ينام أيضًا بعد تناول الطعام . وعما قليل سيعود صبيًا فى البيت بحاجة إلى وجوب تنظيم الإطعام وإسناده من تحت إبطيه حتى يتحرك بضع خطوات ولا يعرقله شىء ، ويسوء الحال دون أمل فى أن يروه يسير يومًا ما بنفسه وبسرعة مستقيمة . أى بساط قمرى آخر ! على الشرفة تحت ضوء الزجاج الملون . هى لم تنزل تقريبًا تلك السلالم مرة أخرى منذ ذلك الوقت ، حزينة فى الحجرة المظلمة فى خدمة الجميع ، من يدرى لماذا تدعوها الخادمات الآخريات كيريا ؟ وأيضًا سبيريديونى لم ينزل سلالم البيت

منذ بضع سنوات . ولكنه لم يتصاعد فيه الحنين لذلك ، إذ إن نكرى الحياة انتقصت فيه ، إلى درجة أنه لم يعد حتى يعرف اسمه .

كل مرة ينام فيها كان يعد كالميت بالنسبة للأسرة .. من الممكن أن يكون ميتًا .. وذلك النعاس يمكنه أن يكون احتضاراً .. لقد أخذه الموت فى راحة قبل البعث . كان قد عرف كيف يحدث الموت . فى الواقع حدث هذا بالأمس .. عندما لمسته أمينة كان بارداً . ومفاصله المتيبسة تعارض اللحادين الذين يلبسونه ملابسه . فى هذا اليوم وسط أشعة الشمس المتوهجة دومًا ظهر النعش الذى يرقد سبيريديونى بداخله مرتديًا السواد على الشرفة البهيجة . تعود الآن الأرملة بذاكرتها إلى ذلك الصباح ، حيث خرجت الابنة إلى الشرفة مرتدية الثياب البيضاء . ارتدى أفراد الأسرة والمدعوون أيضًا الزى الأسود . الاضطراب نفسه الذى يحدث الآن . لم تتحرك هى من أعلى السلم (كما لن تتحرك هذه المرة) ، نزل الآخرون بنظام على الجانبين (كما سيحدث الآن) وهى ترى من أعلى السلم الكبير العربات الحنطور خارج المدخل تتحرك رويداً رويداً خلف العربة الأولى التى كانت تحمل العروس . أيضًا حينئذ كانت السقيفة الزجاجية ساخنة كما هى الآن بفعل الشمس .

وقفت النسوة الثلاث .. الأرملة وبناتها على الشرفة ، فسألت نفسى : « ألن يتبعن الجنازة ؟ » قال لى أحدهم : إن النساء يجب أن يبقين فى البيت لإعداد الطعام حتى يعودوا من الدفن . كانت الابنة المتزوجة ترتدى حداداً كاملا . فهى تضع قبعة واسعة عالية لكن دون

شد ، يعلوها نقاب أمامى لا يصل إلى الجبهة ، وباقى النقاب الذى كان واسعًا ظل بعيدًا منسدلا على الأكتاف وعلى الشعر ، كما ترى نماذج الملكات وسيدات البلاط .

ميرى بصورتها المعتادة نفسها تقف بالقرب من الأم . عندما رفع النعش حاملوه لكى ينزلوا به السلم ، لم تبدُ الرغبة فى البكاء سوى على وجه الأرملة فقط ، أشار قائد فرقة الجنازة أن نتأخر إلى الخلف ، الابنة المتزوجة انتزعها زوجها من جانب الأم ليصطفوا خمسة أفراد .. السلم واسع .. التزم بانايوتى الجانب الأيسر طبقًا لعادته فى نزول السلم ، لكنه وجد نفسه يستند إلى الأخت . فكلما تحركت يده بعفوية ليمسك بالحبل المشدود إلى الجدار من ذلك الجانب ، عثرت يده بنقاب التل الذى تحيط به الأخت رأسها ويكسوها شىء من الوقار . كنت أنا من آخر النازلين حسب الترتيب ، وقلبى لا ينبض بأى انفعال ؛ لذلك تمكنت من التطلع إلى كل شىء ، يبدو لى أن بانايوتى لا يستطيع نزول السلم بغير اتكاء على الحبل الجانبى ، كان من الممكن أن ينتقل بسهولة إلى جانب السلم الآخر ، لكن زوج الأخت البقال البغيض استولى عليه فى هذه اللحظة .

أمينة تذهب وتجىء مع الخادمات الأخريات من البيت إلى الشرفة ، استدرت فرأيتهن .. كن يضعن أشياء مختلفة ثم يعاودن الذهاب . هذه الأشياء كانت تشغل الدرجة الأولى من السلم . رأيت حوضًا نحاسيا أيضًا به أصص الزهور . وقدور أرضية تشملها الفوضى « أيَّة عقبات

هـذه ؟! » بـدت لى الأرملة وكـأنها ترى أبناءها الأربعـة للمـرة الأولى مـستـديرين معًا للخلف . كما لو لم تفطن أبدًا إلى صلعة إيانكو كما رأتها الآن . جورجى كانت لديه الرغبة فى الحديث عن شىء ما ، يُسِرُّه إلى إيانكو الذى يشـيـر برأسـه بنعم أو بلا ، ويانايوتـى مـرتبكًا يبـعـثـر النقاب للأخت التى عندما وصلت إلى منتصف السلم أرخت القـبـعـة الواسـعـة فـأصبحت مائلة . لكن التمثال الواقف إلى جانب الأم ، عاليًا على رأس السلم لا يتغير وجهه لشىء . والآن بعـد أن أصـبحنا خارج البوابة وراء النعش ، دوت صرخة النسـاء كلهن فى قضـاء ذلك السلم ، أفزعتنى لأننى لم أكن أعرف العادة المتبعة ، لكن بصمة صوتها كانت غـائبـة . فـقط بخطوة منها سـاعدت فى إلقـاء الأوانـى التى كـومتـهـا الخـادمـات على السلم منذ قليل إلى الشـرفـة . وكـان صـخب الفـخـار والزجاج والحطام النازل على السلم يشكل فى أذنى تساقطًا هائلاً كما لو كان السقف ينهار وتلك هى حجارة وطوب وزجاج السقيفة الزجاجية. أيضًا الماء المنقلب من تلك الأحواض التى رأيت الخادمات يكوٍّ منها أعلى السلم ، بعد أن ينسكب من حوض تلو الآخر ، يقفز درجة درجة ليصل إلى قناة على مدخل الشارع ، بينما يتوجه النعش على العربة الجنائزية إلى مقابر الأورثوذكس . ونحن خلفه أربعة فى العربات المريحة .

قال ماريجوندا الفوضوى : « إنها عادات مضحكة ، مثل عاداتنا على أيَّة حال » ، وعاد ليمتدح فرن المحرقة تحدث عن وقاية صحية قائلا : « كل شىء يتحول إلى حوالى كيلو من الرماد . وهو رماد نظيف على الأقل إذا أردت أن تحتفظ به على النضد للذكرى » .

يمكننى الآن أيضًا أن أضع القبعة . ولكن قبعتى على المشجب فى منزل سبيريديونى ، وكنت مضطرًا أن أضع يدى على رأسى حتى لا ينفلق بفعل أشعة الشمس . الحر خانق على الرغم من أن الخيل تحرك الهواء فى أثناء ركضها ، لكن الفائدة ضئيلة ، لأن لفحًا يهب على الوجه بعد مروره على الرمال السخنة .

قال ماريجوندا : « الشيء الوحيد الظريف هو هذه الوليمة التى تقام فى الظل » . فهنا تحت أشجار الطريق التى تشق المقبرة إلى جانبين ، أعدت مائدة طويلة كما لو كان الأمر يتعلق بمأدبة أعدها السادة فى رحلة برية أو فى رحلة صيد ؛ لذلك من الحسن أن القبر كان بعيدًا . توقف أحدهم على المائدة ورأيته يمد يديه . لكن الأكثرين استمروا خلف النعش ونحن ضمن أولئك ، حتى وصلنا إلى القبر المحفور فى منطقة حوش جديدة إلى جهة حائط السور . هالنى التفكير فى أولئك الناس الذين توقفوا ، إذ ما الضرر لو لم يأكلوا شيئًا ! بينما هنا رفع الصندوق من مكانه وعرض لكى يرى الأقارب والأصدقاء ميتهم للمرة الأخيرة ويودعوه ، فهذا أيضًا من العادات . لكننى ابتعدت قليلا عندما رأيتهم ينزعون الغطاء عن ذلك الصندوق حتى لا ينطبع المشهد الذى تخيلت أنه مرعب فى عينىّ فيما بعد . وعلى العكس منى كان ماريجوندا أكثر شجاعة حين وجد مادة للضحك فى شوارب سبيريديونى التى لا بد أن يحفيها الحلاق فورًا بعد الموت ، فانحدرت جدًا على الخدين . كما أنه ضحك من الذقن التى حلقت بالأمس ونبتت

مرة أخرى . قالها فى سخرية ، وغمز لى بعينه ، بينما اقترب «الكاهن» ليبارك الجثة . فقال بصوت منخفض ، وهو يرى مساعد الكاهن يأتى على الطريق ومعه زجاجتان : « الآن يتبلون السلاطة » وعندما اقترب رأيت أيضًا أن الزجاجتين تحويان زيتًا وخمرًا قدمهما إلى «الكاهن» . وهذا هو آخر عمل فى طقوس الجنازة فى حضور الجثة التى ستوضع بعد ذلك فى الصندوق وتنحدر تحت الأرض . ولأننى كنت أقف بعيدًا ، فقد رأيت عبر الهواء بريقين من ذهب وياقوت يمران من يد «الكاهن» المرفوعة داخل الصندوق المعروض . ربما أبهجتنى تلك الألوان . ولكن لفترة قليلة ، لأن المدعوين الواقفين حول المائدة لالتهام « الخروف » المشوى كانوا قد وزعوه على الأطباق المنفرة . لم أستطع أن أتذوق شيئًا . على الرغم من أنه كان هناك أشياء كثيرة طيبة التجهيز . كلٌّ يخدم نفسه . لم تكن مائدة جنائزية رمزية ، كما تقول التقاليد .. إنهم يأكلون بشهية طيبة وكلٌّ ينتقى ما يروقه أكثر من الأصناف . حتى أبناء المتوفى يأكلون بشهية . وأيضًا الثرثرة بين يدى الطعام كانت موجودة كما لو كانوا مجتمعين أمام «بوفيه» سباق أو حول مائدة حفل فى الهواء الطلق . وتكشَّف لى بانايوتى نهمًا .. يمضغ اللحم والزيتون فى وقت واحد ، بفم ممتلئ ويبصق البذور المختلطة باللعاب على مفرش المائدة . لابد أنه يعتقد أنه وحده . مستغرق انتباهه فى الخبز وفى الشوكة التى ترتفع متنقلة بين الأعين والفم ولا يشارك فى ثرثرة الناس حوله . نظف نفسه فى طرف المفرش تاركًا فيه دهن يديه وفمه . والآخرون أيضًا

جعلوا من المفرش فوطًا ، حيث إنه كان يتدلى حتى الأرض من الجهات الأربع .

وإلى هنا انتهت الطقوس ، بالنسبة لغير ذوى العلاقة الحميمة مع العائلة . لكن الأصدقاء والمقربين مثلنا ، أنا وماريجوندا ، فسنعود فى العربات مع أفراد الأسرة إلى المنزل طبقًا للتقاليد . وهذا هو سبب تخلف النساء الواقفات على السلم واللاتى ليس بوسعهن أن يصطحبن الميت ، كما قيل لى من قبل . عندما وصلنا وجدنا باب الشارع الكبير مغلقًا . وكان هناك أثر على الرصيف لمكنسة مسحته منذ قليل ، الماء المنحدر على السلالم مع حطام الأوانى الذى كان عندما مضينًا ، تم تجفيفه . والتراب لم يعد يرى . فتحت أمينة الباب وعاودت الصعود بسرعة . السلم ممسوح لتوه ، وبانفتاح الباب الكبير فجرة ، بدا لنا أكثر لمعانًا والشمس النفاذة تبسط ألوان السقيفة الزجاجية على الطابق الأرضى وعلى أواخر السلالم من أعلى ، نعم بوصولنا - نحن الرجال - إلى منتصف السلم ، لفّنا ذلك النور وتمثل لنا . بدت لنا الأخت المتزوجة قناعًا من الحداد يتطلع ، فى ذراع زوجها ، هى الأكثر سوادًا ، كأنها إلهة زائفة .. بدت للحظة أكثر الجميع مهابة .. الجو الكرنفالى يلفها بشرائط من قوس قزح .. لها وجه سماوى ، ويدان حمراوان ، بينما يتحرك التل المثبت فى الرأس ، عند الصعود المسرع لآخر درجة من السلم . لكن فى الصالون كان وجه الأخت الزيتونى قد أصبح ورديا بفعل الشمس بَلَّلَهُ العرق ، على العكس من البياض الذى اكتسى به وجه ميرى وعنقها وذراعاها العاريتان حتى الساعد .

حضرت الخادمات بالقهوة و« الغريبة » التي هي عبارة عن عجائن محشوة بالبلح وبالمربى والأطباق بالمكسرات المعتادة ، كل خادمة معها صينية ، والأرملة في الثوب الأسود .

سمعنا ميرى تقول لأختها : « دعي القطة ! » التفت الجميع إلى ذلك الجانب إلى الجدران .. على الأريكة ذات الطراز العربي ، بين الزوج وزوجته ، قوّست القطة ظهرها منزعجة . مطت عنقها لتجرى ، ومن انزعاجها فكت « فيونكة » حريرية سوداء كانت تضعها ميرى للقطة شارة للحداد ، وفي الوقت نفسه دخل جورجي إلى الصالون من الباب الذي كان قد خرج منه ، « بطربوش » أحمر على رأسه مائل للأمام كما يضعه الأتراك . حينئذ غاض الدم من وجه صهره .. لها عن الشرب . نهض . وضع الكوب مليئًا بالشراب على صينية أمينة . خبط الزوجة حتى تنهض من مجلسها . أخذها من ذراعها وألح في دفعها بشكل سيئ لتتبعه . ألقى التحية عابرة كما يفعل بعض الأغراب ، وخرج دافعًا الزوجة التي سارت أمامه ، بيده خلف كتفيها .

وقتها لم أفهم ذلك التغير المزاجي .. سبب الإهانة . لكن جورجي قال لي فيما بعد : إنه وضع ذلك « الطربوش » على الطريقة التركية ، ليسبب الضيق لصهره .

في أثناء نزولي السلم رأيت على باب النادي إعلانًا يدعو المشتركين للحضور يوم السبت . ستمثّل روايتان جديدتان بعنوان (ملعون الوطن)

و (فى المشرحة) لفريق فرنسى .. جذبنى المسرح وجذبتنى عناوين المسرحيتين . أيضًا ماريجوندا سيحضر يوم السبت ليشارك فى التمثيل ، هكذا وبهذا الاتفاق تركته فى ركن الميدان ولم أفطن إلى أنه ظل وحده .. تابعت السير فى صحبة شخص ما ساعدنى على اجترار الأفكار .. هو يهوذا الذى يحضر معى يوم السبت إلى المسرح .

أعطيت الحق لمن يقولون : إن المسرح فن دنىء على الرغم من أنه يقدم أيضًا أحسن الأعمال الأدبية . غير أنه ليس فى هذه الليلة ولا فى ألف أخرى مما ينال نجاحًا على الخشبة ، لأن أكثر المتفرجين يشعرون هم أيضًا أنهم قريبون من مشاعر شخصيات المسرحية . حتى عقدة الأحداث لم تكن عرضًا غنيًا ، بمعنى الكلمة . لم تكن تراجيديا ، إنها شجار وخطاب سياسى من السهل أن يلقيه أى إنسان .. حيل .. ابتداعات .. غموض . ألوان قوية لكنها مع الأسف لم تصنع تراجيديا مثلما هو الحال فى مسرحية « فى المشرحة » هذه الليلة ، كان منظر السكران مقززًا وهو يهيج أمام جثة قتيله . حيلة حقيرة استخدمها البوليس ، جسوت قرائن الإدانة فى حجرة الموت . فتركوا على المائدة زجاجة الروم مفتوحة .. الوسواس .. ها هو ذا كل شىء مرتب لأن يجهز القاتل على الجثة التى قتلت بالفعل . لقد توحش الرجل وهو يترنح .. بعد أن وجد نفسه فريسة لرذيلة لا يمكن دفعها بالشرب . سباب وحشى ، وفى النهاية يبترون الأسباب التى دفعته للجريمة ، وبالفعل يعترف المذنب بقتل ضحيته .

والعمل الآخر يمكن أن يعد مأساة اجتماعية .. غواصة تحطمت ولا سبيل لارتفاعها أبداً من حيث رقدت فى الكهوف بعمق البحر . والبحارة الفرنسيون يحتضرون وهم يلعنون الوطن . هنا أيضاً اللهجة كلها خطابية . أمدتنى بتخيل أمثلة أخرى للعرض اللامع . والإمبراطورة أتاليا ، عادت إلى عقلى مرة ثانية ورأيتها نشوى أمام معبد المتطرفين من اليهود . فتساءلت : « هل من الممكن أن يقترب صاحبى يهوذا من هذه المأساة ؟ » .

عدت إلى البيت فى صحبة شخصيات الرواية التى أحلم بها . تمثلت لى الصور فى العمل .. القس .. أم يهوذا .. العذراء يأخذها الغرام بيهوذا . ويهوذا المأساة .. باب المعبد .. الميدان .. الزحام « سان جوفانى باتيستا والمتآمرون .. لكن صورة المسيح لم تكن موجودة .. لم تظهر لى فى العمل الدرامى .. كان يسوع مستبعداً .. لا أستطيع تخيله فى شجار ، بخلاف يهوذا الذى يغرينى بالتفكير فيه ، وهو سعيد بهذه المخالفة . وكلما فكرت فى المسيح ظهر لى يهوذا وأبعده .

* * *

ما كان أروعها من ليلة تبددت فى مشهد نصبت فى وسطته المشنقة – مثل ليلة أول أمس التى راحت فى صحبة يهوذا – على ساحة محرم بيه .

ربما كان ذلك آخر حكم إعدام حاسم ينفذ فى الخلاء ، فى الفجر ، بحضور العديد من الناس من مختلف الجنسيات . بعد هذه المرة صار الشنق ينفذ فى فناء السجن ويلزم الحضور بتذكرة ! كحضور المسرح . عندما كان العرض يقام فى الخلاء على الأقل كان يستحضر جمهوراً كبيراً ، فكرت أن فناء السجن لا بد وأن يفتقد الاتساع بالتأكيد ، بعكس ساحة محرم بيه ، فقد كانت النهاية تبدو فيها مهيبة حقا . نهاية مأساة .. تلك الأحداث التى يمثلها الأبطال بانفعالاتهم ، وتعقدت حتى أصبحت جريمة ، أجملت وقلبت على كل الوجوه ، فى أثناء المحاكمة ، لا بد وأن يكون هذا أيضًا حدثًا دراميا مهيبًا : المحكمة .. المتهمون .. القضاة المقنعون .. وصوت الجماهير كأنها زعيم متحمس ويستمتع بالإدانة .

أيضًا الزانية التى أدينت بعشق المسيح ، عوقبت هنا بالرجم الذى كان قانون العصر . رأيت هذا الدور المقحم فى مأساة صاحبى يهوذا لإدانة المرأة والمشهد الرائع بالتناقض الذى تبعه . سمعت صرخة يهوذا الغيور من الخبر القائل إن يسوع جرد الأيدى من الحجارة بكلمات الحب .. نعم بكلمات الحب سقطت الحجارة من الأيدى ! عداء آخر تجاه المسيح . كراهية أخرى تضاف فى قلب يهوذا المتلهف على استلاب العرش . تشبه تخيل أورشليم هذه المراسى على ساحة محرم بيه ، إنما المشهد هنا تنقصه التلال . يظهر الإعدام هناك فى وسط الساحة للص واحد . وعلى الرغم من أنه لم يرتفع فوق تلال ، لأنها غير موجودة هنا ،

فإن المشهد مهيب ومخيف فى وقت واحد ، بما أننا نعرف كيف أن الحبل الذى يتأرجح من أعواد المشنقة - التى تبدو كارتفاع بئر ضخمة - ليس موجودًا هنا لكى يشد الماء من الأعماق إلى أعلى . تتسع عين الشيطان فى الجو المقمر ، رأينا فى خلال بضع ساعات أولئك الذين يجب أن يدفعوا بهذا العرض العام الغرامة الموقعة من القضاة ، يتأرجحون فى القضاء ، عقوبة لهم ، وليكونوا عبرة لمن هم على حافة خرق القانون . لكن الأمر هنا يتعلق بالدم ! بالنسبة لنا لا يهم أن نعرف أيَّة جريمة ارتكبها هذا الرجل ليستحق عليها الموت .

لقد أتينا إلى هذه الساحة أنا وماريجوندا ، والإسبانى بيبيكو الذى يعمل معى فى الميناء بدافع الفضول ، ووجدنا رفاقًا آخرين ، وبعد ذلك جاء الكثيرون على الرغم من أن الليل ما زال طويلا .. كنا فى سباق مع الزمن إلى مشاهدة العرض ، فقد كان هذا عرضًا أيضًا .

نصبت المشنقة فى وسط مربع أحيط بسلك شائك يحرسه جنود الحراسة بالسونكى المنصوب على قصبة البندقية ، كان الجنود أربعة يجوبون الموقع ذهابًا وإيابًا بمحاذاة الأسلاك الشائكة كى لا يتخطاها أحد . جنود آخرون جالسون على الرمال بالقرب من المشنقة وبنادقهم منصوبة على هيئة كوخ صغير .

يونانيون ونابوليون يطوفون حول المربع .. يصنعون دائرة فى ضوء القمر ، يسمع صرير آلات الماندولين والجيتار ، وترتفع أصوات المغنين بأغنيات قديمة وحديثة . منها أغنية يونانية ذات صوت مرتفع يرن فى

أذنى بكلمة « سيزو » أعنى هذه الرنة « سيزو » لا أعرف حقًا إن كانت هى هذه الكلمة أو غيرها ، ولا أعرف معناها . سألت يونانيا ، فأجابنى إنه يريد أن يقول : "GRATTATI" ضحك الإيطاليون أيضًا كما لو كانوا قد فهموا المعنيين ، فى نهاية فاصلة .

وبالنسبة لى بدت حزينة هذه الأسلاك التى فى منتصفها تعد المشنقة عرشًا يمتد ظله الآن إلى الشرق ، ففى هذا الوقت ينزل القمر فى اتجاه البحر ، بعد قليل سيبزغ الفجر .

بعد قليل جاء الفجر ، ولكن أى طعم يكون له فى نظر إنسان يشنق ؟ لقد ندمت على ضياع هذه الساعات من النوم ، من أجل رغبة فاسدة ، كنت ضعيفًا . لم أستطع أن أرفض . لم أستطع التحرر من إلحاح ماريجوندا .. ضعيف مثل رفاق آخرين جاءوا هم أيضًا ليضيعوا ساعات نومهم ، ربما شجعهم ماريجوندا أيضًا. كم نأتى من الحماقات ، كم نرتكب من أخطاء ؟ وكم من الخجل الزائف نشعر به فقط لأننا ضعفاء ؟ حتى لا نبدو أقل من الآخرين ؛ ولكى نظهر بمظهر المتحررين يبلغ بنا الأمر إلى ارتكاب السيئات فنفعل مثلهم – مع الأسف – أشياء قذرة أيضًا مخفين نفورنا من الأحداث والأفعال التى هى ضد طبيعتنا لوجودنا فى صحبة . أذكر أننى تقيأت يوم فعلت مثل الآخرين وقربت أول سيجارة من شفتى . تمامًا مثل هذه الليلة التى أهدرتها فى التسكع حول مربع من سلك شائك تقوم فى وسطه المشنقة .. مستعدة لتصنع الحدث الأخير فى حياة إنسان على خشبة المسرح .

وهنا فى مكان المشاهدة كنا نحن من أوائل من اتخذوا أماكنهم ليلاً لأنه فى الفجر ستعج بالزحام من جموع فى غاية التنوع ، لم يأتوا فى ميعاد واحد ، دون نظام حجز الأماكن كما يفعلون فى المسرح من أجل توفير الرؤية المريحة لمن يصل فى آخر لحظة . هنا لا توجد مقاعد مرموقة ، فالمشنقة ديموقراطية تعطى فرصًا متساوية للجميع فى مشاهدة طيبة من كل جانب من المربع ، لأن كل أولئك المشاركين لا تعنيهم العدالة . لقد علموا أن المحاكمة أسفرت عن حكم الإعدام الذى تعد له شعيرة نادرة . تحدوهم من جهة أخرى - روح المحبة تجاه المستقبل حتى لو شاقتهم العواطف القوية - مستعدون للتضحية براحتهم الخاصة ، أسرعوا لاختيار المشاهدة من أحد الجوانب مقتحمين الفراغ بمرافقتهم إلى أقرب نقطة ممكنة من السك المعدنى ، لأن لكل منهم رغبة فى المشاهدة من أفضل مكان ليستمتع بالفصل الأخير من الدراما .

كانت الساحة تلاصق من أحد جوانبها الطريق الحديدى الأعمق من المستوى الطبيعى . لم يكن شديد الغور ، لأن الشارع الحديدى إنما حفر هكذا من أجل إراحة القضبان الحديدية ، ولكنها بعد أن ظلت منخفضة بسبب تفريغ برادة الحديد والبقايا الموجودة على هذه الساحة منذ سنوات طويلة ، فقد صنع عمال البناء وعمال الأرض أكثر من حفرة ، فى أثناء تشييدهم للقصور فى الجانب المجاور المطل على الشرق . تطل تلك القصور الكبرى بوجهها هناك ، لأننا نرى من هنا خلفياتها المصقولة غير المزينة فقط ، وفناءاتها وحقولها وبعض الأشجار، واسطبلات ومحطات الخيل والعربات الكارو .

على يسار الساحة ، والطريق الحديدى يوجد حى محرم بيه . حى فقير ، يسكنه اليهود والعرب والأوروبيون الذين يعملون فى ضاحية المدينة . يحمل النسيم رائحة دهن إوزة ، والسبب فى أنها رائحة متفردة أقوله فيما بعد ، ودهن لية خروف ، ولكن كل حين يبعث الفجر للترطيب عطراً ساخنًا يفوح من الخشب الطيب الذى يحرق فى مباخر المسجد الذى تعلو مئذنته بين الأكواخ . الآن يبزغ الفجر .. بعد قليل سيدعو «المؤذن» من أعلى تلك المئذنة المؤمنين إلى الصلاة الأولى .

دائمًا يحدث ما يجعلنى أخرج عن الموضوع وأنا وسط الجماهير ويلاحقنى المسرح ، وتلاحقنى صورة يهوذا تظهر لى رؤية جسد قتيل يتأرجح فى الحبل تحت تلك المشنقة هناك فى وسط المربع .. واللغط يساعدنى على ذلك ، يسابق العرض وأعيد التفكير فى يهوذا « هل يجب أن يتأرجح بطلى - يهوذا - مشنوقًا فى غصن شجرة طبقًا للنص الدينى ؟ استبعدت الفكرة على الفور .. لن يموت عقابًا من أجل ابن ملك . اختلاف الألوان فى السماء ، عند اختفاء القمر ، لم يجعل انعكاساتها مضطربة كما كنت أظن ، بمرور الساعات وأنا أقف هنا فى الساحة التى تحولت إلى خشبة مسرح .

من الأفضل أن أنتبه الآن للمشهد الحقيقى فى محرم بيه . فى هذه الضاحية كان أول احتكاك لى بالفوضوية بمجرد وصولى إلى مصر . ها هو ذا أدموندو - ابن سيدى فى ذلك الحين - البخيل الطاغية النمساوى ، لكن الابن خالف أباه وحدثنى للمرة الأولى عن « المساواة

الاجتماعية » فهو شاب مثلى بدأ حياته منذ قليل ، لم تكن لديه سلطة كافية كى أثق فيه ثقة عمياء . كما كنت أستطيع أيضًا أن أخالفه ؛ لأنه غالبًا كان يفتقر إلى مبررات واضحة ليضعها أمام اعتراضاتى .. من أجل هذا ، قادنى ذات ليلة إلى بيلادى ، نجار من بيزا كان هناك ، فى الطريق غير المرصوف الذى يمكن أن أراه الآن من هنا إذا كان النهار مشرقًا . عند بيلادى تلقيت أول درس عن « مجتمع المستقبل » . كنت يومها عضوًا غير مشارك « متعاطفًا » ، وهى تعد الدرجة الأولى من الانتماء (فالنظام الفوضوى له أيضًا درجاته) ، فيما بعد سوف أصبح «رفيقًا» . كان بيلادى طويلاً ، نحيفًا ، ذا شعر أحمر ، مؤلفًا . أذكر اسم الزوجة التى ناداها باسم «أرجا» كانت جميلة ودائمة الابتسامة . والطفل «جويدينو» الذى ولد منذ شهر .. كله رأس ، وجه منفر يشبه القرد دون جلد . انتزعه بيلادى من حضن أمه وقرب إلى فمه الواسع كأس نبيذ وقال : « اشرب هذا » ، تقيأ الطفل رغوة النبيذ واللبن المتخثر حين غص بهما . لكن بيلادى لم يسلم بالفشل ورفع الكأس ، والنبيذ ينسكب على شفتى الطفل ، ويقول : « إنه نبيذ من بيزا ، يفيدك فى التعميد ويجلب لك الفأل » ، ثم قال لى : « أرأيت ؟ أنا .. أريده ، وهو فى العشرين من عمره ، يصعد مثل كاسيريو خشبة المقصلة لكونه أعدم ملكًا أو طاغية » .

تفل الطفل وتقيأ اللبن والنبيذ .

كان للفوضوى الكريه بارينى متجر لبيع النبيذ فى الشارع الكبير الذى يؤدى إلى الكوبرى ، على الطريق الحديدى . كان اسمه جميلا ،

يتحدث بعبارات ويرفع في الهواء الأصبع الوسطى من اليد اليمنى مكان السبابة المبتورة . قليل الضحك . كان شخصية غريبة .

عرفه بيلادى في ذلك الحين قائلا : « منذ أن كان طفلاً وهو يأكل كتبًا أكثر مما يأكل الخبز » ، وأكمل باعتزاز : « إنه ناشر كبير لأفكارنا » .

حتى حانة البيع كانت مكتبة لإعادة الكتب .

« كتبنا تقف بين الزجاجات في صف على الأرفف ، تتخللها ، وتحت نضد الساقى ، يمسك بارينى بالمجلات ودفاتر القراء . يعرف المستوى العقلى لكل الأفراد ولا يأتمن شخصًا على كتاب يعتقد أنه أدنى مستوى من أن يفهم قراءته » .

قال لى نجار بيزا : « إنه خبير نفسى » .

سأله بارينى عنى عندما قادنى إليه .

رفع الدفتر الوردى الصغير من أسفل النضد ، وقدمه لى ، فتحه وسجل اسمى .

وفى الشارع الآخر ، الواسع ذى الأشجار ، والمنخفض أيضًا خلف هذا الشارع ويقود لأعلى ، حيث تختفى ڤيللات السادة الوطنيين ، فى وسط حدائق واسعة ، على النقيض من بؤس الضواحى حيث يسكن الرفيق الإنكونى .

أيضًا صديقى أونجاريتى (الذى لم أكن قد عرفته حينئذ) ولد فى مفترق الطرق بين تلك البيوت التى نراها ، ومن يدرى ربما كانت رائحة

الخبـز والدخان التى تعلو وتنتشر فى الـهواء تتصـاعد من مـخبـز أبائه اللوكيين .

هناك كنيسـة فـرانسيـسكانية صـغيرة لا ترى من هنا ، أرادت زوجتى - بعد أن تحملتنى كثيراً- أن تعمِّد فيها ابنتنا الأولى فالنتينا .

إنها ضاحية مليئة بالذكريات ، محرم بيه هذه ، وكلها تتجمع فى الذاكرة فى نقطة واحدة وسط الجمهور الذى يصنع شيئًا فشيئًا سياجًا ويتمهل بصبر منتظراً حول المربع الذى يحيط بالمشنقة .

كـر القطار الآن بصـريره المنخـفض ليـقطع سـيل ذاكـرتى . كـان مطمـوراً ، فقط الرأس الأسود والقضـبان فى مـسـتوى أنظارنا تمسح الأرض ، ويزحف لمسافـة طويلة . الوقت نهار تقـريبًـا غيـر أن الفـانوس الأحمر خلف العربة الأخيرة هو آخر من يقول وداعًا .

على جـانب الخط الحديدى فتح شباك أحد البـيوت المطليـة باللون الأصـفر . عرفتـه . هنا يسكن أحد المعارف من اليهود . عندمـا كنت فى بيته وجدت أطفاله يتصفحون كتابًا . توقف الأكبر غاضبًا عند صـفحة وقال للأخ الصغير : « إنه الصليب . ابصق » ضرب الوالد على الفور فم ابنه الأكبر (حينئذ قفز إلى عقلى أن المسيح أيضًا كان قد ضـرب على فمه . فـهل هى عادة ألفية ؟ هلى يجب أن أتذكرها ؟) ثم أزال اللعاب بقماشة من على الصفحة ، حيث طبع الصليب ، ولكى يجف بسرعة قام بطى الكتـاب بشكل عمودى فوضـعه بتلك الطريقة المفتوحـة فوق قطعة الأثاث ، فبدآ الصليب كما لو كان معروضًا على الهيكل فى الكنيسة .

وصل آخر فوج من المشاهدين فى عربة حنطور . ها هو ذا تقريبًا موكب السجين ، الذى يركض الآن من على البعد تجاهنا محروسًا بالجنود فوق الخيل .

أى احتفال من أجل موت رجل !

لا أحد يصيح : « أفسح الطريق ! » لكن تهديد وطء تلك الخيل تفتح شقًا بين الجمع ، من ذلك الجانب على الشارع حتى سور المربع . والركض كما لو كان الملك يدخل ، مع حرس شرفه . وعندما عبر الموكب السور ، انغلق الشق مرة أخرى ، وعاد المربع كاملا خارجه وحوله الحشود المنتظرة .

الآن كل شخوص الدراما فى الصورة . يتحركون فى جو طبيعى .

المختص بالأزياء يقوم بعمله . مديرو الآلات يركِّبون المشاهد .. المشنقة ، عربة المحكوم عليهم . المنصة تعلوها الأوراق وكرسى . أيضًا أسرة المتهم . السياف والقضاة شغلوا أماكنهم ، بدءوا فى استعراض القوة ومراسيم القانون .

يصطف الجنود الكثيرون الآن على السلك الحديدى الذى يحيط بالمربع ثابتين مثل شجيرات الكروم بطول الجوانب الأربعة ، وحراب بنادقهم مصوبة . إنه سياج بشرى يغلق الأفق ويعوق استمتاع المشاهدين ، بأحداث المشاهد المختلفة ، داخل الساحة التى تقوم فى وسطها المشنقة العظيمة . محظوظون أولئك الذين يقفون هنا خلف

السلك ، فهم يستطيعون تمييز الجنود عن الآخرين ، حتى أسفل المشنقة ، الحكم على المتهم .. عذاب الأسرة .. ممارسة الإجراءات .

الناس الملتفون ساكتون ، لكنهم يتماوجون لينظروا ، يحتشدون للأمام يضغطون على الأسلاك الحديدية . السلك يكاد يتقطع والمعسكر تغزوه هذه الزمرة المجنسة لتجعله حلبة من الفوضى بحاجة لمن يلجمها . حينئذ أمر الضابط الأعلى الجنود قائلا : «للخلف در» . المناورة سريعة ، دار الجنود على أنفسهم ولم يعد بوسعهم أن يتقدموا بوجوههم للأمام بدلا مـن الأكتاف . لـكن الحراب التى صـوبوها كما لو كانت لابد أن تصيب الجمهور ، استندت إلى السلك الحديدى ، لتخفف الثقل عن أذرع الجنود إنهـا مدى مهـددة ، مصوبة إلى بطـون المشاهدين فى الصف الأول .

سبب صوت النصال إزعاجًا أكثر مما سببت انفعالا . البعض تركوا أماكنهم الممتازة ، بعد أن استولت عليهم ساعات من التعب ، وآخرون كانوا قد وصلوا ربما فى آخر فوج ، تقدموا للأمام فى ثقة وبغير اهتمام . كادوا يصطدمون بسن السونكى المشرع ، واثقين أن الجنود سيطلقون سراحهم . هؤلاء ربما يأخذون فرصًا أكبر فى الحياة . والمثال الذى يقدمونه - إذا كان يجب علىّ أن أحكم بهدوء نسبى - أن أولئك أصحاب الصف الأول ينجحون إلى درجة جعلت الجنود يهدئون من صـلابة سـلاحـهم الذى فى أيديهم . لحظة بعد لحظة ، ربما يميل الجنـود أيضًا بآذانهم الآن ، لأنهم لا يستطيعون الرؤية . ولكن من ذا الذى يقول إنه من السهل استعادة الحدث على خشبة المسرح تلك ؟

في الصمت الذى حل فور الأمر العسكرى « للخلف در » تميز منذ قليل صوت :

« يا خيرى أنا هنا ! » يا خيرى ! يا خيرى ! ، أنا هنا « تغرد من بين أغصان الأشجار الكبيرة فى الحقول خلف بيوت السادة . وتمثل لأعيننا - التى لا ترى حقًا العصافير الصباحية البعيدة على تلك الأشجار منظر مرحهم من غصن إلى عصن ، فرحة باليوم الذى أصبح كله ورديًا فى انتظار الشمس التى تشرق بعد قليل شيئًا فشيئًا خلف البيوت . (فهنا لا توجد جبال) .. تمسح السهل ملقية ظلالنا القاتمة مسطحة ممتدة على الأرض . معجزة شعورنا . الآن توقف نحيب تلك النساء .. الأم ، الأخوات ، الزوجة كراهبات فى الزى الأسود ، محتشدات ثابتات هناك بين موكب السجين والمشنقة ، يخلق فينا منظرهن خيالاً يروح ويجىء هل ينزل المحكوم عليه إلى الموكب ؟ هل يقرءون عليه حكم الموت ، كما لو كان لا يعرف أنه لا بد أن يموت .

طلب العفو أيضًا يمكن أن يصل فى آخر لحظة . حدث فى مرات أخرى .. هل تتعلق الأسرة بهذا الخيط من الأمل ؟ فأيًا كانت الجريمة التى يعد عقابها الآن عادلا ، فإن المحكوم عليه بالنسبة لهم هو دائمًا ابن أو أخ أو زوج ، وهذا يكفى لأن تتغلب الرحمة لديهم على عدالة العقاب والقانون . وإذا كانوا يكتمون يأسهم فلكى لا يقاسى الكثير من عجزه عن الإشارة بكلمة. كم هو لا يأمل فى العفو . إنه إنسان آلى .. يدفعونه ، يمشى .. يمسكونه ، يتوقف بشكل آلى . وربما يكون أيضًا قد مات بالفعل ولم يعد يعانى شيئًا .

فمه مغلق .. لا يجيب .

لا تعنيه الآلة التى تحيط به .

الأم نفسها غريبة فى عينيه .

أمسكت النساء عن النحيب رغمًا عنهن ، إذ إن الشفقة غير المفيدة تعذبه . لكن الوقت ضاق الآن ولم يصل أى رسول برسالة من الملك .

هل يسلم مدير السجون الضحية إلى السياف ؟

ها هو ذا السياف يتسلمه بيديه ! حل وثاقه للحظة لأن معصميه المشدودين خلف ظهره يشتبكان « بالجلابية » التى لا بد أن تنزع . سيكون مضحكًا بلا شك ، عند سقوطه فى فراغ المصيدة ، من أعلى المشنقة، إذ ينتفخ الزى العسكرى كاشفًا عن ساقى المشنوق كما لو كان المشهد يتعلق بقفزة راقصة باليه .

حقا إن القانون يفكر فى كل شىء .

ظل المحكوم عليه بالسروال الأبيض والقميص الأحمر . لكنه الآن فى شعوره بالتحرر يبدو كرجل يستعيد الحياة . يتمهل .. لا يريد الحديد مرة أخرى فى معصميه خلف ظهره .

من الضرورى اتخاذ العنف . السياف والمساعدون يتحسبون لمفاجآت النهضة المفاجئة .

الآن بعد أن فقدت النسوة كل أمل، تدحرجن على الأرض . يلطخن الوجه تراباً ودموعًا ويصرخن بالنحيب المرتب طبقًا لعاداتهن عندما يصخبن الموتى . غطت دقات الطبول وامتصت من آذاننا نحيبهن . لكن الصورة النهائية للمحكوم عليه مثلت فى أنظارنا .. مدفوعًا بالسياف والمساعدين ، صعد المشنقة حرونًا كبهيم ، يشم رائحة دم الضحايا الآخرين ، وهو على وشك الإجهاز عليه ، لخوف موروث يضطرب .

الآن فهمت لماذا بنيت المشنقة عالية جداً عن الأرض .. الرؤية هكذا دقيقة بالنسبة للجميع من كل جوانب المربع ، وألغى امتياز أن تكون فى الصف الأول . ولولا صوت الطبول ونحيب النساء لما قطع الهواء حولنا نَفَس ، لأن الناس أمسكوا أنفاسهم حتى لا يفقدوا أى جزء من اللحظة الرهيبة .

آلاف المرات تصعد الأبصار وتتركز على المشنقة وتثبت على العقدة التى أحكمت حول عنق المحكوم عليه ، كان السياف خفيف الحركة . كصاحب حرفة يعرف كيف يقبض على حرفته . أين وكيف يلمس الضحية .. يثنيه .. يجيره أن يعقد الرباط الأخيرة . كانت يد السياف اليسرى للحظة خفيفة على الآلة ، التى سحبت لتنتزع المزاليج التى ظل المحكوم عليه منصوباً عليها للمرة الأخيرة . البطل فريسة لشر باطل (الشر الذى يعانيه بيبيكو) .. يتم الحدث على سفينة الشيطان بسرعة فى قيادة المستقبل إلى الغرق . ثم تتهاوى على الفور إلى الأسفل .. على عمق آلاف الأمتار ويهوِى المحكوم عليه فجأة فى الفرا غ لتنقطع

فى النهاية عقدة العنق ، كانت الأحداث أكثر من الكلمات التى تعيد القول . والآن توقفت دقات الطبول وبدت النساء ككومة من التراب وهن يخفين نحيبهن بأفواههن فى الأرض ، الآن من يستطيع أن يضحك لَضَحِكَ ، لأن الحدث المفاجئ ارتبط بمأساة التمثيلية الهزلية ، لكنىَ لم أستطع .. مزقت أفكارى صرخة « جيى » عند سقطة المشنوق من الحبل ، كان يبدو كمن يريده أن يتمزق . وصرخة أولئك الملتاعات « جيى » تثقب جنون الطبول ، لم تكن سقطة ذلك الجسد فى الفراغ بالنسبة لى قفزة بلياتشو تشيع البهجة ، كما لو أن المشنوق لاعب سيرك أعاد القفزة المميتة فجأة أمام أعيننا المنتبهة .. المشنقة ، فى عرض « للترابيزة » انكشفت اللعبة ، قدمت الضحك للبعض ، والرعب للبعض الآخر ، كنت أنا من بين أفراد الفريق الأخير ، احتفظت فى ذاكرتى المرئية لفترة طويلة ببشاعة مشنوق اليوم .. فى اللحظة التى انحلت فيها العقدة ، وأزهق النَّفَس الأخير غضبت من الوحشية الجسدية . ولفظت بذوراً معكرة وساخرة .

* * *

لم تتوالَ هذه الذكريات بشكل منتظم . الواحدة بعد الأخرى . وإنما ندع الكثير من تفاصيل الحياة التى تقفز عليها الذاكرة الآن ، لأنها واعية ، تستبعدها فى يسر ، لتجرى خلف الحدث الذى يزاحم أكثر من غيره ، وتتوقف – مع الأسف – عند بعض التفاصيل التى كان لها

السيطرة فى مختلف الأوقات ، وهى تسلط فكرة يهوذا ، إذ إن الصورة المأساوية تملكت عقلى مع السنوات ، وكان يغذيها الطموح فى أن أجعل يهوذا يرد اعتباره على المسرح متخيراً الطريق السهل الكبير ، رأيت أنه من الأفضل أن أظهره لأعين العامة الساذجة كملك رومانسى جميل وسيئ الحظ مفتدى بالدراهم الثلاثين جزاء الخيانة . أشعر بكثير من السم الهادئ يسرى فى دمى ، فحتى لو حدث أن شفيت من الفكرة المركزة ، فإن أفكاراً أخرى ملحة إلحاح الحياة تستحوذ علىّ ، الهدنة كانت قصيرة ، فيهوذا يعاود الظهور إما قبلها أو بعدها . كان أتفه شىء يكفى لاستدعائه . حتى الحلم فى بعض الأحيان كان يضعنى أمامه . والفارق الزمنى بين هجر الفكرة ومعاودتها مرة أخرى كان ملغى - كما هو الآن فى تتابع الذكريات - فيعود كانتكاسة المرض الذى ما إن يختفى بزوال المسبب ، حتى يثور مرة أخرى فى لمحة ولأتفه سبب ويعود كل شىء كما كان من قبل . بل إن العلة تعود أكثر شراسة لأنها عميقة متأصلة فى جسدى ؛ لذلك فإنى أعيش اليوم بطريقة ذلك الوقت الذى كان يهوذا يسيطر فيه على بسبب إعادة الكلمات نفسها لكن بغير تتابع .. بغير نظام .. ما يبرز منها أعيد قوله دون احتفاظ بالترتيب . موجات من البشر ومن الأحداث المهجورة منذ زمن ومعتمة النهاية ، تكون فى بعض الأحيان كأشجار الطبيعة التى أتجول تحتها فى صحبة الخصم الذى تعرفونه .

ها هـى ذى التـواريخ أيضًـا تتـوالى دون نظام . إنه الزمن الذى يمضى من عمـر الشباب إلى منتصف الحيـاة . ليس عـلى كثير من الأهمية أن يأتى حدث قبل أو بعد حدث آخر .. فى ذلك الفضاء تظل خلفية للوحة .. هواء .. جبال .. حشائش .. أشخاص .. أفعال وردود أفعال ، ربما فى دورة السنين يغفلها الرسام . ولا يجدر إذن معرفة الماضى والمستقبل . ولا ما يستبعد من المنظر الحقيقى ، ولا ذلك الذى أضيف إلى النمـوذج ؛ فهو فى رأيى مبتكر ومؤجل ومعدل ، متوافق في الفضاء ، وقد أصبح الآن محدوداً بالإطار .

هذه الذكريات لا يستبعدها الزمن ولا رغبة بى فى قصها بالطريقة المتفق عليها . لا يستبعدها الزمن ، لكن تاريخًا معينًا كان بالنسبة لى أوقع أثرًا .. ذلك هو صيف عام ١٩١٨م ، عندما سقط القناع عن يهوذا فأتانى الشفاء منه كسحر ، لكننى كنت قد أصبحت فى بلدى ، وبدأت أرى مصر من خلال الذاكرة ، كقطاع من الزمن ، أصبح معروفًا الآن .

لم تكن كل الحياة فى مصر سوداء على أية حال (كما تنبهنى الذاكرة) ، لأن أشياء جميلة وأحداثًا إنسانية أيضًا حاولت التدخل ، حتى قبل ذلك التاريخ الذى تحدثت عنه لتوضيح السجن الذى ظل قلبى مغلقًا بداخله ، لكن أكثر ما كنت أسير فوقه هو القار والكبريت (المادة المستخدمة فى رصف الشوارع فى ذلك العصر) فى طرق المدنية الشريرة التى لا تعرف من الحضارة سوى أن تجعل الشوارع مصقولة بالأسفلت .. فى ذلك الوقت كانوا يناقشون مشروع الجامعة الشعبية والوقاية الصحية التى أصبحت هى الشغل الشاغل .

بدأت المحركات النارية تظهر على الساحة بنوع من الخجل تحت النخيل العريق وتعكر صفو الهواء الذى كانت ترققه قبل ظهورها نسمات من الياسمين والشهد . قلت تظهر بنوع من الخجل ، لأن إمكانية السير بسرعة فوق الدروب الضيقة التى تحفها الحقول أصبحت مستحيلة ، وذلك لمحدودية احتياج « العِزَب » . إنها السيارات التى ظهرت بالفعل فى المدينتين الكبيرتين تحاول أن تفتتح الطريق . تبادر بربط الإسكندرية بالقاهرة . غداً ستصبح الاختراع الضرورى الناتج من تجربة اليوم ، لتساعد الحكومة على مصادرة الحقول واختراقها التى لم يمسها أحد من قبل (مثلما فعلت بالنسبة للسكك الحديدية) أمام السباق المحموم لهذه السيارات .

سريعون وخفيفو الحركة سائقو السيارات . فالسيارة تعنى القوة ، موجات مسرعة تمر الآن تطأ وتسحق .. دون التفات للبذور المغروسة ، محتقرة جهد الفلاح الوطنى ، خائف .. منحن .. يروعه مشهد الأوروبى الذى يقود آلته الشيطانية التى تنفث من الخلف دخاناً كريه الرائحة .

هو صديق لى ، الميكانيكى الذى يقود السيارة ، على الطريق التى ستكون فى المستقبل طريق الشاحنات ، يسير الآن عبر السهل الوعر الذى يمتد من هنا حتى القاهرة، المزروع فولا وذرة وقطناً ، كما لو كانت كلها مزرعة للعلف لا تبيد . إذ انتزعت بعض مساحات من الرمل المستعصى على الخصوبة . مساحة الملكية محددة بالقنوات التى تحمل من النيل منذ أزمان مياهاً عذبة وصالحة للرى ولتخصيب الأرض ، على

تلك القنوات مد صديقى المائدة الخشبية التى كان يحملها معه . وهى بمثابة جسر صغير مؤقت للإطار الذى ينتزع عذرية الأرض خطوة خطوة تجاه مقصده . هو من إقليم بييمونتى . عنيد واثق من نجاحه .. لا يعبأ بشيء .. واثق بنفسه وبفكرته ، تخير أن يصحبه فى مغامرته كلب «بُلدُج» حارس مخيف ومفترس وملوث فى عرف العرب السذج . الكلب «نجس» ، أى قذر كالخنزير الذى لا يمكن حتى لمسه طبقًا لتعاليم القرآن ، حيث إن لحمه محرم . وصديقى يعرف هذه الأشياء .

قال : « ليتنى كنت أحمل فى الخلف خنزيراً صغيراً حتى يبتعد عنى العرب الفضوليون عندما أرغب فى النوم دون أن يقلقنى أحد . إلا أننى بالخنزير ما كنت سأجد من يساعدنى فى دفع السيارة عند تعذر الدرب . أما بالنسبة « للبلدج » فقد اضطررت إلى ربطه بعد الكارثة الأولى » .

ثم استأنف يحكى : « كنت أنام داخل السيارة والكلب طليق .. وذلك العربى جاءته فكرة مشئومة فى أن ينزلق تحت السيارة (بدافع من الفضول) ليرى كيف هى من الأسفل . وكانت نهايته فى لحظات : لم تصدر من الضحية إلا صرخات قليلة . ولكن الكلب أهاجته نكهة الدم ورغم موت الضحية إلا أنه استمر ينهش فيها بوحشية ، وتحول جسد العربى إلى كومة من اللحم الممزق . وتفرق العرب من هول المنظر وهم يصرخون من الرعب : « العفريت ! العفريت ! يريدون أن يقولوا : الشيطان ، يهربون فى كل الاتجاهات ، لم أحسب الوقت . قلت لنفسى

أدير عجلة الموتور ، ولحسن الحظ دار فى الحال قفزت على المعقد وابتعدت مضاعفًا السرعة . أعترف أن خوفًا حقيقيًا اعترانى ، كانت صرخة : « العفريت ! العفريت » تعاود الرنين فى أذنى . بالنسبة لهم كانت سيارتى تمثل عربة الشيطان ، وأنا كائن مرعب دون ذيل » وافق أحد الرفاق وقاطع قائلاً :

« ليس مهما العربى ، المهم أن تكون قد نجحت » . لكن بيبيكو ، صديقى نصف الإسبانى ، لم يوافق على هذا الرأى . نظر إليه مضيِّقًا عينيه وتغير لون وجهه الوردى وهو يقول : « هذا مرعب ، بأى مزية تتفوقون إذن ؟ » .

فقال الرفيق الذى تحدث من قبل « المزية موجودة سيجدها المستثمرون الذين يقيمون الطريق الرئيسى المباشر من الإسكندرية إلى القاهرة » .

فأجاب البييمونتى : « هذا مفهوم ، ولكن الأمور ستظل هكذا إلى أن نقلم أظفار البرجوازيين ، ولكن على أية حال » ، وهنا أخذ البييمونتى يضحك وقال فى إحساس من الزهو : « لن تقولوا : إن السيارة شىء بربرى » .

اعترض بيبيكو خجلا وقال : « ولن ليس للسيارة دخل هنا ، إن الأمر يتعلق بأبرياء » ، قال البييمونتى متحمسًا : « غير أن السيارة كانت لا بد أن تمر ، فالسيارة حضارة والتقدم يطلب ضحاياه » .

أجاب بيبيكو وقد بدا ساخطًا على البييمونتي المستهتر : « نعم . ولكن هكذا ؟ لا ... الدم يجعلني أشمئز ... أشمئز دائمًا » ردد قوله وهو يعاني كما لو كان الرجل المجندل بين الرماد حاضراً هنا . فقال البييمونتي متباهيًا : « على أية حال فهو حادث . وماذا لو كان العرب قد هاجوا عليّ وقتلوني ؟ أما كنتم ستعتبرونها حادثة هي الأخرى ؟ » ، ثم أشفق على بيبيكو قائلا : « إنك أرق من فتاة . وإذا كانت تتملكك رحمة بالإنسانية بوجه عام ، فكيف تتصرف مع البرجوازية يوم الثورة ؟ » .

أجاب بيبيكو غاضبًا كما هو دائمًا : « أنا لست بحاجة إلى ثورات » . « إذن فلترجع إلى الرهبان الإسبان » .

فتدخلت لأخفف ارتباك بيبيكو قائلا : « الجدير بالذكر أن سلالة كلاب الشمال تعد دخيلة في بلد عذب وصاف كهذا . إنها كلاب بلدج تصلح لكهوف الشمال ... في الغابات السوداء المعقدة التي تسكنها الثعابين والوحوش الضارية . الخطأ إذن في أن تُحمل كلاب كهذه إلى مصر ، حيث المارة يكادون يسحقون العصافير تحت أقدامهم وهم يمضون دون أن يدرو ،! وذلك لكونها كثيرة وأليفة على الأرصفة ، وعلى عتبات الحوانيت هل يبدو لك هذا بلداً لكلاب بلدج ؟ حيث العصافير تتقافز بين الأولاد الذين يلعبون ويسقطون « الحلاوة » وفتات الخبز مبللة من أفواههم فتكون غذاء للطيور ؟ بلد حيث القط الأثير لدى النبي لا يندفع حتى تجاه الفأر الفرعوني الأبيض وهو في متناوله ، هو خادم في المنزل ؟ » .

منذ وقت طويل لم يصب بيبيكو بالتشنجات ونوبات الصرع التى كانت تصيبه . كان قد ورث هذا المرض عن أمه الإسبانية ، ذات مرة قال لى : إن الصلوات يتلوها باللغة الإسبانية مثل أمه . فقد كان متدينًا وقال : « عن والدى لم آخذ شيئًا مطلقًا . ولا حتى الأفكار الهدامة » . وكان يقول لى على سبيل المزاح : « لو اضطررت ذات يوم أن تجدف فليكن تجديفك بالإيطالية مثل أبى » ؛ لأن بيبيكو لم يكن يفكر فى التجديف أصلا ، اعتاد أن يرسم علامة الصليب ، حتى قبل أن يبدأ فى الضرب بالمطرقة ، بمجرد أن يسمع صرخة الصفارة التى تعطى إشارة البدء فى العمل ، صباحًا وبعد الغداء .

طويل .. سمين .. بطىء الحركة – بيبيكو – وجهه ملون (بخلاف من ولدوا هنا ذوى الوجوه الزيتونية) ، عيونه جهراء محمرة الأركان ، دون رموش ، أشقر الشعر ، ذو تسعة عشر عامًا ويعانى من البواسير .

لم يكن يعرف شيئًا عن إيطاليا ، ولا عن إسبانيا ، إنه ولد هنا وتعلم فى مدارس متواضعة للغاية لا يقرءون فيها قداسًا ، ويرتدون فوق زى الرهبان الأسود صدرية بيضاء تقليداً للأطفال الرضع . ربما لأن كونهم صغاراً يجعلهم أفضل لتعليم الأطفال . فقد بيبيكو الهوية . إنه ابن البلد . وليس به خبث . على الرغم من أنه ولد وتربّى فى حى من أحياء المدينة من الجانب المؤدى إلى الميناء ، حيث لا يوجد شارع بأكمله تسكنه أسر منتظمة ، نهاراً لا يفطن المرء إلى ذلك . لكن بمجرد أن يهبط

الليل تعج تلك الشوارع بالبحارة من كل الجنسيات وبالجنود ، جنود الاحتلال البريطاني في مصر . وبأهل الصخب ، توقد الأنوار .. تفتح أبواب المحالّ التي كانت مغلقة حتى ذلك الحين ويبدأ المعرض . فى كل مكان - تنقصه الواجهات الزجاجية كما هو الحال فى المقاهى والحانات عندنا - آلة موسيقية تدار باليد مثل آلتنا «البيانيلا» ، حقًا لم يكن الشارع الذى ولد فيه بيبيكو ونشأ طول الوقت ذا سمعة سيئة بالمعنى الدقيق ، ولكنه قريب من تلك الشوارع التى ذكرناها وتؤدى إلى الميناء . هو أوسع قليلا من غيره . رصفته البلدية أخيراً ، وعلى أية حال هو كان ممهداً بسبب مرور من يأتى من ذلك الجانب أو يذهب من ذلك الجانب ، ومساء يمر الناس مثنى مثنى من هنا ، لأن شارع بيبيكو يفضى أيضاً إلى شارع الراهبات ويطل عليه .. « شارع السبع بنات » الذى يقود إلى وسط المدينة ، إلى ميدان القناصل، وساحة النزهة على الشاطئ ، الغنى بالفيلات ، وملاعب السباق والجولف والتنس . توجد هنا كليات لمختلف الأمم من أجل أبناء السادة . وفنادق للأمريكان . ولا ينقصه «كازينو» صاخب على مقربة من ذلك الشاطئ للعب القمار . ولحمام المليونير ، وللموسيقى . منطقة لطبقات أخرى ليست لنا نحن العمال ، لأن الصعود صعب . بينما على العكس للغنى أن ينزل إلينا من أجل متعته ، وليرضى فضوله تجاه حى غامض ، كما يفعل بالفعل الناس الذين يسكنون الأماكن الفخمة التى ذكرناها . ينزلون إلى هنا للهو وللمجون ليلة . الأجانب حتى نقول فيما بعد : إننا رأينا كل شىء

يمكن رؤيته . يمر من شارع بيبيكو زوج يرتدى أحدث أزياء باريس ، وبمجرد دخولهم الشارع يختلطون بالعامة الصاخبين من كل جنس .

شارع بيبيكو المرصوف قصير . وإذا استثنينا فندق «الأندلس» (ربما تكون والدة بيبيكو أندلسية) ، فإن البيوت يسكنها موظفون متوسطو الحال . لا شيء من الدنس إذن فى ذلك الشارع . لا فضائح فى فندق «الأندلس» الذى تملكه والدة بيبيكو وتديره بحزم ، إذا اجتمع زوجان بصفة مؤقتة فى ذلك الفندق أيضًا كما فى جميع الفنادق فإن بيبيكو لا يهتم بهذا العمل .

يقول : « فى الفندق ، لم تحدث نزاعات أبدًا : فوالدتى تفهم على الفور عندما يأتيها طلب حجرة ، من تخص وإذا لم يرقها الأشخاص تجيبهم : « مع الأسف أيها السيد . الحجرات كلها مشغولة » .

دقيقة أمى ، عندما لا تكون واثقة من الزواج (مظهر الأشخاص ووقت الطلب يشيان بذلك) ، لكن فئات معينة من الناس ترسلهم أمى إلى حجرات الشرفة ، بعيدة ، ومنفصلة عن حجرات الفندق الأخرى ، ذات سلم خاص ، ولا توجد بها صور قديسين ولا قديسات معلقة على الجدران ؛ وحتى تلك الحجرات كانت لا تشملها بالبركة فى الأسبوع المقدس . أمى تسميها « حجرات طائرة » .

كان بيبيكو يحكى وهو واثق من أثبات أمانة الأم . أما عن الوالد فقد كان يتحدث قليلا ، وبحماس أقل ، وذلك بسبب التجديف ، قال : إنه

يعرف «سراً» عن مصنع الزيت الإنبولى (نسبة إلى مدينة إنبولى مسقط رأس والده) الذى يبدو تماماً أنه من الزيتون » .

وحين سألته بأى شىء يتعلق هذا السر ، وكيف يُصنع زيت دون زيتون ، تخفى بيبيكو وراء الكلمات .. «سر» وكأنه يريد أن يقول شيئًا ، ويخشى أن أظن به سوءًا . ولكنه فى الحقيقة لا يعرف الكثير ، واقتصر على الحديث عن « طماطم ومصاف » ، لكن بالنسبة لى كانت تكفى الكلمات القليلة لكى أنظم الحديث ، فى طريقة نطقه « للمصافى » ، و«للطماطم» أنها طماطم ، لكنها من نوع خاص ذى أهمية فى التأثير على السعر : هو مكسب ذلك التصنيع .

« والدى يشترى الطماطم التى تبقى فى السوق إلى الساعات المتأخرة من الصباح ولا تباع . وخصوصًا تلك المفرطة فى النضج أو النفاية التى تتركها ربات البيوت بعد أن ينتقين ، تلك الطماطم الملقاة فى السلال سيكون من شأنها أن تطرح فى القمامة لو تركت إلى الغد» .

فكرت بصوت مرتفع : « لا بد إذن من طماطم مفرطة النضج » وتشترى فى الوقت الذى تشرف فيه على الفساد ، ولا بد أيضًا أنها تتكلف قليلا » .

قاطع بيبيكو مؤكداً : « تتكلف قليلا، ومفرطة النضج فوق ما يلزم.. مليئة بالسائل الذى يتحول إلى زيت بعد تصنيعه بسر أبى » . فقلت ملمّحًا : « ولكن ألا يمكن عصر الزيت من البذور ؟ بذور القطن وغيرها

الكثير؟ » لكن بيبيكو لم يكن يعرف حقا . قال : « كيف يخرج الزيت من ذلك الخليط ، لست أدرى عندما يجهز الخليط فى القصاع الخشبية قبل أن يمر الجميع فى معصرة ، لا يريد والدى أحدًا حوله حتى لا يكشف السر». الأشياء التى تخلط بالطماطم يحفظها فى دولاب مغلق بالمفتاح . مرة واحدة فقط ، عندما كنت صغيرًا ، رأيت الدولاب مفتوحًا ، واقتربت لأمسك ما بداخله . كات بداخله زجاجات كبيرة وبرطمانات على الأرفف وعليها كتابات كأرفف الصيدلية ، خوفنى أبى بالسم وبالشيطان قائلا لى : « إنه سم » انظر كيف يوجد الموت على الزجاجات ؟ » كان أبى فى تلك اللحظة يمسك فى يده برطمانًا انتزع منه مسحوقًا ووضعه فوق كفة الميزان وقال لى : « هذا المسحوق لا يستطيع أن يلمسه إلا الشيطان .. إنه مسحوقه » ، وبعد أن وضع البرطمان طردنى بطريقة سيئة من المحل . منذ ذلك الحين لم أعد أرى الدولاب مفتوحًا . بالتأكيد أبى قال هذا الكلام لولد كان يمكنه أن يسبب خسائر . لكنه سبب لى حيئذ كثيرًا من الرعب ، فكرة أن أبى يمكنه أن يلمس ترابًا سحريا يمده به الشيطان ليصيِّر الطماطم زيتًا . ومازلت إلى اليوم - ولى عشرون عامًا لم أتخلص من الانطباع الذى أصابنى وأنا صغير ، لم يتلاش كله . لا أدخل مرتاحًا محل والدى ، وعندما أدخله أشعر بالاشمئزاز والريبة عند رؤية تلك الآلات . المصافى التى تقطر الزيت الأصفر تعطينى شعورًا بالسحر . لو أنت رأيتها - بعينى التى تعود الآن لذلك الزمن - تلك الأنابيب الزجاجية الضخمة التى مازال الزيت بداخلها داكنًا عندما يمر

عبر الفحم (ربما انطفأ ظاهريا) داخل الأنبوبة ، ربما لا يروقك بعد ذلك أن تأكل الزيت مغمساً بالخبز . أنا كنت أعتقد فى صباى - بعد أن خوفنى والدى بالشياطين والموت - أن ذلك الفحم الراقد فى أعماق المصافى الزجاجية ، هو نفسه الذى يزود به الجن فى الجحيم (جهنم) لإحراق المخطئين ، لا يجب أن تقال أشياء كهذه للأولاد .. أشياء سيئة تظل بعد ذلك فى دمائهم على الدوام .. كما حدث معى بعد هذه الفترة تأتينى التشنجات كل حين » .

فقلت لأخفف عن بيبيكو : « وأنا أيضًا لأن الذكرى المرعبة تشدنى أشعر أن ما تقوله حق ، لكننا الآن رجال ، وأقلعنا منذ زمن عن الاعتقاد فى تلك السخافات .. شيطان ، جنة ، جحيم . وإذا تمكنا الآن من الضحك من انطباعاتنا واعتقادتنا . فإننا يجب أن نعتبر أنفسنا قد شُفينا ».

لكن بيبيكو لم يكن مستعداً أن يضحك من النار ومن الشيطان كما كنت أريده أن يضحك . وعلى الرغم من أنه يتبعنى إلى الاجتماعات المخربة ، وفى صحبة الثائرين أيام العيد ، فإننى كنت أعرف أيضًا أنه يذهب صباح الأحد إلى الصلاة فى كنيسته الصغيرة . لم أكن أسأله ، لكنه لم يكن يخفى هذا ؛ لأنه فى الواقع على قدر من الطهارة بحيث يمكنه أن يحكى بعفوية عن حدث فيقول : « هذا الصباح عند الصلاة الأولى .. » وحينئذ كانت تنفجر ضحكة عامة إذا حضر هذه الفلتة أو الأخرى رفاق الكوخ الذين تحدثت عنهم » .

« من المستحيل تغيير بيبيكو » قلت هذا لنفسي ؛ إذ بعد أن عايش أناسًا كثيرين مثلنا ظل كما كان في ذلك اليوم الذي صادفته تصطحبه الأم إلى الورشة (كطفل يذهب إلى المدرسة للمرة الأولى) في رأس التين .. جاء ليؤدي العمل نفسه الذي أؤديه أنا ، ليشتغل ميكانيكيًا لإصلاح البواخر التي تبقى هنا في حالة استعداد دائم لترفع المراسي لإنقاذ السفن من غضب البحر خارج هذا الميناء الذي يتسم بالخطورة في الخروج منه أو الدخول إليه بدون مساعدة المرشد ، كان في صحبة الأم الإسبانية ذات الشعر الأحمر المصبوغ بالحناء ربما » .

في البداية لم يرُق لي .. قرد كبير يرسم علامة الصليب كأول حركة يقوم بها ، كما لو كان في كنيسة يتلو الصلوات الصباحية ، بدلا من وجوده في ورشة ليؤدي عمل الصباح . العرب الذين رأوه مثلي يرسم تلك العلامة تجاوزوا أكثر مني عن الحركة التي لم يعجبوا بها على الإطلاق ، قال أحدهم : « إنه من أهل الصليب » .

لكن بعد ذلك بالتعامل مع بيبيكو ، تغلبت طيبته على حكمي المسبق عليه ، وخصوصًا تلك الشفقة التي شعرت بها نحوه ذات صباح عندما أصابته التشنجات . تذكرت في تلك الظروف أخًا صغيرًا مات فريسة هجوم مشابه .

دائمًا تعاودني الطفولة ، عندما أرجع لأعيش في حدث بعنف ، فهي نبع الحب ، فيتحول إلى شعور بالتسامح ما كنت أحسه من قبل تجاه الشخص الذي عاود وأيقظ فيّ الطفل بفعل الحادث القديم .

منذ تلك المرة ، التى كنت مضطراً فيها لأن أصطحبه إلى البيت أيضًا . أصبحنا أصدقاء ، والأم التى لم تكن تريده أن يبقى وحيداً أبدًا ، كانت تتركه يأتى معى بارتياح حتى فى الليل ، واثقة من صحبتى له .

يكمن الخطر فى أن يتحول الابن الورع إلى زنديق، غير أنى لم تكن عندى أية نية فى أن أجعل بيبيكو يميل إلى الإلحاد ، لأنى كنت أعتقد أنه بتردده علىّ وعلى الرفاق ربما استطاع أن يتغير بمرور الزمن . لكنى حقيقة لم أكن أتعب معه فى المناقشات ، بعكس ما أفعل مع الآخرين - ربما لأن بيبيكو كان يعجبنى هكذا بتناقضه معى ، كانت براءته تريحنى - حتى علامة الصليب تلك فى بداية العمل ، بدلا من أن تسبب لى ضيقًا ، فإنها بدت بتتابعها حركة طبيعية لدى صديقى الطفل ذى الجسم الضخم . أتت صداقتى لبيبيكو فى وقت ملائم ، ليشغل الفراغ الذى تركه فى نفسى موت جيرفازيو .. شاب يعمل صبيًا بالورشة ، كنت أدافع عنه لأنه يتيم ، وله أم جميلة أوصتنى به بهذه الكلمات : « تصرف معه كما لو كان ابنًا لك » . أعطيت لكلمات التوصية هذه التى تخيرتنى أبًا معنى بالغ الاتساع تجاه الأرملة المزهوة ؛ لذلك كان الالتصاق بالابن المتبنى مهما أيضًا للتعاطف وللرغبة وللأغراض السيئة بخصوص الأرملة (التى انكشفت لى فيما بعد تعيسة ومخلصة إلى حد الجنون) ، بل أقول على الفور : إن تسرعى لاحتلال مكان لكشف الطرق إلى هذه المرأة التى بدت لى عند الرؤية الأولى مبتهجة وراغبة فى الحياة مرة أخرى بعد مغامرة الترمل .. لم يكن موفقًا .

قالت لى ذات مرة : « أعرف كم أنا جميلة ، ومن أجل ذلك يجب أن أظل منتبهة .. لأنى لا أريد أن أصبح قبيحة » . وعندما سألتها لماذا لم ترتد الحداد لوفاة الزوج ؟ » أجابت : إن الملابس السوداء لا توافقها « الملابس السوداء تجعلنى نحيفة كثيراً ، وهو لا يريدنى نحيفة » ، حينئذ فهمت أن الأرملة قد تعزّت ، فمن جانب آخر ماذا يعنى مرحها إن لم يكن سعادة فى القلب ؟

ظلت لدى الرغبة الطيبة فى التعاطف مع ولد مريض وكئيب ومتحمل .. لم يكن يتسلى أبداً مع الآخرين من سنه من صبية الورشة ، فى ساعات الراحة . قالت لى الأرملة : « إنه مثل والده » وأكدت : «مثل والده » يجب أن تكونى مرحة من أجلى أنا أيضًا ، وجميلة ، ومعتزة ، بقدر ما أعانى وصايا لا أنساها » ، قلت فى غضب : « وأنا أرى ذلك ، ولكن هل تكون هذه قاعدة رائعة بالنسبة لزوج آخر ؟ » .

أجابت : « لو كان الأمر هكذا لما عانيت ألمًا كبيراً .. أنا فعلت ذلك بالفعل .. حتى كنت أهدئه فى اللقاء الأخير ووعدته : (لن أشغلك يا عزيزى دائمًا هكذا .. لا زوج أبداً . لا زوج أبداً وإلى الأبد) ، ربما يعود ترددُ عبارتها واضطرابُ مشاعرها إلى كونها أجنبية ولو أنها كانت تجيد الإيطالية كما يتحدثونها فى مصر . كنت أقول لنفسى حينئذ : إن الرجل الذى أقام علاقة معها قد يكون متزوجًا ويخشى أن يفقدها . سألتها : « إذن هناك عوائق من جانبه هو ؟ » فأجابت متعجبة : « أية عوائق ! » قلت : « ربما يكون لديه زوجة ؟ » لكنها ردت

على الفور : « لديه أنا ... » حينئذ تجرأت قائلا : « هل يرى أحدكما الآخر كثيراً ؟ » « مساء الخميس » ، ثم قالت بقلق : « إن كنت أريد أن أذهب أنا أيضًا إلى لقاء الخميس القادم » . على أية حال فهو الآن يعرفك ... ويعرف أننى أوصيتك بجيرفازيو » .

لزم جيرفازير الفراش اليوم الأول من الأسبوع ، يوم الجمعة لم يكن على ما يرام . وظهر عليه المرض الذى قضى عليه . أردت أن أهدئ الأم ، وحين رأيتها هادئة فكرت « لعلها لا تعرف الخطورة » . لكنها لقيتنى بالدماثة المعتادة ... وقالت :

« سوف يموت يوم الأحد ، عرفت هذا فى الليلة الماضية » . ولدهشتى دققت قائلة : « هل تعرف ؟ أمس كان الخميس » .

بعد فترة وجدت نفسى أمر أمام بيت الأرملة ، وفى اللحظة التى كانت تفتح الباب لتدخل إلى بيتها . دعتنى للدخول لأتناول القهوة . كان الصالون صغيراً والأرملة لا ترتدى الحداد . اعتذرت لأنى لم آت قبل ذلك لزيارتها بعد الكارثة . كانت تستمع وهى شاردة . تذكيرها بالحادثة لا يزعجها على الإطلاق . واستمرت فى طبعها الرقيق .. لا تبدو أبداً كأم فقدت ابنًا لها منذ قليل . كان الجو حاراً وهى ترتدى ملابس خفيفة ، خلعت الرداء الخارجى الذى كان عليها وهى قادمة من الخارج . وضعت الحقيبة الصغيرة والشمسية الصغيرة والمروحة على مرآة المدخل . نزعت عن عنقها القلادة العنبرية التى تلبسها على طريقة العربيات ، وقالت

وهى توسع من فتحة صدر البلوزة : « إن الجو حار لدرجة يحسن معها بالمرء أن يتجرد من ثيابه » . ضحكت أنا . وفى الوقت نفسه الذى اختفت فيه المرأة لتحضر القهوة ، كنت أتأمل جمالها وأفكر فى قصة الأرملة التى كنت أعتقد أنى عرفتها ، وأنها ربما كانت تقضى حياتها بطريقة أخرى ... لكن الاستلطاف تجاهها الذى كان ذات مرة تحول إلى نفور أمام حقيقة أم فاقدة الشعور . أرادت أن تعرفنى أنها ليس لديها خادمة : قالت : « معذرة ليس لدىّ خدامة ، فهى تستلزم نفقات وأنا لا أستطيع الاحتفاظ بها » . وخرجت قافزة كفتاة صغيرة ، إذن نحن وحدنا فى البيت . هذه الفكرة أثارت غضبى وجعلتنى أكثر ابتعاداً . عادت تحمل فنجانى القهوة ، كلا فى يد ، وأكمام القميص مشمرة .. تركت الدراعين مكشوفتين وفتحة الصدر عالية .

قالت وهى تقدم لى الفنجان : « لو أردت أن تخلع الجاكيت » ، فقلت : « لا . لا . سأمضى فوراً ... لم آت كى أمكث طويلاً . إنى مستعجل » . « فوراً لن أدعك تذهب .. ولكن عدنى بأن ترجع » . وبابتهاج أخذت يدى واحتفظت بهما بين يديها طويلا ، وقالت بطريقة بدا لى أنها دعوة خبيثة : « تعال مساء الخميس ... سأنتظرك » . كانت كمن يعرض الحب . لم أقل لا ولا نعم ، لأنى لم أكن أستطيع الكلام والدفاع عن نفسى .

« تأتى إذن ؟ » ثم واصلت فيما يشبه الاستعطاف : « أنت لست بغريب . لو كان شخصاً آخر لما دعوته .. زوجى لا يسمح بهذا ، ولكن

من جهتك أنت فهو سعيد . والذى سيكون أسعد الجميع هو جيرفازيو الذى طالما حدثنى عنك ، تأكد من سعادته الآن وهو ملقى فى حفرة القبر سجن التعفن » . « السجن ؟ » غلبت علىَّ غمغمة بينى وبين نفسى .

تنهدت وأضافت : « وجسدنا ، ماذا يكون لو لم يكن سجن الروح ؟ أنا مازلت فى هذا الحكم ، لاثنين وعشرين عامًا .. ستمر سريعًا » أسندت يدها على مقبض الباب ورفعته . وسحبت الباب الذى يبدو ثقيلا ناحيتها . حينئذ شرعت فى الضحك بقوة وقالت : « إنه جيرفازيو الذى يقوم دائمًا بهذه الدعابة ، كان يفعلها عندما كان صغيراً . إذا أدرك أننى أرتدى ملابسى لأخرج ، لم يكن يريد أن يبقى فى البيت بدونى » ونزلت حتى وضعت فمها على فتحة القفل » دعنى أفتح يا عزيزى . لا ينبغى أن تكون سيئ الأدب هكذا . ألا ترى من هناك ؟ أخذت يدى وقادتنى إلى المقبض لكى أفتح . « ألا ترى من هناك ؟ » وحرفت صوتها كالأمهات عندما يردن أن يفاجئن صغارهن : « ألا ترى من هناك ؟ » ترددت قليلا . وحين جذبت الباب ناحيتى – بجهد – جاءنى انطباع أن هناك قوة مقابلة تمسك به .

فى هذا الوقت صادفت بيبيكو ذاهبًا إلى ورشة رأس التين بصحبة الأم ، كما قلت . وحتى وأنا لا أجد هناك بعض الشبه الطبيعى بينهما ولا تقارب السن ، فإن براءة بيبيكو ، بعد ذلك ، دعتنى إلى الصبر عليه ووجهتنى إلى طهارة جيرفازيو . لم أنتبه فوراً إلى المزايا التى يشتركان فيها ؛ لأننى بظهور هذا البدن الضخم فى الورشة الذى يرسم

علامة الصليب انتابنى شعور بالكراهية . فأيضاً لم تكن طبيعته تجذبنى إليه . ولكن بعد أن هدأت انفعالاتى ، وبسبب الشفقة التى حملتها لبيبيكو إثر مرضه اللعين بدأت أدافع عنه ضد الزملاء الساخرين، وكنت قد أصبحت كأنى استعدت جيرفازير الذى كبر فجأة .

كانت تلك الليلة ، على ساحة محرم بيه بمثابة صدمة كبرى فى حياة بيبيكو . فكانت رؤية المشنوق بالنسبة له هزة قوية . فمنذ ذلك الوقت أصبح كل شيء يؤثر فيه .

وهكذا وبعد قصة العربى الذى مزقه الكلب ... تتابعت الأيام الكئيبة بشكل أكثر وضوحاً . كنت أعتقد أنى أُلهيه باصطحابى إياه فى المساء بين الرفاق الذين يحترمونه الآن بفضل دفاعى عنه ، لكن بيبيكو ظل غريباً عن النزاعات السياسية . ولا حتى زاد تطلعه كما كان يفعل أحياناً من قبل . هو كلب وفى لصاحبه ، كان يتبعنى لأى شارع أسوقه إليه لكنه يلزم السلبية ، وخصوصاً حيال الأفكار المناوئة للكنيسة . ذات يوم قال لى : إنه يصلى من أجلى ، لم أجد الشجاعة لكى أضحك بل انتابنى بدلا من ذلك شيء من الندم لأنى أدركت أن وصاية كهذه تسهم فى تعاسته ولا شيء سوى ذلك .

آخر مرة كان دم سان جنارو هو الذى يعذبه .

أقيمت الندوة مصحوبة بالاختيارات ، كانت تريد أن تثبت خداع القساوسة النابوليين فى المعجزة السنوية . كان المحاضر ممسكًا بأنبوبة

زجاجية في اليد مليئة بمادة حمراء اللون ، هى الآن جامدة (كان يقول : إنه دم ثور مع بعض الخليط الذى شرح مزاياه) .

كل شيء كان يتم بأثر الطقس الذى كان يتزايد بالتدريج دقيقة بعد دقيقة فى جو يشبه الكنيسة ، إلى جانب الهيكل المزدحم بالشموع المضاءة ، الحرارة الحيوانية (كان المحاضر يقول : حيوانية بكل معانيها ») للمؤمنين ، والتى تساعد كثيراً فى تعديل حرارة الجو . بما يكفى لجعل الدم الذى لا يزال جامداً فى الأنبوب سائلا . وها هو ذا الواعظ الذى يقلد الكاهن القائم بالشعائر ، يحرك السائل الزائف فى حضورنا كممثلين للمؤمنين ، ويبالغ فى تحريك الأنبوب حتى أفلت من يده لينكسر تحت أقدام الجالسين فى الصف الأول - الدم الذى تجلط الآن على الأرض كقلب خروف ، كل ذلك بفعل حماسة الحاوى .

حدث هذا فى زمن عيد Succot وهو ذلك الوقت من العام الذى يتذكر فيه اليهود الأربعين عامًا التى قضوها فى الصحراء ، العيد يستمر لثمانية أيام ، يحيى اليهود الذكرى بإقامتهم فى معسكرات فى الخلاء على الأرض العارية تمامًا ، فى الخيام ، لمن يستطيع . لكنهم فى المدينة يستعيضون عن الخيام بالإقامة فى الشرفات ، لأن البيوت فى مصر كما هو معروف ليس لها أسقف ، وبما أن الأيام الثمانية هى مجمل الأربعين عامًا فإن كل مظاهر الحياة تمارس هنا هكذا : الحب . احتفالات الميلاد والموت ، اختلاف أوقات الصحو وأوقات الغيم والمطر . فى تلك الأيام الثمانية كما استمرت الأعوام الأربعون فى الصحراء .

وبما أن المطر شيء نادر في مصر فإن اليهود يتوسمون في اتفاق سقوطه بهذه المناسبة فضلا إلهيًا ، ووعدًا بسنة مواتية . محاضرنا المولع بالعلوم تفقه أيضًا في العقيدة اليهودية وأثبت أنه ، مثلما هو الحال بالنسبة لدم سان جنارو ، توجد أسباب طقسية محددة في هذا الوقت من السنة تجعل من أمطار Succot معجزة إسرائيلية رخيصة .

وبما أني كنت أسكن قريبًا من شارع الراهبات ، فقد كنت أنا الذي أمر صباحًا لأصطحب بيبيكو من أمام فندق الأندلس لأواصل معه الشارع إلى الورشة . في بعض الأحيان كان بيبيكو يتحرك ليقابلني حتى لا ينتظر في المدخل كما حدث في ذلك الصباح من اليوم الأخير لعيد اليهود ، جاء ناحيتي أو كان الأصح أنه ظل واقفًا تحت «مشربيات» الراهبات ، يلتفت إلى الجانب الذي سأظهر منه . شيء ما غير عادي في السماء أكثر من سحاب .. من ضباب .. وجو بارد كما لم يأت هنا تقريبًا أبدًا . توقف يهودي وطني في وسط الشارع . رفع وجهه إلى أعلى ومد يده وانتظر واثقًا من أنه سيشعر بها مبللة بالمطر بعد قليل ، خطر لي أن أقلده ، لكن قطرات المياه دقت على الأرض بالفعل .

لم يكن تهديد قرب سقوط المطر ، في التو ليجعلنا نظل واقفين (كنت أجامل بيبيكو) أمام نوافذ « مشربية » مغلقة تنبعث منها أغنية الراهبات الخافتة . يمكن للإنسان أن يعتنق الإلحاد كما يريد ، لكن أوتارًا مشدودة تظل فينا بمجرد أن يلمسها حتى صدى أغنية ، فإنها ترتجف وتخالف الأحاديث التي طالما فكر فيها العقل . إنها ذكريات

زاهرة عندما كان العالم جميلاً ، بلا أفكار أخرى للعين وللقلب . فى المعبد خلف تلك « المشربيات » يبدو لى الآن أنى أراهن ، هناك الراهبات كما هو الحال فى دير اليتيمات فى سيرافيتسا . أيضًا هناك توجد «المشربيات» لتخفيهن – ولكنها لم تكن تسمى هكذا ، لابد أن التقليد نقلها عن هنا – هى حواجز مصنوعة من الخشب المتقاطع ، تستخدم فى الشرق الغيور كله لتعوق المارة أن ينظروا إلى النساء داخل البيت ، لحظة .. وصدى الأغنية يتلاشى مع منظر راهبات بلدى .. أغلقت إحداهن الزجاج من الداخل لأن المطر بدأ يهطل فجأة على شيش النافذة الخشبى ، وكأن أبواب السماء قد فتحت على مصراعيها ، والأرض ظمأى من زمن ، أخذت تتشرب الماء دون إشارة إلى أنها شبعت . فقط حيث كان الأسفلت كان الماء يسيل معكراً فى جهة المنحدر ، ولأن الشقوق المفتوحة تجذبه بحرارة هنا وهناك فى الشارع المنخفض تعطى انطباعاً بأنه يوجد تحت الأرض فى تلك الحفر فم واسع يمتص الماء ، وكثيراً ما يصدر قرقرة من حوله ، كما لو كان الماء قد شكل صهريجًا نزعت منه السدادة . وصيحات الفرح من شرفات البيوت اليهودية فى الصحراء الوهمية بين صوت الماء المنهمر ذاك ، تمثل لآذاننا ذكرى غالية كالأغنية المسيحية التى كنا ننصت لها منذ قليل .

لم يكن ممكنًا أن نحتمى بشىء ، لأن وابلا من المطر سقط فجأة بعد إشارة البدء بالأمطار ، التى ظهرت فى هيئة نقاط متسكعة مندفعة بفعل الهواء تجاه المنازل . وهنا يحتمون بالمظلات لأن المطر يمثل عيداً ،

إذ جاء بعد شهور طويلة ، وحتى دون أن تكون يهوديا يتعبد بالانتظار تحت أكواخ Succot بالنسبة لنا هو اغتسال نموذجى .. حاجة للشعور.. مرح لتنفس الهواء الذى غسلته عيون السماء المنعشة . بالنسبة للآخرين اليهود – فاليوم هبة .. معجزة تتكرر فى كل موسم عيد منذ آلاف السنين لهذا الشعب الصابر المتشرد دائمًا ، منتظر منذ المسيح حتى الآن مسيحًا جديدًا .

وصلنا إلى رأس التين متأخرين قليلا ومبللين . شعر بيبيكو بالبرد الذى ربما يدعوه للذهاب إلى البيت والمهندس تايلور على ظهر الباخرة (نور الدين) يثور بلغته الشمالية تلك بشأن هذين الحمارين الإيطاليين اللذين يتأخران – لكنه عندما ظهرنا أمامه مبللين وعرف السبب هدأت ثورته ، لا يحدث كثيرًا أن يقتنع المهندس تايلور سريعًا حتى مع وجود دافع واضح تمامًا للأحداث ، يخشى دائمًا أن يفقد نفوذه . وبما أنه جاء حديثًا من إنجلترا ولا يعرف العربية ، فقد كان يخشى أن يسب الأوروبيــون كفاءته أيضًا بتلك اللغة . هــو يعــرف كل شىء . وهناك لا يوجد غير «حمير» لا أحد – فى عرفه يعمل بنظام – المهندس الذى كان قبله هنا ، لم يكن إنجليزيًا ، فهو أيضًا «حمار» حينما كان يوزع العمل كان يترك كل فرد يعمل بطريقته ، مبددًا للطاقات ، راضيًا بأن يرى العمل انتهى . أما هذا الإنجليزى فهو مغرور .. يتطلع إلى أن يقوم بالتعليم حتى لو كان الأمر يتعلق بسن الحديد . وعندما يغضب تبدر منه حركة عصبية فى العين اليسرى . ويتحدث بثقة . لكنه لو سمع صوت

امرأته (التى كانت تسكن الڤيللا الصغيرة بالقرب من الورشة) تغير إلى إنسان آخر . يلطف من صوته ، ويبسط التجاعيد التى كانت بسبب الضيق ويذهب بالقرب منها ذليلا كما لو كان يخاطب سيدته . حينئذ يقول عنه العرب « أبو قرن ! » ، أى « مقرن » . يحدث هذا مرتين فى اليوم على الأقل ، ويرن الوصف هنا وهناك : فى الثامنة والنصف صباحًا موعد تناول القهوة ، وفى الرابعة والنصف بعد الغداء لتناول الشاى . لكنه بعد ذلك أصبح يحدث لأية مناسبة ، أصبحت « أبو قرن » أيضًا كلمة السر ، يتناولها العمال فيما بينهم كتنبيه يشير إلى وجود المهندس تايلور فى الورشة ، على المرسى وعلى متن الزوارق ، وبهذا يضمن العمال خط الدفاع .

كان المهندس تايلور يعتبر تأخرنا تعطيلا للعمل ، إن لم يكن رفضًا له ، كعمل مرهق ، كان يقوم به فى الماضى العرب الذين كانوا يساعدون عمال الورشة وعلى متن الزوارق كأنهم عبيد . ولكن بما أن العمل يجب أن « يسير على ما يرام » كان ينزل هو نفسه فى ملابس العمل إلى الغلايات ليتأكد من الحالة التى بلغتها الترتيبات ، فأنا وبيبيكو لابد أن نكون مرشدين للعرب وهم يدقون بالمطارق الحديدية على القشرة التى تغطى جدران غلاية الزورق « نور الدين » .

« نور الدين » التى ذكرتها ، هى إحدى البواخر التى تنقذ مراكب الشحن خارج الميناء من المطر . دائمًا تظل مستعدة لأى نداء استغاثة ، لأن دخول هذا الميناء دون مخاطرة ليس بالشىء الهين . حيث إن

الإبحار دخولا وخروجًا يأتى بأمر الربان المختص . وغالبًا ما يحتاج المرشدون إلى قارب شراعى للذهاب به إلى السفن المنتظرة خارج الميناء . لكن عندما يكون البحر عاليًا فتتحطم القوارب الشراعية على الصخور ولا يستطيع الربان الاعتماد عليها فى الخروج إلى السفن ، وإذا كانت المراكب قد تداعت فى مستوى الرؤية من الميناء ، فإنهم يبلغون « نور الدين » لكى تتحرك للإنقاذ . مرة واحدة خلال العام تستريح « نور الدين » فى الفترة التى يفترض فيها هدوء البحر . حينئذ تطفأ النيران ، ونتابع كما نفعل الآن – صيانة الغلايات والماكينة والأعمال والآلات على ظهر المركب بعامة .

إن التعبير عن كيفية عمل الغلاية الأنبوبية ، وتحويلها إلى صورة مرئية لإنسان لا يعرف ، ليست بالمجازفة السهلة . ربما يكون من الصعب شرح كيف تتركب من الداخل ، ونحن نعرض وظيفتها لأحد الزوار ، فكلها مغلقة من الأمام بمسامير منظمة مثل واجهة مزدحمة لأحد القصور . هنا من الباب نوقد النار . وقد لا تكفى خبرة مشعل النار فى إعطاء تصور للجزء الأسفل من الفرن الذى يرتفع لكى يمر الهواء من الأسفل بين قضبان من الحديد الزهر إلى الطرف الآخر من الغلاية ، ويمتد سرير فيه كما قلت أنابيب مصنوعة من الحديد الزهر تشبه مشواة الفحم . ربما يستلزم الأمر أن يفتح باب الفرن ، ويعرض على الزائر الفحم المحترق المفرود على تلك المشواة ويجعله يلاحظ أن اللهب والدخان بدلا من دخوله الآن من الباب المفتوح ، يتسابق إلى

الجانب المقابل متصاعداً على هيئة ألسنة حمراء وسوداء ، انجذبت للأسفل بسحب ظاهر . ولكن مازال هناك اعتقاد خادع أن مدخنة الخروج التى كانت فى أسفل الخلف مباشرة إنما هى منصوبة لأعلى ، ويؤكد هذا رؤية اللهب والدخان يتسابق ويختفى حقا خلف الغلاية . ربما كان هكذا إذا لم تكن الغلاية أنبوبية كما قلنا . لكن على العكس ، بهذا النظام (الذى يعد تطويراً للأفران التى تعمل بالسحب المباشر) الذى يستثمر حرارة الدخان أيضًا . الدخان واللهب . حيث تفتح فوهات الأنابيب على الجدران المقابلة للغلاية ، تندس مشتعلة ومحترقة تلك الأنابيب على طول الغلاية ، لتعود بعد أن تمد حرارتها بالقرب من باب الفرن لتتبخر فى النهاية من المدخنة شبه الباردة . إذن فالغلاية الأنبوبية ليست برميلاً حديديا ضخمًا وفارغًا يمكن الدخول إليه من فتحة فى أعلاه تسمح بمرور رجل ليعمل فى داخله الإصلاحات اللازمة فى رحبة واسعة هى غلاية « نور الدين » فى قدر سعة الحجرة من المنزل إلا أنها أسطوانية مثل الخزان المستلقى على جانبه . وحزمتان من الأنابيب تمران من جهة إلى أخرى من الجدارين المسطحين . وبين هذه تبقى مساحة تسع بالكادلأن يمدد فيها شخص ، بحيث يلتصق صدره وظهره بالأنابيب دون إمكانية تغيير هذا الوضع . وهكذا يوجد اتساع إلى حد ما شبيه بهذا حول الغلاية ويصل إلى الجدران التى تكونت عليها قشور يجب إزالتها بالمطارق الحادة حتى يظهر الحديد الحى . ثم ينزع الصدأ الذى يهدد الغلاية سطحها بفرشاة ، ويدهن بطلاء أحمر أت من تريستى .

خلعنا أنا وبيبيكو الملابس المبللة وارتدينا زى العمل (عفريتة) وفردنا السترات والبنطلونات لتجف على سطح «نور الدين» فى الشمس فقد أشرقت السماء كما لو يكن هناك طوفان اليوم أبداً . هواء الخريف فاتر وشفاف . والقوارب التى ترى من هنا راسية ، تبدو كأنها قد غسلت من القذارة التى كانت تغطى لمعان الألوان . تبدو أنها أعيد طلاؤها هذه الليلة من جديد . حتى الأوتاد التى رسونا عليها ، بعد غسل اليوم ، عادت هكذا سوداء ولامعة بالقطران ، وهى توحى بأسس ضخمة من الصخور التى يبرز جزء منها على سطح الماء .. لتشهد على أنها كانت تماثيل لملوك عمالقة وشامخة وقد هوت من عرشها بفعل الطوفان الذى ابتلع فنارة الإسكندرية والميناء .

فى الأسفل يدق العرب على جدران الغلاية .. دقات منتظمة لخمس مطارق . طرق خفيف ، سريع ومنتظم .. دون تعب عضلى ، فالجهد القليل يكفى لإزالة القشرة .

تلك المطارق الخمس التى تدق فى توافق حين كنت أنا وبيبيكو على سطح القارب تملأ عيوننا مرآة سطح البحر ، كانت تشبه نقيق ضفادع يأتى من مغارة بعيدة . ولكن الآن وقد أوشكنا على دخول «المغارة» نحن أيضاً رغم أنفنا ومن فوهة الغلاية ، فإن المنظر يختلف تماماً ومشاعر أخرى تعتمل .

مدانون نحن مدى الحياة ، لنكفر عن ذنب مولدنا ومصيرنا هو سلوانا فى القيود التى تكبل أقدامنا .

ورغم ذلك فهناك أيضًا فى الداخل من بين الخمسة واحد يغنى . من بين الضوء الذى يخنقه دخان النفط الذى يتصاعد فى خيوط من قناديل المقابر و يتصاعد شيء يمكن تنفسه . وتقبل علينا رائحة الحرارة الحيوانية المختلطة برائحة الأماكن المغلقة ورائحة النفط الكريهة .. رائحة اللحم اللين الذى يتصبب عرقًا . أشعر بالاشمئزاز من الدخول إلى الغلاية ، ولكننى أفعله باستسلام ظاهرى وبرضوخ العبودية ؛ فأنا أيضًا واحد من بين الذين يدخلون هذه المقبرة التى لا يدخلها هواء نقي إلا ذلك القليل منه الذى يتمكن من تخلل الدخان الخارج (وأيضًا بصعوبة) من هنا ، من هذا الكهف الذى أدخله الآن والذى تفوح منه رائحة أسوأ من تلك التى تشمها إذا رفعت غطاء بئر أسود .

ومع ذلك فبين الخمسة واحد يغنى مخرجًا الكلمات من نصف فمه .

لمست كتفه العارية وقلت : «أية شجاعة لديك لكى تغنى يا محمد ؟» فضحك وبدت لى أسنانه البيضاء بين شفتين ضخمتين ذات لون رمادى ، قطع غناءه ، وتوقف أيضًا عن الطرق . قلت له : « مسكين يا محمد . ماذا كنت تغنى ؟ » .

ضحك متعبًا ولم يستطع أن يوضح .

أجاب : « أغنية . أغنية » .

فألححت أنا : « أغنية ، كيف ؟ » بدا له أنه عثر عليها فقال : «أغنية .. مثل .. حبيبى» .

« فهمت يا محمد .. تريد أن تقول : حبيبى . تريد أن تقول إذن ، أغنية عن الحب ؟ » .

أجاب محمد ، بالإيطالية : « حب .. » .. قال كلمة الحب كطفل لقنوه كلمة ساحرة . « حب » لو لم يكن وجهه داكن اللون لاحمرَّ خجلا .

إنه صبى حقيقة ، محمد العجوز .. صبى بشعره المجعد الذى وخطه الشيب .

بيبيكو معلق من وسطه للأسفل ، فى فوهة الغلاية ، يحاول الآن أن يستند ليقف على الأنابيب الأولى ، ثم ينتقل إلى الأخرى التى تليها من أسفل لتؤدى به إلى نزول السلم حتى قلب الغلاية ، بدا متعباً وهو يعبر من الفوهة البيضاوية للغلاية . سمين هو . وفى الوقت نفسه صنع جسده سدادة للنافذة الوحيدة التى تسرب مظهر ضوء النهار لسمائنا الحديدية ، وجد مسنداً تحت قدميه . لكنه تأخر فى اتخاذ القرار ، انزعج من وقوفه هناك ، بينما أنا أفحص ذلك الجسد المتعب .

سيقانه الآن يبدو أنها تلتوى تحت ثقل ذلك الجسد المترهل . مر صدره . لكن ذراعيه المفتوحتين إلى الخارج أعاقتاه . حافة فوهة الغلاية تحت إبطيه ، كان كطفل ما زال عاجزاً عن السير بمفرده . تعوقه كعكة السلة . صرختُ لكى يسرع ، فالتنفس هنا شاق . نهضت لكى أجذبه من ساقيه ، لكن فى لحظة ، ارتجفت تلك الحقيبة الدهنية بكاملها .. ساقاه تهتز على الحديد . والصرخة الأخيرة تشبه نباح الكلب ، تصعد

مـع ثقـل الجسـد الذى هـوى فى الوسـط بـين حـزمـتى الأنابيب مـدويا فى الغلاية .

أصبح العرب الآن عبارة عن قرود مجنونة.. يصرخون من الحناجر «عفريت» هى الكلمة الوحيدة المفهومة . تسلقوا المواسير حقًا مثل قطط متوحشة أو قرود ، وخمستهم أسرعــوا - غير معقــول - يخـرجون من الفتحة الوحيدة فى وقت واحد ربما يعض بعضهم البعض .

حـاولت دون جـدوى أن أجـعل مـحـمـدًا يسـاعـدنى فى الإبقـاء على بيبيكو ثابتًا وقد بدأ يرتجف ويسيل لعابه .

مصبـــــاح وحيـــد من الخمسة ظـل مشتعلاً ، معلقًا بالأنابيب فى الناحية المقابلة . انعكست الأربعة الأخرى على الصفائح المعدنية ، وتاه ذبالها فى النفط المتبعثر لترسل للأعلى دخانًا ورائحة كريهة تتفاقم لتزيد من الرائحة الراكدة من قبل .

إننا نختنق ، لو سمح لخيط من الهواء بالخروج حرا .. لكن العرب ، بعدما فروا خارج الغلاية ركعوا على ركبهم وأبدوا من الفوهة البيضاوية خمسة وجوه خائفة .

لم أستطع أن أقدم مساعدة لبيبيكو الذى ظل يلتوى ويعوى ككلب يخشى الماء . وبدأ يثور وظهر أنه يتصارع يائسًا مع قوة خفية طاغية . (قال لى العرب فيما بعد إنه كان يصارع الشيطان) .

استولى عليَّ الفزع من أن أسجن .. فدفعنى هذا التفكير لأن أكون قاسيًا .. وأن أترك بيبيكو لمصيره .

أصبحت أنا أيضًا حيوانًا متوحشًا . تسلقت لأوسع لنفسى مكانًا بين تلك الوجوه على حافة فوهة الخروج . لكنه صوت « أبو قرن » الذى أوقفنى الآن . لم أتبين جيدًا ماذا يقول . لكنى بدأت أفهم بعد ذلك حين رأيت الحبل ينحدر ، ونزلت .

الآن بيبيكو خائر القوى كالميت بلا حس . مستلق . ملطخ باللعاب وبالدم ، مترهل كقربة ، وثقيل حين رفعناه لنمرر الحبل تحت إبطيه . فى النهاية أعطيت إشارة البدء !.. جذبوه إلى أعلى ، ككرة من اللحم بالرافعة .. مثل جسد حيوانى مقتول فى عنبر الشحن .

يتأرجح ، ورأسه يتدلى أمامه ، ويهتز .

هل يكون قد مات حقًا ؟

أخذت أوجه الحمل الذى يرتفع بين حزمتى الأنابيب وفزعت من مجرد التفكير فى أن تستيقظ فجأة داخل هذه الدمية الدهنية الأرواح المتصارعة قبل الخروج من فوهة الغلاية . عندما وصلنا إلى القمة ، وأصبح الجسد فى الخارج من كتفيه . هنا ظلام ورعب ، تكومت الأسمال عند بطنه وتضخمت .. حينئذ انتابنى اليأس ، فتحت المدية التى كانت فى جيبى ، والرشقة الأولى ، هى تلك التى ستنهى كل شىء ، لأنه بعد تفريغ ذلك الجسد من أمعائه سيموت ، ويفتح باب الغلاية من أجل حياتى .

ولكننى لم أدر ماذا حدث بعد ذلك ، فبعدلحظة أفقت لأجدنى على سطح القارب وتحت رأسى - كوسادة - طوق نجاة « نور الدين » .

قال لى محمد : « أنت ليس بك شيطان فى جسدك » وضحك من الخوف الذى زال . ربما كان سعيداً لأنه أنقذنى . بعد قليل قال مرة ثانية : « قد دعوت (ربنا) (يريد أن يقول اللّه) حتى لا يؤذيك (العفريت) لأنه غضب عندما رآك تدافع عن بيبيكو » .

« لكننى لا أعتقد أن الشيطان يمكن أن يصل إلى هذا الحد من الغضب مع بيبيكو » .

« إنه يصب غضبه فينا جميعًا » .

فقلت : « فينا ، ومن نحن ؟ » .

« نحن أصحاب الشريعة المكتوبة فى الكتاب » .

كلمة كتاب تعنى كتابًا بشكل عام ، لكن محمداً قصد الكتاب الدينى المقدس وأضاف بالفعل : « فى كتاب ربنا ، حتى المسيح ومحمد وموسى فى نزال مع العفريت ، وكذلك القديسون » ، وحكى لى أن بطركًا يهوديًا صارع الشيطان ليلة بأكملها ، وكسرت ساقه مدى الحياة من ركلة ملعونة من العفريت النجس » .

فألقيت ملاحظة : « ولكن إذا كان حتى البطاركة اصطدموا بالشيطان ، فكيف يمكننا أن نتجنب لقاء الخطر الكبير ؟ » .

قال محمد يُفكر : « يمكن .. يمكن ... » .

وأكملت أنا « إذا أراد العفـريت أن يعرض قوته فربما استطاع أن يجرحنى ، وخصوصاً عندما كنت هنا على الأرض فاقداً الوعى » .

فغمز محمد طوق النجاة وقال : « ولكننى ماكر .. ولأننى ماكر .. وضعت رأسك هنا » .

فلاحظت : « هذا هو طوق النجاة (نور الدين) » .

وتساءلت عن العلاقة التى يمكن أن تكون بينه وبين الشيطان ولم أعرف إلامَ يريد محمد أن يلمح ، بأصبعه المشيرة إلى الحروف العربية السوداء والمكتوبة كثعابين على الخاتم الأبيض لطوق النجاة ، وأخذ محمد يدندن : « طوق النجاة .. أنقذك .. » ثم شرع فى تفسير نور الدين ، شرح وتابع الحروف بأصبعه . وفى النهاية ترجم تلك الكلمات إلى الإيطالية هى بالتحديد هكذا : « نور اللّه » .

« هل فهمت » .

« نعم فهمت يا محمد » .

حكيت لبيبيكو عن أوهام محمد ، وفى تقديرى أنه مزاح . ولم أكن أصدق أن بيبيكو يمكن أن يأخذها على محمل الجد . نهض ليجلس على الفراش .

وقال : « بالنسبة لى لن يحدث هذا أبداً ، لكن ذلك الصباح حقا كان بى دوار وكان يصيبنى بعض الوقت . لكن مثل هذا النسيان أعتقد

أنه لأول مرة يحدث لى ، منذ أن كنت أحتكم إلى العقل . ولقد فهم محمد هذا جيداً » . صمت وتأمل .

« ولذلك .. أرأيت ؟ » لم تكن تشنجات مثل المرات الأخرى . ففهمت على الفور ، ثم تذكرت أنه أمسك يدى اليمنى » .

والآن يئن من أجلى .

« أنت أيضاً كنت معرضاً للإصابة بمكروه بسببى » .

« منذ الآن ، لن تكون أبداً من المنكرين » .. نظر إلىَّ مضطرباً .

« الآن تحتاج أن تغير حياتك » .

كما هو صعب أن تفهم لأول مرة وهلة هذه الأفعال التى يتحدثون عنها بضيق يتحدثون بينهم وبين أنفسهم . لكل كلمة تخرج من بين الشفتين مائة كلمة أخرى تظل مستترة فى الثنيات العميقة لا يمكن التعبير عنها .

« الآن تحتاج أن تغير حياتك » يريد أن يقول كما فهمت .

(إن العمل لم يعد يلائم بيبيكو) هكذا قالت الأم فيما بعد . إنه يؤسفه أنه لم يعد يأتى معه . وقلت : « وأنا أيضاً يؤسفنى ذلك ، لكننا سوف نلتقى ، فى أيام العيد مساء ، مع الأصدقاء » .

قاطعنى مخالفاً : « أصدقاء .. مع أولئك ، كيف تتغير الحياة ؟ هل رأيت كيف كان قويا ؟ » .

سألته : « من ؟ » .

أجاب مقتنعًا : « من ؟ من كان يريدنى أن أختنق فى الغلاية . بمجرد أن أعتقد أنى أعزل » .

فرددت بتفكير : « أعزل ؟ » وواصل هو مشفقًا على :

« الآن أنا خائف من أجلك فوق خوفى على نفسى .. إذا لم تغير حياتك . لا حاجة بك لأن تضع نفسك فى مخاطرة تضييع الروح مع الحياة . ويكفى نسيان واحد . أنت رأيت ، كيف حدث معى فى ذلك الصباح ، عندما دخلت إلى الغلاية دون رسم علامة الصليب سهوًا منى دون إرادة ؟ » .

هذا جزء من حياة بيبيكو ، لأنه رغم عدم تغيير مهنته كليًا ، فقد ترك رأس التين . ومنذ ذلك الحين تحاشيت - أنا نفسى - صحبته .

قال الطبيب : « إنه من الضرورى أن يبقى مشغولا ما أمكن ذلك ، فى جو مفتوح . ولا يزعجه أحد . من الأفضل لو كان يستطيع أن يعمل بحارًا » .

« لكن الأم استبعدت نصيحة الطبيب بأن يعمل بحارًا ، فالفكرة الوحيدة عن البحر أنه إذا رآه يهدر أصيب بشَر باطل فى الموج » . بحر .. لا « فكر فى البلدية ، بدلا من البحر ، فهى تعد مأوى لكثير من الموصى بهم من الذين لا يمتلكون مهنة معينة » .

وهنا لجأت الإسبانية إلى شخص من كبار العاملين تعرفه . لكن العمل المفتوح فى البلدية هو عمل الحراس ، والكناسيين ، والبستانيين ، قال الرجل المسئول : « سوف نجعله إذن بستانيًا » .

عادوا أدراجهم ، بعد زيارة المدير الأكبر .

كانت الأم سعيدة .

وعلى العكس كان بيبيكو تجاه فكرة العمل بستانيًا ، لو كان يراد له أن يتوظف فى البلدية ، ويعيش فى الهواء الطلق .

كان بيبيكو يمشى برأس منخفض .. أسمر اللون .

غيرت الأم الشارع إلى مكان جميل .

الآن يخترقون شوارع الحدائق الجديدة . التى تطل على البحر . جميل ومنعش اليوم فى أواخر سبتمبر . وساحرة تلك الأرض المرتفعة الخضراء بفضل عناية البستانيين الذين انتظموا فى مهنة البستنة منذ قليل .

« أرأيت ؟ » قالتها الأم لبيبيكو ، آملة أن يكون الابن قد اشتغل بالانجذاب لرؤية تلك الأماكن التى عطرتها الزهور ، مبللة بالماء الذى يرش عليها بشكل دائرى .

قالت الأم : « هنا ستكون بخير » .

لكن بيبيكو لا يبدو مقتنعًا . يرى العرب منحنين لتسميد الأرض بأيديهم . يرتدون الأحذية الثقيلة فيتركون على الأرض آثارهم . فقال : « وأنا أيضًا لا بد أن أحفر الأرض هكذا ؟ » .

فأكدت له الأم : « لا ! يا بنى . أنت ستكون مشرفًا ، أفهمت ؟ سوف تراقبهم يعملون ، لكن بيبيكو يبتسم الآن لتصور خطر له .. تفكير استولى عليه وهو يرى « وابور الزلط » « دهاس الملايين » والرمل الخشن الأحمر على الطريق الممهد لتوه .

الآلة تدخن وتدوى وهى تتقدم ، سلحفاة بطيئة فوق الجفاف الصخرى كسرير أحد الأنهار . فى بطن المدخنة ، التى كانت مثل إحدى السفن ، علامة لندن . الحصان النحاسى المنتصب على حوافره الخلفية من الخوف يبدو أنه لا يصهل ، عندما جلس على مقعد القيادة أعلى الكابينة ، الرجل فى الزى التريكوازى يرتجف ، كما لو كان هو أيضًا داخل آلة ستطير .

« لو أستطيع أنا أن أكون فوق الالة أقودها ؟ » .

توقف بيبيكو أمام « وابور الزلط » « دهاس الملايين » بفضول الأطفال أمام لعبة عملاقة دبت فيها الروح . هنا فى الحدائق العامة الجديدة ، تمتلئ بمربيات الأطفال من كل الجنسيات .

كم هو قدر الحب الذى تكنه الأمهات للأبناء . وكم يجدن أحيانًا ما يقابل هذا الحب من جانب الأبناء . لكن فى داخلهن ، لا يوجد استثناء - فى حين يكون العكس عادة لدى الأبناء - فى الانفلات من لحظة معينة وسريان الرحمة والواجب والتسامح حتى من أجل الكبار . ويعد قضاؤهم ومخاوفهم ووصاياهم ثقلا للشباب . عند الأم لا يكبح

الزمن أبداً تلك الموجة التى لا تتجزأ والتى تنتابها منذ الاستمتاع بالجنين الأول ، وفى آلام الوضع ، ثم بالدم أحياناً الذى يلحم حياتها دائماً بحياة ابنها . ولا يخفت أبداً هذا العهد الطبيعى فى الأم ، فالابن بالنسبة لها ليس له عيب ولا عمر مهما كان دميماً فى خلقه .

الإسبانية تمسك بيده الان ، تصطحب صغيرها بيبيكو عبر الحدائق الصحية ، كما كانت تفعل منذ بضع سنوات وكأنها اليد الشافية المرتجفة التى تزيل عنه كل سوء : «هنا ستكون على ما يرام !» قالت بينها وبين نفسها : « لأن ابنى بيبيكو لديه من الصحة ما يكفى وأكثر . وقليل من الناس ينعم بعافيته » وتنظر إليه ، بالنسبة لها هذا السمين المترهل مثال للجمال .

هكذا والدة بانايوتى ، التى أذاقت ابنها طعم الحياة مع أمينة . وهكذا والدة جيرفازيو ، التى ظلت له مخلوقة لتسليه . كلهن الشىء نفسه من كل الجنسيات والأوطان ، ويغدقن الحب لأولادهن وبطرق مختلفة . وحتى إذا أقدمن على سوء فالخير باق لأولادهن . ويقلن : « أنا .. نعم ، ولكن طفلتى » .

شاهدنا منظراً مجافياً الذوق فى حفل منوعات هذه الحانة . كان الملتقى لأناس وطنيين يستمتعون برقص البطن (هذا حفل منوعات محلى) .. العرب يشاهدون بميل حقيقى ، والأوروبيون يعدون من الأجانب ، سياح متطلعون ، كل شىء يريدونه أن ينتظم فى ذكرياتهم حتى البطن المتشنج للراقصات السوداوات .

مواء الآلات الموسيقية الوترية التى تصاحبها دقات الطبل لتقطع أنين الشهقات ، وتتنوع الإيقاعات صعوداً وهبوطاً وسط خليط من التوجعات التى يهتز معها البطن العارى طوعاً وكأنها عضلة رياضى .

ظل الرقص على هذا الإيقاع ، فالراقصة تتفاعل بكل أعضائها فى هذه اللعبة . هياج بين المشاهدين العرب عندما يوافق الأمزجة مجون الراقصة . يثور الحيوان الذى لعبت به المخدرات وحركت مشاعره . والرجل الدنىء لا يتماسك . الأوروبيون الأجانب هنا ضيوف مهذبون لا يشاركون فى العرض المثير الذى يتمثل لهم لهم كملاحظين للعادات الشعبية .

(لكن ليست هذه هى حياة البلد. ليس هذا هو الشعب فى عاداته . مواطنو الليلة هؤلاء هم أقلية فى مصر ، يتدنون إلى « حشاشين » ، أما الشعب فأنا أعرفه جيداً .. إنه ذلك الذى يعمل فى الحقول منذ قرون . الذى يعمل معى فى الميناء .. فى الورشة داخل الغلاية .. مثلى يضطهده الظلم الاجتماعى) فى الساعات الأولى من الصباح ، صغيرة هى الراقصة التى تؤدى آخر نمرة . إنها طفلة حقا .

بالنسبة لى كان مؤلماً أن أراها تقلد الحركات المشينة للراقصات البالغات . على العكس من شعورى هذا جن جنون : « الحشاشين » الذين ذكرتهم . وعندما نزلت من الخشبة إلى الحانة هنا ، مع أمها التى كانت تصطحبها لتجمع البقشيش من الزبائن ، اعترضها المتفرجون بابتسامة بهيمية .

كانت الأم تدل على نفسها ، بالفطرة . وهى تمر من مائدة إلى مائدة . تدفع عنها اللامسين .

فيم تطمع بعد أن قادتها إلى هنا ؟ أو... هى تحتفظ بها لمثل هذا .

تقول متأثرة : « أنا الأم ! » .

أجاب السكران ذو السترة الحريرية الفاخرة : « لو كانت بكراً لتزوجتها » .. « أتزوجها .. وأدفع فوراً » وانتزع من حزامه حافظة الجنيهات ، وقبض على الصبية .. صرخة ! وهو يترنح رافعاً أصبعه الوسطى من اليد اليمنى فى الهواء ملطخة بالدم .

حينئذ لم تكن الأم آثمة ، فقد تصرفت ببطولة دفعها إليها الحب من أجل ابنتها التعيسة .. ألقت بنفسها على السكران تمزقه بأظفارها وأسنانها . كوحش جريح يائس .

مزيد من الحب .

ومزيد من الضرر أيضاً .

أمّان وميّتان هذه الأيام . إحداهما من ليفورنو ، والأخرى من أنكونا (زوجة الزميل الذى يسكن في محرم بيه) . كارثتان أصابتا الأبناء الذين تحطم آباؤهم حقا ، وهم زملاء لنا في الورشة ، ورغم أنهم من الانقلابيين فإنهم يعيشون حياة العمال الحقيقية .

الأبناء يعانون إخلاص الآباء حتى فى الأفكار الاجتماعية (أن يلبسوا بشكل جيد ، أن يكونوا سادة بأيّة طريقة) لقد ارتموا

فى أحضان حياة ماجنة كلها لعب وفسق . وقد تملكتهم الأمراض . فهم ضعفاء ولذلك فقد تمكن منهم الداء . الآباء وهم عمال أشداء ، يثنون الحديد ، لم يستطيعوا أن يثنوا الأبناء لا بالقدوة ولا بالقوة . والأمهات ضحايا ومتواطئات ، واحدة منهن أصبحت قاتلة الآن ، والأخرى قالت لى اليوم قبل الجنازة ، أمام مقبرة الابن :

« الآن لن ترانى بعد ذلك فى الحانة أشحذ » ... ذكرتنى بامرأة متسولة كانت تدور فى الحانة وعلى رأسها شال أسود ، سحبت طرفًا منه وأمسكته فى يدها اليسرى جهة كتفها القريبة ، كان يغطى جزءاً من وجهها . تحققت وعرفت قصة تلك الأم .. إنها تشحذ دون علم زوجها ، لكى تدبر المال لابنها ليستمر فى الضياع .

والأخرى - الأنكونية - غضبت لرجوع ابنها متأخراً مجهداً (لم تكن هى المرة الأولى التى يحدث فيها هذا) فقفزت تطرق باب الطبيب اليونانى فى المنزل المقابل .

قام الطبيب بلا حماسة . ولما علم بمَ يتعلق الأمر قال وهو مستاء من انزعاجه دون جدوى : « إنها الحالة نفسها ، أعطه ليمونًا دافئًا واجعليه ينام » .

ولكنها أخذت تصرخ بكلمات غير مرتبة . كلمات تحمل الكره ضد الطبيب البرجوازى الذى يمتنع عن إنقاذ ابنها . ودون أن تعقل كلام الطبيب الذى رفض الذهاب لفحص ابنها قائلا : « لا لزوم بالفعل

لحضورى . اذهبى وستجدينه قد تحسن . وإذا لم يتحسن بعد قليل ، خبرينى » أخذت تهذى بكلام غامض .

وعندما عادت إلى البيت لم يكن ابنها قد أفاق . ولذلك تسلحت البائسة بمسدس زوجها ، وعادت إلى الطبيب لتفرغ ما به من طلقات فى جسده وهى تصرخ : « إنه ذنبك أيها الكلب البرجوازى » .

أرجا ليست مجنونة . إنها مجرد أم بما يختلجها من شعور الأم . كانت ترعى ابنها جويدينو بكل الحب ، ذلك الابن الذى أصبح يحتاج إلى كل العناية الآن وقد بلغ الخامسة أو السادسة من عمره ، فهو كالزهرة التى تترعرع داخل « صوبة » مع ضبط مقياس الحرارة والبرد .

أى نوع من اللعب يشعر جويدينو بالإرهاق : الجرى ، أو مجرد صعود الدرج يوهنه . وعندما يرتاح فوق الفراش ويثنى ركبتيه ويضع رأسه بين ساقيه وكأنه كلب صغير . ويظل على هذا الوضع الذى يريحه حتى يغلبه النعاس .

إنه نحيف وشاحب ، يرتجف من لا شىء ، حتى من طرقة قوية للباب . قال الطبيب : « لن يعيش » .

« إن العيب الذى أصاب قلبه يتفاقم مع العمر : إنها معجزة أن يعيش حتى الآن . يجب أن يغذى بالميزان وبالساعة . وبقطارة الدواء والحب الكبير ، لأن أيّة صدمة .. مثل الضيق أو الدلال أو البكاء أو نوبة القىء بسبب الأشياء نفسها التى تنزل معدته دون أن يتقبلها ، يمكن أن تقطع الخيط الذى يربطه بالحياة » .

والأم لا تفقد الصبر ولا الأمل . لقد أصبحت آرجا كالظل منذ أن دخل زوجها بيلادى السجن . ولكنها لا تشكو عندما أذهب لزيارتها لأعطيها بعض الدعم مما جمعناه نحن العمال أصدقاء المساجين .

المنزل كما هو منذ أن رأيته أول مرة عندما كان جويدينو حديث الولادة ، والآن أيضًا آتى إلى هذا المنزل مساء ، مثلما جئت أول مرة مع إدموندو سلودر . قلت فى نفسى عندما سمعت آرجا تذكره : « لو كان إدموندو ما زال هنا ، كم كان سيسعد هذه المرأة التعيسة » . ولكن آرجا لم تكن تسأل عنه لمصلحة معينة ، فهى تسألنى عنه لأنها لم تره معى هذه المرة ، كما كان يفعل عندما كنا نتناقش فى السياسة ونحن نصطحب بيلادى إلى بيته حتى فى ساعة متأخرة من الليل . كانت تخشى أن يكون قد سقط هو الآخر فى يد الشرطة . ولكن عندما علمت أن والده عندما حذره أحد العاملين فى القنصلية ، لأن إدموندو اسمه ضمن الذين اتهموا بالمؤامرة ، لم يُضع الوقت وأسرع بتهريبه على متن إحدى السفن الإنجليزية ، أخذت تضحك فرحًا كما كانت تفعل من قبل .

وعلى الرغم من الحالة التى كانت عليها ، فإن آرجا عندما تضحك تصبح جميلة ومنتعشة . إنها بنت بلد طيبة وغير معقدة . فهى تتعقل الأمور وتتحمل . وهى تشاركنا أفكارنا ، ولكنها لا تبالغ بالمعجزات ، ولا تكن كرهًا للبرجوازية .

« لو أننا ولدنا أغنياء ، من يعلم كيف كان سيصبح حالنا ؟ » .

كنت أخـالفـها وقلت لها : إن إدمونـدو رغم ثـرائـه فـإنه يقـف إلى جانبنا .

« ولكنه عندما سيتجاوز مرحلة الشباب ، وتكون لديه أسرة » .

وهكذا تعلمت من تلك المرأة معنى الاعتدال .

لقد عاشت العديد من العواصف الفوضوية حتى قبل أن تأتى هنا مع بيلادى الذى كان دائم الشجار من أجل الاضرابات . لم يكن السجن بالشـىء الجـديد بالنسـبـة لبيـلادى ، وحكت لى عن هروبه من بيـزا وقـد أوشك أن يسجن بعقوبة أربعة عشر شهراً صدرت ضده غيابيا .

« ولكننـى فى ذلك الوقت لم أكن قـد رزقت بيـجـويدينو ، وكـان باستطاعتى العمل فى انتظار عودة بيلادى إلى البيت .

ذات مـرة تجـرأت قـائلا : « والغـيـرة ألم تكن تكبح جـمـاح بيـلادى ليحيد عن المخاطرة بأن يتركك بمفردك ؟ » .

« على الرغم من علمه بأنه لم تكن هناك خطورة ، فإنه كان يشـعـر بالغيرة . ولكن الشـغف السياسى كان أقوى من أى شىء . فـأنت تراه الآن يخاطر بنفسه رغم أن لديه الآن - بخلافى - جويدينو بحالته هـذه . الآن نترك الغيرة علىَّ فقد أصبحت عجوزاً (وتضحك لمبالغتها فى وصف نفسها بالعجوز) ، ولكن على الأقل من أجل جويدينو ... » .

تضـحك وتخفض عينيها نحـو السوار الذى تدلى إلى مـعـصـمـهـا فى اليد اليسرى التى تستند على ساقيها . إنه سوار بعرض أصبعين مثل شريط من المعدن الأصفر ، ولونه غير مؤكد ، ربما من الذهب الرخيص .

ولكن هذا السوار الذى يلتف حول معصمها العارى كان لافتًا للنظر ، خاصة عندما تتحدث وتصحب الكلام بالإشارة .

« لم يكن السوار من قبل بهذا الاتساع .. عندما كنت أرفعه ما كان ينساب حقيقة » .

وتدير السوار بيدها الأخرى ليلتف صاعداً نحو الساعد .

« قبل ذلك كان قليل الحركة فوق المعصم ، لأن ذراعى كانت ممتلئة .. وأنت أيضًا شاهدتنى وأنا أكثر ازدهاراً مما أنا عليه الآن » .

وتحرك مشبك قفل السوار بأظفارها ، حيث ينفصل من منتصفه لخلعه .

« أترى هنا أثر العضتين ؟ إنها أسنان بيلادى » .

وألمح بين النقوش المحفورة على السوار أثر الأسنان . ثم أضافت آرجا :

« كانت هذه بسبب الغيرة . شاء القدر أن يذهب السوار إلى (مونتى دى بيتا) فى اليوم نفسه الذى أودع فيه بيلادى السجن . قال لى : « أعطنى السوار . وكنت مدركة وخلعته . وانتظرت أن يعود بيلادى بما حصل عليه مع رهن . لم يكن مبلغًا كبيراً ، ولكنه كان كافيًا ، وكنت أتدبر أمرى بالعمل مرة خياطة ، وعملت حتى منجدة : كنت أقبل أى عمل . فى تلك المرة كنت فى بداية حملى بجويدينو . وكانت المرة الأخيرة حيث إنه مرت فترة وجيزة واضطررنا للإبحار بسرعة للمجىء إلى هنا

فى تلك المرة إذن ربحت منذ اليوم الأول . وهكذا فقد احتفظت بالمبلغ ، وأعدته إلى (مونتى) عشية خروج بيلادى من السجن . ولكن بيلادى عندما لمح السوار فى معصمى ، لا أعلم ما الذى أصابه ؟ أخذ يعض فيه بقوة لدرجة أنه ترك هذا الأثر عليه . ثم عرف السبب . مع هذا النوع المتهور تأتى التبريرات فيما بعد . وأحيانًا تأتى بعد فوات الأوان » ، وتستمر قائلة : « ولكن فى هذه المرة لم يكن لبيلادى ذنب فيما حدث . وربما لا أحد من الذين قبض عليهم له أى ذنب . ولكنهم حتى الآن لم يقرروا ما إذا كانوا سيفرجون عنهم أو يحاكمونهم . وبالنسبة لبيلادى إذا صدر ضده حكم فسوف يعنى ترحيله إلى إيطاليا ، ويحملونه فوق العقوبة الأربعة عشر شهرًا التى أشرت إليها من قبل » .

ولكن أرجا كانت تحكى كل ذلك دون أن ترتبك : كانت تتحدث بحساب وبترتيب « من يرتكب ذنبًا لا بد أن يلقى القبض عليه . ولكن من ذا الذى يجب أن يلقى القبض عليه ؟ » .

كانت أرجا تقصد الشخص الذى وضع فى متجر النبيذ الذى يملكه بارينى الصندوق الذى يحتوى على العبوة الناسفة، قال الرجل لبارينى : « من فضلك ضع لى تحت الطاولة هذا الصندوق ، وذلك حتى لا أحمله معى .. فبعد قليل سأمر لآخذه » . بارينى لم يكن يعرف ذلك الرجل ، ورغم ذلك وبدون حتى أن ينظر إلى وجهه أخذ الصندوق من يديه ووضعه على رف تحت الطاولة ، حيث توجد مطبوعات الدعاية ، وحيث يوجد أيضًا الدفتر الذى كان بارينى يسجل فيه أسماء الرفاق المشتركين فى جرائد الحزب ، والذين يستعيرون الكتب .

وسرعان ما اقتحمت الشرطة محـل النبيذ . كان مـن الواضح أن الشرطة تضرب ضربتها المؤكدة . وفتحت الشرطة الصندوق ووجدت بداخله العبوة التى كانت ستستخدم فى الاعتداء على القطار الذى كان سينقل الإمبراطور جوليلمونى إلى القدس .

واستولت الشرطة على السجل المدون به أسماء الرفاق الذين تم إلقاء القبض عليهم جميعًا ، باستثناء إدموندو سلودر الذى استطاع أن يفلت على الباخرة الإنجليزية التى أبحرت بفضل أبيه الثرى وبعلاقاته بذوى النفوذ .

« من يرتكب ذنبًا لا بد أن يلقى القبض عليه » .

كانت أرجا لا تقصد الرجل الذى سلم الصندوق لبارينى فى متجره بقدر ما تقصد ذلك الرجل الذى حرض على القيام بهذه (الخدمة) : أى مدبر الخطة التى كانت بمثابة حجة لإلقاء القبض على الفوضويين الذين رصدتهم سجلات الشرطة كعناصر خطرة من اللاجئين فى مصر الحرة .

من ذا الذى من مصلحته القبض على الفوضويين وكشف النقاب عن محاولة الاعتداء التى وضعت حياة القيصر فى خطر ؟ لا بد أنه شخص يريد أن يتسلق إلى المناصب العليا . وذلك الشخص لن يخرج عن كونه ضمن صفوف شرطة الدولة . وما كانت القنصلية الإيطالية لتقبل على هذا العمل ، حيث إنها كانت تعلم تمامًا أن القيصر غير معرض بأيّة حال من الأحوال لأى خطر من جانب الفوضويين على ذلك

القطار الذى كان سيمر بسلام فوق القضبان دون تهديد القنابل من وراء منازل حى « محرم بك » .

ثم إن قنصل إيطاليا قد أعرب عن استيائه لاضطراره مد يد العون لشرطة الدولة لتسهيل القبض عليهم ، حيث إن الشرطة المحلية ليس لديها الحق قانونًا فى إلقاء القبض على الإيطاليين . أعرب عن سخطه لاكتشافه المؤامرة التى لم يكن يصدقها بالفعل ؛ ولذا فقد بدأ يبحث عن الرجل الذى كان قد سلم الصندوق لبارينى .

قالت آجا بنوع من التفاؤل : « كونه يصدق كلام بارينى فهى علامة طيبة » .

ولكن بارينى ظل هائمًا بين السحب ولم يتعرف على أى شخص من بين الذين عرضوا أمامه .

أجاب قائلا : « لا أستطيع أن أتذكر أى شىء ، لا وجهه ولا ملابسه » ، ثم أضاف « بالنسبة للصوت ، قد يكون هو ... ولكن هذا لا يكفى أبدًا لاتهام رجل قد يكون بريئًا » .

أما القنبلة فقد قامت بكعب دائر على جميع متاجر حِرفىّ الصفيح والحدادين فى بالمدينة .

« هلا صنعت لى عبوة ناسفة شبيهة بهذه ؟ » .

وبعد لف ودوران قال أحد الحرفيين :

« لئن كنت أنا الذى صنعت هذا ... فقد كان ذلك منذ بضعة أشهر » .

وهكذا ألقى القبض على الرجل الذى كان يشك باريني فى أمره وتعرف عليه الحرفى ، وتقبل الحكم الصادر ضده دون أن يشير بيد الاتهام إلى زعمائه ، حيث إن الماكر كان يعلم تمامًا أنه بعد الإدانة سيجدون له الوسيلة التى تخرجه من المأزق فى الخفاء .

عندما عاد بيلادى إلى البيت ، كان جويدينو ما يزال على قيد الحياة ، ولكنه مات بعد مرور عدة أيام .

كان جويدينو قد فارق الحياة دون أن يدرى والداه ، وهو مكوم هذه المرة فوق الفراش وكأنه كلب صيد صغير مرهق . عندما لمست آرجا وجهه الذى استطال من التعب ووجدته مثلجًا ، نادت على بيلادى ليساعدها على جعله يستلقى . ولكنه كان قد تجمد ، وجعله فى وضع النوم معناه تمزيقه . وقررا تركه ليبرد تمامًا رحمة بالميت . ثم ظهرت صعوبة العثور على تابوت مناسب فى السوق . وشاءت الصدفة أن أتواجد فى تلك اللحظة ، وقلت : « يمكن أن يدفن وهو ملفوف فى الملاءة كما يفعل اليهود » .

وشعرت الأم باضطراب رغم إمساكها عن البكاء . عندئذ اتخذ بيلادى قراره الشجاع :

« أعطنى السوار » قال ذلك لزوجته بصوت حاد يشوبه الزيف من جراء تمزقه من الداخل لكونه استقر على ذلك .

خلعت أرجا سوارها ، وأعادت إغلاقه . ثم أعطته لبيلادى وارتمت جالسة على مقعد قريب . ورجانى بيلادى أن أنتظره . وطمأنته بحركة من رأسى . كنت أشعر بنوع من تأنيب الضمير .. فهمت أن بيلادى مفلس ، وما كان باستطاعتى مساعدته .

نهضت أرجا ، ربما لتقوم بعمل شىء يلهيها ، ثم قالت :

« سأذهب لإعداد بعض القهوة » .

قلت : « أنا لا أريد القهوة » ، أجابت بأنها تجهزها لنفسها وأضافت : « أيضاً بيلادى صائم » .

وجاء الطبيب ، وفى أثناء تحريره شهادة الوفاة ، أخذ يصف مرض جويدينو ليسرى عن الأم ولإقناعى ، وكان يتخلل حديثه مصطلحات غامضة بالنسبة لنا ، وكان غموضها يجعل من شرحه قصة لا تعنينا فى شىء .

لم يتأخر بيلادى كثيراً . شاهدناه يأتى من بعيد من خلال الباب الذى ظل مفتوحاً . ومن ورائه عربى يجر عربة عليها ألواح من الخشب .

ساعدت فى تنزيل الألواح ولاحظت أنها من النوع الجيد ودون عقد . قال بيلادى مفسراً : « إنه خشب الشوح من موسكوفيا . وهو آخر ما أنفقه » .

قدمت له أرجا فنجان القهوة الذى أعدته . وشربه بيلادى مرة واحدة . ثم خلع سترته ووضع أحد الألواح على الطاولة الصغيرة التى

جعل منها مسندًا . ثم تناول « عدة الشغل » وبدأ يشكّل اللوح الأول . قام بكشط جميع الألواح بالفأرة من جهة واحدة وقال :

« لن أكشط الصندوق من الخارج ، سأتركه بخشبه الخام وإلا رق الخشب وفسد بسرعة » . ثم أخذ مقياس المتر وذهب إلى الحجرة المجاورة .

وعندما عاد من الحجرة قال وهو يحاول أن يظهر بمظهر الواثق من نفسه : «ثلاثة وثمانون سنتيمترًا تكفى» ، ثم استأنف بعد أن فكر قليلا : « من الأفضل أن نعمل الصندوق مربعًا وننتهى من الأمر » .

عندئذ أعربت أرجا عن رغبتها فى أن يكون الصندوق عميقًا : «أريد أن أضع تحته فراشًا من القطن » .

كنت أمسك بأطراف الألواح الطويلة ، بينما كان بيلادى يقطعها بالمنشار حسب المقاس المراد . قامت أرجا بشق وسادة مستطيلة ، وأخرجت القطن من داخلها ، ثم قامت بتوسيع كيس الوسادة ، وذلك بأن خاطت به قطعة قماش جديدة . ثم أعادت القطن إلى داخل الوسادة ، وجعلت توزعه بانتظام قدر الإمكان كما يفعل المنجد .

هى التى وضعت الفراش فى الصندوق المربع . ولكن عندما رأت بيلادى يحمل الصندوق لينقله إلى الحجرة المجاورة ، بدا أن كل شجاعتها قد تلاشت . ذهبت أنا وراء بيلادى لمساعدته فى رفع جويدينو ووضعه فى الصندوق .

أقبلت أرجا إلى الحجرة بينما كان جويدينو لا يزال متخشبًا بين أيدينا ومعلقًا على طرف الصندوق المسنود على الفراش . وعندما شاهدته يرقد على الفرشة البيضاء ورأت بيلادى يرفع الغطاء الخشبى المجهز به المسامير ، لم تتمالك نفسها وانخرطت فى بكاء خافت تأوهت خلاله بكلمتين أو ثلاث مزقتنى :

« جويدينو ... كم من الآمال ! ... جويدينو » .

وبيلادى أيضًا لا بد أنه تأثر ، حيث كانت المطرقة تخطئ مكان المسامير .

كان الصندوق المكتوب عليه بالقلم الرصاص العريض للنجارين «الجانب الأعلى» يبدو كأنه يحتوى على شىء هش . كنت أنا وبيلادى نجلس فى العربة متقابلين والصندوق مسنود فوق رُكَبنا ، حتى بلغنا المقبرة المدنية . أراد العربى الذى اقترب من العربة لمساعدتنا أن يحمل الصندوق وكأنه أحد الطرود . ولكن بيلادى نادى على حمّال آخر يقف على عتبة المقبرة ، وأمرهما بحمل الصندوق معًا بحيث يكون متوازنًا . ولما وضعا الصندوق على مقعد حجرى فى بداية الممر ، ذهب أحد الحمالين للبحث عن معول ومطرقة وكماشة معتقداً أن عليه نزع غطاء الصندوق لإخراج ما بداخله . ولما منعته من لمس الصندوق سألنى العربى وهو يشر إلى الكتابة التى على الصندوق قائلا :

« أليس هذا هو الجانب الذى يفتح منه ؟ » .

فقلت : « إنه ليس للفتح ، بداخله الطفل » .

عندئذ اعتقد العربى أن تلك الكتابة الإيطالية هى اسم الميت الصغير ، وسأل : « ما اسمه ؟ » .

« أجبت : « جويدينو » .

« ابن من ؟ » .

« ابن بيلادى » .

فكتب بالقلم الرصاص - بلغته - الاسم واسم الأب طبقًا للعرف العربى ، على الصندوق ، فى الوقت نفسه الذى اقترب من الطريق حارس المقبرة . رأى الصندوق المربع ، وعرفت أنه صندوق موتى ، ورفع عينيه فىّ وفى بيلادى ليتحقق ، ربما من ذلك الميت الصغير المدرج بهذه الطريقة الغريبة .

كان مندهشًا ، لكنه التزم أمامنا بالجدية . ثم تنبه إلى أن بيلادى هو القريب الألصق . قرأ أمر الدفن الصادر عن البلدية وقال :

« سأجعلهم يوسعون الحفرة .. دقيقة .. ونحمل الصندوق فورًا » .

أسندنا الصندوق إلى المكتب . وكتب الحارس فى السجل . أشار إلى علامة القبر : البيانات والجنسية ، كما كان يفعل دائمًا . ثم نادى الحفارين لكى يوسعوا الحفرة بشكل مربع ، لأنها كانت قد أعدت سابقًا صغيرة وضيقة من أجل ميت ذى ست سنوات ، كما عرف من مكتب

الوقاية الصحية ، حيث كان يتلقى كل صباح الأخبار فيجهز القبور مسبقًا ، وهى فى الواقع ليست بكثيرة ، بالنسبة لتلك المدافن الأهلية الدولية .

ظل بيلادى جالسًا فى حجرة الإدارة . وذهبت أنا خلف الحارس والحفارين . قال لى الحارس عندما كنا على الطريق : « كنت أعتقد أن فى ذلك الصندوق بعض الآنية الجنائزية للزهور . أو أى شىء يشبه هذا ، زينة زجاجية أو صينية . أو حتى تمثال لجورجى مثل ذلك الذى وصل بالأمس من لوكًا » . فشرحت له سبب أن ،الصندوق له ذلك الشكل غير المألوف فى دفن الموتى . ولكن بما أن الحارس قد نطق لوكا ، فقد ثار تطلعى لأعرف وأسأل بعض الأسئلة .

حينئذ عرض علىّ الحارس التمثال البرونزى الذى أشار إليه فى الممر وهو قائم على قاعدة من الحجر الجيرى .

لكن الشخص الذى تجسد أمامى ، لم يبد أنه يحمل شيئًا من ملامح الوطن ، كما كنت أوعز إلى نفسى دائمًا بالصورة المثالية ، عندما كنت أسمع تسمية أناس من نواحى فرسيليا ولوكا . حتى الغطاء على الرأس ينزل إلى الجبين ، منحدرًا حتى يبدو أنه مربع .

عجوز يابس .. حليق الذقن.. الفم قوى ومغلق .. يميل إلى الصرامة مثلما هو الحال بالنسبة للقائد : جورجى ، وأصله اللوكى منقوش على قاعدة اللوحة .

هــذا اللقاء اللوكى أثار كوامن نفسى . دائمًا يحركنى الحنين ، فى أية سن ، كولد خائف غيور . ودون تمثال يشرفنى ، ربما أدفن هنا ذات يوم أنا أيضًا ، مثل رفيقى هذا ، فى هذا المدفن المجافى للأمل ؟ قفزت أمام تفكيرى المقبرة ذات أشجار السنديان وراء الطريق الحديدى ، حيث لا موتى لى ، ولكن لى الكثير من الذكريات .

وكما يحــدث لى دائمًا ، ها أنــذا أجد نفسى هنــاك (بمجرد أن تسنح المناسبة لكى أرى مرة أخرى أماكن وأشخاصًا بعيدين) .

وأفيق فى لحظة من هذه الأفكار المكتسبة والممتدة فى ضميرى ، وكأنه قناع مزقته لفحات الذكريات وكشف عن طبيعتى الحقيقية .. لكن الحارس بعد أن ابتعد ، عاد أدراجه وواجهنى ، وأشار لى إلى مدفن حديث ، وقال :

« أشياء غريبة حدثت هذا الأسبوع فى المدافن الأهلية .. أنتم بالميت الصغير فى صندوق مربع ، أشبه بالصناديق التى تحتوى على دستة من زجاجات الشمبانيا ... وهنا تحت التراب امرأة تضيق بمدفنها .

لو كانت تعلم تقاليد الدفن الأهلى عندما كانت فى صحتها ، لماتت خوفًا قبل أن تهرم » .

ضحك الحارس وتابع الحكى برغبته قائلا :

« هى يهـــودية ، ذات مـال وفيـر يمكنها أن يـــكون صنـدوقـها من الذهب ، لكنها بدلا من ذلك دفنت فى صندوق حقير من خشب الـحور ، ذلك الذى يستعمله الفقراء .. يشترونه جاهزًا . وبالنسبة للجنازة ، التى كان يمكنها أن تجعلها من الدرجة الأولى حقا - حسب عادات اليهود الوطنيين - بأزواج الجياد ، المقنعة هى أيضًا مثل الرهبان ، ولكنها اضطرت إلى الاكتفاء بحصان حقير غير مزين ... ولكنها على عكس ذلك وصلت إلى هنا تقريبًا سيرًا ، لأن الابن ، سالوموني سلامة ، حملها بنفسه (كما فعلتم أنتم بميتكم الصغير) في عربة حنطور لذلك ظل الصندوق قائمًا مستندًا إلى الكير . ولو عولج فى ذلك الصندوق ثقبان فى موضع العينين لأمكن للمتوفاة من الداخل أن تتأمل منظر الأحياء ، بدلا من التركيز فى اللاشىء فى السماء ، كما يفعل جميع الأموات يظلون ويطونهم إلى الهواء ، فى الصندوق ، فى أثناء الرحلة الأخيرة » .

أزعجنى هذا الاستهزاء بالموتى ، لكنى لم تواتنى الجرأة لأعرب عن ضيقى للحارس المادى النظرة ، حتى لا يَعُدَّنى منافقًا مضطرب الفكر أو خائفًا من الغموض الذى كان يبدو هو واثقًا من إمكان السخرية به .

واصل الحارس كلامه : « سالوموني سلامة ، يهودى فى الخمسين من عمره . غريب التصرفات ... » ، وأكثر من غرابة التصرفات كان سريع الغضب ، ولكن فيما يتعلق بأفكارنا فقد كان بعيدًا عنها تمامًا . على الأقل كتعبير ظاهرى ، حتى هذا الأسبوع ، بل باعتباره يهوديا صالحًا ، كان يمكن أن يقال : إنه حتى بخصوص موت الأم كان مراعيًا

لوصايا الدين اليهودى مراعاة شكلية . وإذن فأيَّة معجزة قدرية تلك التى جعلته فجأة يتصرف بهذا الشكل كمفكر حر ؟

لقد كان دائمًا غريب الأطوار وسريع الغضب .. أكثر ما يميزه أنه يشتط فى الرأى . كان قد اتخذ لنفسه قانون رجل يتعذر احتماله . كان يقيم حياته بنفسه . لكن بقواعد الدين اليهودى وعلى الرغم من انعزاله عن المؤمنين الآخرين ، فإنه كان يُرى ملتزمًا بالقواعد فى الفروض الواجبة . كان يهوديا غنيا وعسيراً فى التعامل ، وكفى ...

لم يكن بخيلا حقا – وكما قلت – ساخطًا مع الجميع فيما عدا الأم فقط ، فبالنسبة لها كان يتزود بكثير من الحب البنوى .

كانت الأم تمارس على ابنها سلطة لا يمكن مناقشتها حتى بالنسبة لسلوكيات الحياة الاجتماعية . كل شىء يخضع هكذا أمام رأى الأم .. وربما يفسر هذا سلوك سالومونى سلامة .

أرادت الأم أن تزوجه – فهو أصغر أبنائها – فى وقت معلوم ، لكنه كان قد أتم الخمسين من العمر . أرادت أن تزوجه طبقًا للعرف فى العائلات . لا بد أن يبعث اليهود بالأبناء إلى إسرائيل ويخلد اسمه . والمتمردون على هذا النظام وعديمو الإنجاب يعدون متطفلين تكرههم إسرائيل .

إذن كان يجب على سالومونى أن يكون أبًا بأى ثمن ، من أجل رغبة الأم فى نظام التقاليد تلك وفقًا لمركزها الاجتماعى .

تحمل بصبر خشونة العروس وإزعاج المدعوين فى أثناء مراسم الفرح . خلَّف الواجب الشاق من أجل إسعاد الأم لسالومونى سلامة كثيرًا من الكبت الذى كسا وجهه بشحوب مرض الصفراء ، فى أثناء شهر العسل . بعد شهر ، عادت الزوجة إلى البيت بالزوج المريض ، وبدا أنها فى قمة التعاسة .

وبالنسبة لسالومونى ، لم يكن يسعد أبدًا .

على العكس من ذلك استقبلتهم الأم بالأمل الذى نعرفه .

لكنها انزعجت حين عرفت أنه ليس هناك خبر جديد .

قالت العروس : « وبعد .. سيكون من الخير ألا يكون هناك أبدًا ذلك الخبر الجديد الذى تسألين عنه » .

وحتى لا يخونها الحظ ، قررت أن تنام فى حجرة منفصلة .

أما بالنسبة للزوج فقد كان الأمر أقل إزعاجًا . وشيئًا فشيئًا أصبحت سعادة سالومونى سعادة حقيقية . لكن مصاب الأم كان قويا لدرجة أنه أمرضها .

فى أثناء فسخ الزواج ومرض الأم (التى لم تعد تشفى من المرض أبدًا) تضاعفت التصرفات الغريبة لسالومونى سلامة . وتضاعفت قسوة طبعه بسبب الألم لمرض الأم الذى لم يكن يترك له راحة ليلا ولا نهارًا .

لم يكن ينام ، كان دائم الثورة . فقط فى البيت كان يمسك عن الصراخ والعنف . كان يذهب من حجرة إلى أخرى على قدميه . ويتحدث بصوت منخفض متظاهراً بالضعف .

كان يقول : « لا أريد الادخار - ويتعجب الخدم ، لأنهم تعودوا الإمساك من صاحبة البيت العجوز التى كانت تدير البيت - إننى غنى بما يكفى حتى أنه يعد ذنبًا .. حرامٌ أن يكون لدىّ ثروة كبيرة ، لى وحدى أنفق منها ، حتى أصل مرحلة الشيخوخة بعد أربعين سنة أخرى لأقصى حد - بناء على إحصاء عمر الأم ذات التسعين عامًا - لا أريد الاقتصاد ، لكننى على الأقل لا أريد أن أرى شيئًا يتلف » .

وحيث إن الطباخ - بعد هذه الاقتراحات من صاحب البيت الذى يحتل الآن مكان الأم - ضاعف النفقات اليومية ، فقد قال سالومونى سلامة : « إذن هل كنا فى الماضى نعانى الجوع دائمًا ؟ » .

فأجاب الطباخ : « الجوع لا ، لكنها كانت تقتصد .. كانت بخيلة » .

شعر بأن هذا الانطباع الصحيح الذى يمس الأم إهانة طبيعية تنفذ إلى داخله وتؤثر فى وجوده . ظل ممتنعًا عن الكلام . أوشك على الجلوس لئلا يسقط على الأرض . وعندما تمالك نفسه مرة أخرى نهض .. سيطر على غضبه بصعوبة من أجل الأم التى لا بد أن تكون قد سمعت الصيحات . تظاهر بالضعف . وقال للطباخ :

« فلنذهب إلى مخزن النبيذ » .

وعندما كانا فى القبو ، أغلق سالومونى سلامة الباب . ثم انهال على الطباخ ضرباً ، وكاد يمزقه تمزيقًا ، ونزع سدادات الزجاجات وأجبره على الشرب – وقد كان محرمًا بالنسبة له – شرب الطباخ العربى خوفًا .

« لن تقول إننى بخيل أنا أيضًا أيها الطباخ القذر » ونزع زجاجة أخرى . عوى الخادم وجذب نفسه من الخوف قائلاً : « لا ! ... لا ! ... » وكله رعب من أن غضب سيده المجنون سيجعله لا يتوقف عن إجباره على الشرب .

« والآن إليك نقوداً من أجل النفقات . ليتك تشترى لحم خنزير من أجل تناول الغداء . ودفعه إلى خارج الباب وتركه يذهب إلى الشارع سكران هكذا » .

ثم أرسل خلفه خادمًا كى يصحبه إلى بيته ، فهو لم يكن يريد أن يراه فى وجهه بعد ذلك ، هذا الطباخ السكران القذر .

لكنه فى الوقت نفسه أدركته الرحمة ، فنادى الخادم وأوصاه أن يقول للطباخ : إنه سوف يتسلم أجره كاملا على عنوان المنزل الذى يسكنه ، فى نهاية كل شهر .

كانت تلك هى الأيام الأخيرة فى حياة الأم .

كانت الأم تقول دائمًا :

« فعل الخير هو فقط الذى يبقى » .

ذلك الصباح ، رددت الأم أكثر من مرة :

« فقط الخير يبقى .. فقط الخير يبقى .. لكن من أجل تبرئة الذمة » قالتها لسالومونى ، كما لو كانت قد فكرت منذ وقت :

« من أجل تبرئة الذمة يا سالومونى يا بنى ، يجب أن تدعو لى الكاهن .. فى الغالب لا يتكلف شيئًا » .

لأن سالومونى لا بد أن يمثل لدى الكاهن الأكبر ، فقد ارتدى الردنجوت ، ولكى يبدو مثل كل الأوروبيين رفع « الطربوش » ووضع على رأسه قبعة بلون الجاكيت . زررها ، ووقف أمام المرآة ، أخذ العصا . حركها فى الهواء بحركته الحازمة . رأى نفسه للحظة يرتدى ثياب العرس . وهو يركز نظره على القرد الذى كان يقلده فى المرآة ملوحًا .

فى البداية ، كان يستشيط غضبًا لتلك الذكرى . لكن فيما بعد ، كانت فكرة وجود الأم فى الحجرة المجاورة تكبح غضبه ، ولكى يتوازن لوى فمه فى إغلاقة باسمة ابتسامة سخرية من نفسه .

ولكن ها هو ذا قد قفز إلى عقله أن تلك القبعة البادية على رأسه . والتى اشتراها بمناسبة العرس ، لم يدفع ثمنها بعد . كيف استطاع أن يغادر المحل دون أن يدفع الثمن ، ذلك الصباح الذى اشتراها فيه من محلات شالون الكبرى فى شارع شريف باشا ؟

وأى عجب سيستولى على الموظفين ؟ وموظف الخزنة تعود منه ألا يبقى ديونًا ، وهو نفسه يشيد بأنه لا يبغى أن تكون له حسابات

جارية مع تجار الجملة ؟ دون أن يضيع وقتًا ، نزل السلالم واتجه إلى محلات شالون ، ليصفى هذه المسألة .

قام سالومونى سلامة بسلوك معيب ، والذى يمكننا أن نتخيله ، فقد اخترق معارض البيع لمحل شالون الكبير وتوقف فجأة أمام النضد ، فى قسم القبعات . لكن الموظف الذى كان يتذكر جيداً أنه باع له القبعة ، شرح أن البضاعة تسلم للعميل بعد أن يتم الدفع فى الخزينة .. وبهذا يمكن أن يكون الخطأ قد حدث من موظف الخزينة الذى حررالإيصال ، بعد أن سجل البضاعة وقبض الثمن .

دب الذعر فى الخزينة المواجهة لقسم القبعات من جراء هذا المنفعل الذى يريد أن يدفع ثمن القبعة بأى شكل من الأشكال . لكن موظف الخزينة قال : « لو تمهلت حضرتك قليلا ، لنظرت فى السجل على الفور ... » ، وهن دارت مناقشة طويلة حول تحديد يوم شراء القبعة . وفى النهاية ، بعد تصفح السجل ورقة ورقة ، فى ذلك التاريخ أسفرت النتيجة أن القبعة دُفِعَ ثمنها وقدره مائة وعشرون قرشًا .

قال موظف الخزينة : « وبعد .. لو لم يكن الدفع قد تم ، لوجدت يومها عند تقفيل الخزينة نقصًا قدره مائة وعشرون قرشًا التى ثبت هنا فى الواقع أنها دفعت » .

لم يستسلم سالومونى سلامة . فهو الآن أكثر ثقة من ذى قبل أنه لم يدفع ... كان يتذكر تفاصيل ذلك الصباح ويدحض بانفعال تأكيدات الموظف والبائع الذى ترك عمله وجاء إلى هنا يحاول تهدئة العميل .

حول الخزينة كان هناك أناس يريدون أن يدفعوا ، ويسحبوا إيصالات مشترياتهم ، وأيضًا على مناضد البيع كان الفضول موزعًا . وسرعان ما تجمع حوله حشد من الناس عند قسم القبعات وكأنه شجار .

عندما فزع المدير من الثورة التي انفجرت فى المحل، أمر باستدعاء اثنين من الحرس . أفسح خطواته ووصل إلى الخزينة ، لكنه لما تعرَّف على السيد سالومونى سلامة أمر صائحًا بعدم استدعاء الحارسين . وفى الوقت نفسه عندما استوضح الأمر واتته الفكرة لكى يقول : «نعم ، نعم ، لقد تذكرت .. ذلك الصباح كانت السيدة المهذبة مع حضرتك » .

وتدخل البائع : « نعم ، نعم ، كانت هى السيدة التى أرادت القبعة بهذا الشكل » ، وارتسمت بسمة على وجوه الجميع .

لخص المدير القضية ، معتقدًا أنه وجد السبيل لتهدئته قائلا :

« إنها هى السيدة المهذبة ، التى دفعت ... وحضرتك يا سيد سالومونى لست مدينًا لخزينتنا بشىء » .

وبدا للمدير أن الأمر لم يكن ليحل بشكل أفضل من هذا . لكن سالومونى بدلا من أن يهدأ ، أوشك على الصراخ بأنه ليس هو بالرجل الذى تنفق عليه النساء ، وزاد غضبه أنه رأى الابتسامة قد اتضحت على وجوه المتفرجين ، من أجل هذه الزوبعة فى فنجان الماء . وألقى بالقبعة

فى وجه المدير ، وحافظة النقوط على نضد موظف الخزينة ، وأتى بحركة من يبحث بيده اليمنى عن شىء كان يعرف أنه فى يده اليسرى . وبدا عليه الارتباك من جديد لأنه لم يستطع أن ينفس عن غضبه كما كان يريد ، فخرج مسرعًا من محالٍّ شالون إلى شارع شريف باشا . وتولاه غضب لم يحدث له أبدًا ، عبر الشارع ليتجه إلى الكاهن .

لكنه اضطر أن يتوقف فى منتصف الشارع لأن شجارًا اشتعل هناك .. عربجى فى قبضة أحد الجنود . سلبى هو العربجى العربى ، ترك نفسه عرضة لإهانة ممثل النظـــام فى اعتقاده ، فى قانونه لابد أن يفعل ذلك لأنه كان يمثل السلطة . والجندى يضربه دون رحمة بكعب سوطه . تركه المارة وشأنه . ولكن ها هو ذا الإيطالى يقفز فوق الجندى ليمنع ذلك العنف .

بالنسبة لسالومونى سلامة ، كان يبدو هذا الشجار امتدادًا لموضوعه ، فألقى بنفسه هو أيضًا فى وسط الجمع ، محاولا انتزاع مقبض السوط من أيدٍ أربعة كانت تقبض عليه . فى الوقت نفسه ، وصل الحارسان اللذان استدعاهما المدير إلى المكان ، ولأنهما اعتقدا أن ذلك كان سبب استدعائهما العاجل ، فقد سيطرا على المتشاجرين ، واعتقلا الإيطالى .

التقط الحوذى السوط ، وعاود الصعود إلى مكانه قائلا :

« أشكرك يا سيدى » .

ظل سالوموني سلامة لفترة مرتبكًا . وبرؤيته كعب السوط الآن في يد الحوذي ، قفزت إلى تفكيره العصا التي تركها على منضدة قسم القبعات ، في محل شالون .

اخترق الشارع ، لكنه رأى البائع في قسم القبعات على باب محالّ شالون ، يتحرك تجاهه ويقرب له العصا ممسكًا بأقصى طرف ممكن ، مادًا يده ليحتفظ بالمسافة بينهما . حينئذ صعد سالوموني سلامة إلى العربة الحنطور وأمر بالمسير إلى الكاهن .

حدث لي أنا أيضًا ، ذات مرة ، بعد وصولي إلى مصر بقليل أن تدخلت مثل الإيطالي اليوم في حادثة مثل هذه . لم أكن قد شربت من مياه النيل بعد ، فالأجنبي إذا شرب من تلك المياه على ضفاف «المحمودية» سرى فيه بعض الدهاء لكي يستطيع الحياة في الشرق .

رأيت في الشارع الذي أمر منه لأذهب إلى العمل ، العرب يحملون التربة بالمقاطف وبالجرافات الصغيرة من جانب إلى آخر ، وهم في طابور كهيئة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . والملاحظ بالكرباج مستعد لجلد المتأخرين على سيقانهم وعلى أكتافهم العارية ، لو أخذتهم الدعة ، وخص الملاحظ أحدهم وركز عليه ضربات السوط التي كانت تترك علامات بيضاء على أكتاف المسكين الخاضع . اندفعت أنا أيضًا كما اندفع الإيطالي اليوم ، دون تقدير للخطر ، تقدمت للأمام لأحمي الضعيف الذي يضرب دون أقل بادرة أخلاقيه ، لكنني كان يجب

أن أنوق أنا أيضًا وبال تسرعى . وفوق ذلك ضحك العرب عبيد ذلك النظام من سذاجتى .

أما بالنسبة لنا فيهمنا معرفة إيطالى اليوم . الذى تصرف بحكم أنه حديث عهد فى مصر ، وفى كل البلاد التى زارها .

ذلك الرفيق هو بيترو فازاى الفلورنسى ، الذى أطلق سراحه هذا الصباح ، مع الآخرين المتهمين فى المؤامرة المزعومة .

فى منتصف الشارع (هو أول جزء فى الشارع وطئته قدماه فى مصر) أعاده الفعل النبيل إلى السجن .. كما يحدث له دائمًا فى كثير من بلدان العالم ، منذ أربعة عشر عامًا .

بيترو فازاى له من العمر خمسة وثلاثون عامًا . مريض بالسل . تعلّم الطباعة فى السجن . يجمّع الحروف باللغات الأوروبية ، لكن بخصوص الحديث ، فإنه كان يتغنى باللهجة الفلورنسية من سان فرديانو ، كما لو لم يكن قد غادر أبدًا الحى الذى وراء نهر آرنو . وعلى العكس من ذلك فإنه غير مستقر . لا يمكث سنة فى أى مكان . عرف الفوضويين من كل أوروبا ومن كل مكان يوجدون فيه . ويؤمن أن المسجونين أيديهم نقية من الدم . وليس لهم ذنب حقيقى سوى الأفكار . وقد تحسنت صحته الآن بمصر :

« عزيزى بارينى ، أخيرًا استطعت أن أحصل على جواز السفر . أبحر يوم ٧ على الباخرة أندريا شينييه (اسم نو ذكرى طيبة ..

فصاحبه مات على المشنقة) . فأرسل لى الأصدقاء ليأخذونى عند الوصول » .

وعندما وصلت الباخرة إلى المرفأ ، صعد « الأصدقاء » قائلين : « نحن موفدون من قبل بارينى » عانقهم مخلصاً وسأل عن الرفاق .. عن بيلادى وعن تشينى وعن تيزى وعن كثيرين . حزن إذ لم يعد بعض منهم فى مصر .

« أحقا يوجد هنا الكثير من الحرية ؟ » أجاب الأصدقاء بشرود : «حقًا» ؛ لأنهم كانوا يستعجلون شكليات الجمرك . هم الذين أرادوا أن يتموا كل شىء . فكروا فى كل شىء : الشيالين .. الجمرك .. الحقائب .. أجروا العربة الحنطور ذات الحصانين ، فالمسافة من الجمرك إلى السجون طويلة إلى حد ما .

وعندما توقفت العربة ، وانتبه هو إلى ذلك ، كانت الإهانة كبيرة لدرجة أنه ثار قائلا : « قدَر » ، بينما قرأ عليه أحد الرفاق الزائفين أمر القبض عليه بخصوص المؤامرة التى لا يعرف عنها شيئًا .

ودار بفكره بمجرد أن دخل حجرة الإجراءات : « العالم كله بلد واحد ، هنا أيضاً سيفعلون هكذا » .. استوى جالساً على النضد ونزع أربطة الأحذية ، حيث إنها غير مطلوبة . أزاح الشال الأسود الذى عقده حول رقبته على طريقة الثوار ، وانتظر .

لم يكن يحمل سلاحًا . وفى كيس النقود بعض العملات الفرنسية . لكن مفاجأة كانت تنتظره بعد ذلك ملأته مرحًا ، لدرجة أنه اعتقد أنها سخرية أصدقائه . أغلق السجان سور الزنزانة وراء كتفيه .

حل بيترو فازاى السجن مرات أخرى فى صحبة أجانب معروفين خارجين عن القانون . ودائمًا ينشأ قليل من الاختلاف والاضطراب فى البداية ، إلى أن يتغلبوا على مشكلة اللغة ليصبحوا جميعًا سجناء للسبب نفسه وهو ظلم البرجوازية .

عندما جاء من الفناء الطلق ، كان ما لمحه بيترو فازاى فى الحجرة الكبيرة (الزنزانة) عبارة عن ظلال . والمحتجزون كثيرون ، ثم تكيفت عيناه مع المكان . لكن الآخرين هم الذين تعرفوا عليه أولا وصاح أحدهم :

« إنه فازاى » ! وفى لحظة التف الزملاء المسجونون فى فرح حول الرفيق الذى وصل إلى هنا بمعجزة .

اشتد اللغط واختلط ، لأن الإيطاليين يتحدثون معًا دائمًا فى نفس واحد وبصوت مرتفع ، لدرجة جعلت السجانين يشكون فى أن تكون فرحة الفوضويين تمردًا مفاجئًا .

لما كان الأمر يتعلق بشخص ذى مكانة، لم يتردد الكاهن واستجاب على الفور . أرسل سالومونى سلامة ليحضر عربة بمكانين . ثم صعد على يسار الكاهن ، وعلى طول الطريق كان يجيب عن أسئلته المملة بأقل ما يمكن من كلمات .

تخير سالوموني لنفسه أن يظل ساكنًا ، أو أن يتكلم قليلا بصوت منخفض ، ومن أجل هذا كان يتجنب التزام الشغف بالمحادثة ، مهما كان الحوار بريئًا فلا أحد يعلم أبدًا إلى أين يؤدى .

كان يفكر فى الأم . وهو محبوس فى تلك العربة ، ولأنها كانت تقفز على لولب المقعد ، فإن سير العربة وركض الحصان كانا يحدثان صخبًا فى أذنيه كما لو كان فى المنزل ، بالقرب من حجرة المريضة التى يمكنه سماعها .

عندما وصلا إلى المنزل ، ودخل الكاهن الأكبر إلى حجرة الأم ، انسحب سالوموني سلامة .

لف الكاهن المقبض ليتأكد أن الباب مغلق جيدًا . لكن العجوز احتجت على الفور ، بعد أن نهضت لتجلس على الفراش ، ورأت ابنها يبتعد وراء حركة الكاهن .

قالت : « لا بد أن تكون حاضرًا يا سالوموني ، ليس لدى أسرار لأتركها ولا لأحملها معى » ، وأضافت بينما كان الكاهن يستقر على المقعد إلى جانب الفراش :

« لا بد أن تكون حاضرًا .. حيث إن الأشياء التى ستذكر لن تكون أبدًا صحيحة ، حتى إذا كان من ينطق بها هو الكاهن المقدس » .

اتخذ سالوموني سلامة مكانه فى مواجهة الكاهن .. عن يمين الأم . وبدأت المحادثة ، وكانت طويلة تدور حول مسائل الإيمان .

لم يخرج سالوموني سلامة من أحاديث الكاهن بشيء جديد ، فقد كان يعرفها من قبل ، كان يفكر وهو يسمع « الكاهن الأكبر يقول أشياء كالتي يقولها الكاهن الأصغر ، لا أكثر ولا أقل . ففي أي شيء إذنّ يكمن كِبَر الكاهن الأكبر ؟ » .

لكن كلمات الكاهن بدأت تطلب بطريقة غير مباشرة - حتى لا تبدو وعظية - وجهة الخير العملي الذي يجب أن يوزع في الأرض خاصة وأن ابنة هارون الصالحة تستعد لمغادرة الدنيا .

وهنا جعل الكاهن يتخفى وراء شعور مستتر ، اتضح بعد ذلك ، أنه كان مناسبًا تثبيت جزء من الثروة لكي تخصص بعد ذلك بالتساوي للفقراء بوجه عام ، وللمدرسة ، وللمستشفى ، وللمعبد .

من وجهة نظر الكاهن الأكبر يخصص قسم من المال لكل منها حسب احتياجاته الحالية .

وبهذا تكرم ذكرى المتبرعة على لوحات الشرف التي كانت على جدران مختلف المؤسسات الخيرية .

كانت العجوز صامتة ، مما أوقع الكاهن في حيرة . قال :

« ربما يكون ما أشرت عليك به من عمل كنتِ قد فكرت فيه ، أو عملتِه بنفسك ، هل كتبتِ وصية ما ؟ » .

أجابت العجوز : « لا » وبدرت منها حركة كمن يريد أن يقول شيئًا آخر ، لكنها أمسكت .

قدر الكاهن لتلك الحركة معنى لم يكن لها ، فاقترب من المريضة وسألها بصوت منخفض :

« إذا كنت تريدين الآن أن تبقى وحيدة .. لكى تقترحى سراً ، عملا بنصيحتى ... أو أن تكونى بحرية أكثر ... » ، ثم تحول إلى سالومونى بتحكم .. لكن سالومونى لم يتحرك من جلسته .

واصل الكاهن : الخير العملى ، هو العمل الأكثر قبولا فى الملأ الأعلى ، لأنه يرفع فى الحال الاحتياجات العاجلة للغير .

أجابت العجوز : « نعم ... نعم ... قل له : أنت يا سالومونى كم مرة سمعتنى أردد : فقط الخير يدوم ؟ » .

حينئذ امتدحها الكاهن :

« كنت أعرف أنك لن تنسى الفقراء . لكن إذا كان تنظيم الأهداف بدقة كبيرة يتعبك فى هذه اللحظة ، فإنه يمكننى أن أعود غداً » .

أجابت العجوز : « لن أسبب لك قلقًا من هذا النوع ، حتى لو استطعت فلن أسببه لك ، لكى لا ألحق الضرر بسالومونى ، أنا دعوتك كاهنًا – لأعرف أشياء عن الإله ، لا محامياً يوقع العقود عن الخبز والثروة .

« إعطاء الفقراء يكون فى كل الأيام . أعرف هذا منذ أن كنت أدير الأعمال ، ليس فقط أعمال البيت . ولكن منذ أن ضعفت اضطررت – حتى أستمر – أن أحيا فى نزل ، لا يحتاج عقلى الضعيف فيه أن

يعطى إرشادات وقليـــل مـن الأوامـــر ، إن سـالومونى خلفى ، ولابد أن يحملنى فى دمه . والكلمات المتأخرة لا بد أن تكون عديمة الفائدة . وعندما أقول أنا : « الخير هو ذلك الذى يحسب » فإنى أقولها لنفسى وأنا فى شك من أن أكون قد أتيت منها القليل . وعندما أقول : « أفضل الخير أن ينتقل من يدين كلتيهما يمنى : واحدة تعطى وواحدة تأخذ » أقولها مستخسرة أن يودع معظم الخير فى أيدى الآخـــرين ، معلنـة أن العمل الطائش ربما يحول مسار جزء كبير من النفع .

« إعطاء الفقراء شىء يتم فى كل الأيام ، وعمله يتوقف على من يدير الثروة . لكن المـوت يحدث مرة واحدة حتى بالنسبة لمن بلغ أرذل العمر » .

« إن تكريم الجسد المتعب للموتى بكتابات على الرخام فى أبهة وزينة ، ليس تكريماً إنما هو تجريح لذكراهم » .

فقال الكاهن الأكبر وهو يغادر المنزل فى ذلك الصباح ، وهو مضطرب قليلا من أحاديث هذا البيت ونظمه : « على أيَّة حال سأعود» . لكن على الرغم من أن العجوز امتد عمرها بضعة أسابيع أخرى ، فإن الكاهن الأكبر لم يعد .

بعد موت الأم . كان ما فكر فيه سالومونى سلامة هو الذهاب إلى الكاهن ، من أجل الجنازة . لكنه عندما تذكر أن الكاهن الأكبر لم يأتِ ، قال للخادم الذى كان يصاحبه : « حقا ، الكاهن الأكبر نقض كلمته مع أمى ، لكن اليوم وقت هذه الموضوعات » .

صعد مع الخادم سلم مقر الكاهن الأكبر وسأل عنه . قالوا : إنه غائب ، بعد أن عرفوا بمَ وبمن يتعلق الأمر . لكن طريقة الكلام كشفت الكذبة .

قال السكرتير : «على أية حال هذه إجراءات أقوم بها عادة بنفسي» وبالطبع سأله .. إن كانت الجنازة ستنتظم من الدرجة الأولى . وعندما تلقى الإجابة المؤكدة أعلن الحكم بقيمة مالية مرتفعة .

أمر سالوموني الخادم : « اكتب يا سعيد » ، وسعيد الخادم يكتب فى مفكرة .

واصل السكرتير : « يضاف إلى هذا الرقم تشريفة الكاهن الأكبر ، إذا قررتم أن يحضر الجنازة . بالنسبة للكاهن ، هو لن يأخذ شيئًا ... إنما الأسر العديد » وغمز « فى مثل هذه الظروف يُمنحون أيضًا ... » ، وقال رقمًا ضخمًا هو الآخر . لكنه بعد ذلك عاود التساؤل بخضوع : «يمكنه أيضًا أن يكون أقل ... إنه عمل اختيارى » ألقى هذه الكلمات على سمع سالومونى سلامة وأخذ يقول : « وإذا لم ترض عن ذلك ، وأردت كاهنًا فرعيًا ، فإن الرقم يكون ... » .

« اكتب يا سعيد ، الرقم الأول » .

وهنا تأتى قائمة الأشياء الأخرى .

« اكتب يا سعيد » :

« رسوم وضرائب متنوعة . دون استثناء دائمًا » .

« اكتب يا سعيد . اكتب يا سعيد . اكتب يا سعيد » .

ثم سأل السكرتير :

« هل سبق أن ذهبت إلى مكتب الدفن للاتفاق ؟ فى أيَّة ساعة سيكون التشييع ؟ » .

أجاب سالومونى : « لا ، لم أتفق بعد » .

فأجاب الآخر بشىء من الحيوية :

« ولكننى لا بد أن أعرف ذلك فى الوقت المناسب ، حتى لا يرتبط الكاهن الأكبر بمواعيد أخرى » .

فأجاب سالومونى : « ولكن أليس الوقت فى يد اللَّه ؟ » ونزل السلم وانتقل إلى مكتب الجنازات .

وجد هناك صناديق موتى تتكلف ثمانين ومائة جنيه .. بمقابض نحاسية . وأعلاها نجمة إسرائيل السداسية ، وهى أيضًا مذهبة .

« اكتب يا سعيد » :

أما العربة فهى فنية .. يشهد على ذلك الحفر الفنى على الأبنوس .. عملاق رائع . تجرها على الأقل أربعة خيول ، لأنها لو كانت أقل من أربعة لما استطاعت أن تجر العربة .

« اكتب يا سعيد » :

وعربات حنطور مغلقة، للمشيعين ، سنحتاج منها عشرة على الأقل .

« اكتب يا سعيد » :

والسائقون فى المقدمة ، يزفون الموكب ...

« اكتب يا سعيد » :

« هل قمت بعمل نعى مطبوع ؟ إعلانات فى الجرائد ؟ منشورات حائطية » .

« لا . تقريباً ، كم تتكلف ؟ اكتب يا سعيد » :

« وباقات الزهور ، لرفارف العربة ؟ » سأل المتعهد .

فخبط سالومونى على رأسه كمن يريد أن يقول : خانتنى الذاكرة :

« لقد نسيت أيضاً الباقات الأربع » .

قال المتعهد كما لو كان سيسدى إليه خدمة :

« يمكننا أن نأتى بها . نحن مشتغلون بهذا » .

ثم سأل : « هل هى امرأة مسنة ؟ » .

« خمسة وتسعون عاماً » .

« هه ! .. هه ! .. أى زهور تريد أن نضع لها ؟ » .

« الصالحة للأكل ! .. يا كلب ! .. » انفجرت الكلمات من فم سالومونى . لكنه ندم بعد ذلك ، فقال : « كنت أكلم الخادم .. هل قلت : أربعة جنيهات للباقة الواحدة ؟ » .

تجرأ المتعهد وقال : « حقا ... أنا ... » لكن سالومونى قاطعه :

« اكتب يا سعيد ، أربعة فى أربعة يساوى ستة عشر » .

ثم توجه بالسؤال إلى المتعهد :

« لا أرى هنا صناديق من الخشب الأبيض، التى هى أكثر شيوعًا . هل تقول : إنها لم تعد تستعمل منذ زمن ؟ أو أن كل الموجودين اليوم لديهم ثمانون جنيهًا ينفقونها لشراء صندوق لموتاهم ؟ » .

أجاب الرجل بكبرياء : « يا سيدى .. ليس لدينا من مثل تلك البضاعة » .

عندما خرج سالومونى والخادم ، قال سعيد لمولاه :

« تلك الصناديق ذات الخشب الأبيض التى سألت عنها هى للفقراء ، وثمنها خمسة وعشرون قرشًا ، فى مستودع البلدية » .

فلنذهب لشراء واحد منها أوسع قليلا .. لا أريد أن تكون أمى غير مرتاحة » .

لم تكن عملية سهلة ، نزول السلم بالصندوق الذى وضع سالومونى أمه فيه ، بكثير من الجهد وبمساعدة الخدم .

وعندما أوقفوا الصندوق مستندًا إلى حديد العربة، توجه سالومونى إلى الخدم قائلا : « لم أعمل قط مثل الآن . فعلت ما فعلته بارتياح من أجل أمى . لكننى فهمت ماذا يعنى التعب طوال الحياة دون أى مبرر

من الحنان » . أمر سعيداً فقط أن يصعد إلى الدرج الصغير بجوار الحوذى :

« هناك سيكون شخص ما لمساعدتنا » . ثم اتخذ سالومونى سلامة مكانه على المقعد الخلفى للعربة . أسند يديه على الصندوق وأصدر الأمر للحوذى أن يبدأ الحصان فى السير .

فى جلسته وكتفاه عكس حركة السير ، كان سالومونى سلامة يرى فى وجهه الناس الذين كانوا يقطعون الشارع فى الاتجاه نفسه ، فقال لنفسه : « لا أحد يلقى التحية ، وهذه أيضًا فائدة كبيرة لمن لديه أدنى رغبة فى تبادل التحيات » .

ظل يفكر : « الناس – بعاداتهم – يفعلون كل شىء ليرهقوا أنفسهم » ، لكنه فى لحظة أزاح يده عن الصندوق رافعًا ذراعيه ليقلبه ، ويغمز به ظهر الحوذى حتى يتوقف .. كان من بين تلك الوجوه واحد ينظر إليه ويضحك .

بادر بيترو فازاى ومد له يده اليمنى قائلا : « أنا أيضًا عرفتك على الفور » لم يكن لديه شىء يفعله فما زال بدون عمل ، يتجول فى المدينة .

وبدعوة سالومونى له إلى الصعود ، اتخذ مكانًا على العربة التى كانت تتحرك ببطء .. شرع بيترو فازاى يحكى عن مغامرته الأخيرة . لكنه كان يشرد بالذاكرة ، ويتحدث أيضًا عن سجون أخرى وبلاد أخرى .

« البوليس هو نفسه فى كل أنحاء العالم . القوانين سنها النظام البرجوازى على الصورة نفسها .. البرجوازية فى هذا البلد أكثر عالمية مما هى لدينا » .

أحاديث جديدة ، بالنسبة لسالومونى ، وحيث إنها كانت ذات طبيعة غير سعيدة ، فقد عدها عبقرية .. » ها هو ذا أخيراً رجل يتكلم بوضوح وربما يتصرف أيضًا كما يتكلم » .

وحين سمعه يتكلم عن البؤس والظلم ، وعن الأنانية والتعصب الجنسى ، فكر سالومونى حذراً :

« ولكن إذا وضعت فى يده - على سبيل المثال - المال الذى خصصته أمى للإحسان ، أفيجود به على المحتاجين دون تفضيل فى الدين حقيقة ، أو يجعل لنفسه نصيب الأسد بعد أن يعطى الفتات لأولئك الذين هم من جنسه أيضًا بالتفاضل . كما يفعلون جميعًا بوجه عام ، بما فيهم الكهنة ؟ » وتذكر أمه على الفور : « الأفضل الخير أن ينتقل من يدين كلتيهما يمنى .. واحدة تعطى وواحدة تأخذ » .

رفع يديه وضرب بهما عدة مرات على وسط الصندوق ، ربما ليفهم أمه : « أترين ؟ لم أنس » .

بعثت تلك الخبطات ضوضاء قوية إلى أذن بيترو الذى كان يسند رأسه إلى جانب الصندوق . فقال ساخراً :

« يبدو أن هذا الصندوق مسكون » ، لكن سلامة لم يضحك على الرغم من الدعابة ، فسأل فازاى :

« هل هو خاص بأحد أقاربه ؟ » .

أجاب سالوموني : « إنها أمي » .

فغمغم فازاى بصوت خفيض : « اعذرني ، أنا متأسف » وبدا حزينًا لهذا الخبر .

قطعوا جزءًا كبيرًا من الشارع في صمت .

انعطفت العربة في الطريق الذى على جانبيه المقابر ، واتجهت إلى البحر . من ذلك الجانب توجد أيضًا أول ضاحية في مقاطعة الإسكندرية .

سأل فازاى : « هل تسكن بعيدًا هكذا ؟ » معتقدًا أن سالوموني يحمل الصندوق إلى البيت .

« أنا أسكن في وسط المدينة » .

حينئذ ظن بيترو فازاى أن بيت الأم كان في الضاحية . أخذ يفكر في طريق العودة إلى المدينة ، وسأل إن كان الترام يمر بالقرب من هنا ؛ لأنه يريد أن يعود أدراجه . لكن سالوموني هدأه قائلا : « لقد وصلنا تقريبًا . هي دقيقة وبعدها أعود لأصحبك . وعند العودة سنجعل الحصان يركض » .

توقفت العربة أمام سور المقبرة اليهودية المغلقة ، نزل الحوذى وسعيد أيضًا .

قال فازاى لنفسه : « الآن فهمت .. الجثة موجودة فعلا فى حجرة الموتى بالمقبرة ، وربما لم يجد هذا الشيطان المسكين طريقة لشراء صندوق مقاسها » . كان سور المقبرة مغلقًا ، كما قلنا . وعلى الرغم من أن سعيدًا ألقى حصاة على الحديد حتى يسمع الصوت ، فلم يأت أحد ليفتح . أخيرًا ظهر ولد يأمرهم بالكف عن إحداث الضوضاء . لكنه عندما رأى كل ذلك العدد من الناس خلف السور ، جرى ليدعو والده الحارس .

قال الحارس لسالومونى الذى كان يتظاهر بفتح البوابة : « إنى أعجب يا سيدى ، فاليوم السبت » .

قال سالومونى : « إن الموت يحدث أيضًا يوم السبت » ووضع تصريح مكتب الصحة بالدفن من خلال فتحات البوابة .

أجاب الحارس ببطء : « إنك لا يمكن أن تكون يهوديا ، إن يوم السبت لا تقام فيه جنازات ، ولا يدفن موتى » .

حينئذ بدأ سالومونى يفقد صبره. كان يكبح بالكاد جماح نفسه ... ورفع صوته :

« لكنى معى تصريح البلدية . أى حكايات هذه ؟ أى يهود وغير يهود . لقد عدلت عن إقامة الجنازة ، هذا هو كل شىء .

« ربما أكون قد أخطأت معك فى شىء ؟ إن من حقى ، نعم أو لا ، أن أعمل على نقل موتاى كما يبدو لى ؟

« لقد تصرفت هكذا ، ولا أستطيع الآن أن أترك أمي هنا على العربة ، بحجة يوم السبت . على كل حال افتح ودع رجالك يساعدوني في رفع الصندوق » .

أجاب الحارس مندهشًا من قول سالوموني : « رجال ؟ رجال ؟ ولكن ألم أقل : إن يوم السبت ؟ حقًا أنت لا يمكن أن تكون يهوديا . كيف أستطيع أن يكون لدى رجال ليتعبوا اليوم ؟

بالتأكيد يا سيدى لقد أخطأت .. لا بد أن الأمر يتعلق بمقبرة أخرى .. هذه - كما قلت لك - هى مقبرة اليهود » .

صاح سالوموني بقوة : « أنا سالوموني سلامة ، وتريد ألا أعرف هذا ؟ » .

حينئذ قال الحارس بصوت عظيم : « سترى أن الجنازة ستكون فى الغد ، لأننا كما تعلم تأتينا الإخطارات من الكاهن بأن يعمل رجال الحفر فى اليوم السابق .. وبالنسبة للمختصين بتغسيل الجثمان . ولم نتلق أى إخطار حتى الآن ، ولا حتى بالنسبة لصباح الغد .. ربما تكون جنازتك يا سيدى قد تقرر موعدها بعد الظهر » .

من أجل الحظ كانت البوابة مغلقة ، هناك مانع . أمسك سالوموني بالحديد ورجه .

« عن أى مغسل تتكلم ؟ » .

« أمى ليست بحاجة لأى غسل » .

« وعن أى ظهر تتحدث ؟ » .

« الجنازة أقمتها وحدى .. وهؤلاء هم الموكب » . وأشار إلى فازاى وسعيد والحوذى .

أولى بك أن تفتح البوابة ، وفوراً ، وتجعلنى فى الوقت نفسه أحمل الجثة إلى حجرة الموتى .. ثم نتحدث ونجمل الحسابات .

هبط ذلك الكلام من السماء .. حينئذ فهم جيداً .. هل توجد جثة الأم فى ذلك الصندوق المنتصب على حديد العربة ؟

ولست أقول عن فازاى : كيف كان وقع الكلام عليه ، فقد فهم الآن كل شيء ولم يكن يعرف كيف يتصرف . سكت الحارس قليلا ثم قال :

« سيدى ، لا أستطيع أن أتسلم جثة يوم السبت ، وبهذه الطريقة » ابتعد عن البوابة خوفًا تقريباً .

هدأ سالومونى سلامة مستسلمًا : « إنه الكاهن الأكبر الذى لعب معى هذه اللعبة » .

وجاء فازاى ليتولى الدفاع عن سالومونى :

« على أية حال ، إنها مجرد جنازة مدنية » .

فأجاب الحارس : « إذن فاذهبوا إلى المقابر الأهلية » ، وأشار بسبابة يده اليمنى إلى الطريق الذى يتصل بجانب البحر .

سأل فازاى بعد أن لمعت له فكرة : « هل توجد هنا ، حقيقة ، مدافن أهلية ؟ » وعند حصوله على إجابة بالإيجاب ، قال لسالوموني بخشونة فى شبه أمر :

« من سوء حظ الكاهن الأكبر .. فلنحملها إلى المدافن الأهلية » .

قبل أن ينزل صندوق جويدينو على الحفرة المربعة ، أشعل بيلادى الذى كان يصاحب الصندوق إلى هنا سيجارة ، وقال لى :

« أنتظرك لدى البوابة » .

كانت الحفرة قليلة العمق ، وعندما زادت تلك الكومة اتخذت شكل الأرض المعدة لزراعة حديقة .

غرس الحفار العربى المجرفة فى وسط كومة التراب ، كأنه يجعلها فى متناول يده . خلع « الطربوش » ووضعه فوق يد المجرفة . وشرع فى تجفيف العرق ، مستخدماً طرف « الجلابية » كمنديل .

تحركت وراء الحارس الذى كان قد بلغ الممر .

وانقلبت ثائراً على تلك المراسم .

قال لى الحارس عندما اعتقد أننى أريد تثبيت مكان الحفر فى عقلى :

« إلامَ تنتظر ؟ من السهل العثور على الموقع . الآن نضع عليه لافتة مؤقتة ، وبعد ذلك نضع الشاهد وعليه الرقم والتاريخ .. كما هى على المدافن الأخرى . وبعدها يكفيك أن تذكر إرزشتاين ، وهو فى الحفرة القريبة » .

رددت بعد أن أصابنى ذكر الاسم : « إرزشتاين ؟ ... » .

أكد الحارس : « نعم . نعم .. هو الذى كان فى محاكمة الإيطاليين الاثنين والستين » .

قلت فيما يشبه الهمس : « هل هو أيضًا هنا ؟ والمحامى فولبينى هنا ؟ » .

أجاب الحارس : « لا . ذلك كان من رجال الإكليروس . أُخِذ إلى مقابر القسيسين » .

قلت : « وهذا ألم يكون جاسوسًا ؟ » .

أجاب حارس المقابر الأهلية : « ومن يعرف هذا ؟ .. ومن يعرف هذا ... ؟ » . شعرت بالاندهاش من الإجابة المريبة .

عندما تحولت عن ذلك الجانب رأيت الشفتين البرونزيتين الصارمتين لجورجى اللوكى على القاعدة الحجرية . ويد المجرفة ، التى غرست فوق قبر جويدينو .. والطربوش الزاهى الذى وضعه الحفار العربى فرق تلك المجرفة ، لكى يجفف العرق ، كانت تبدو من هنا وكأنها جذع شجيرة أملس مغطى بالجبس ظهرت على قمته مجموعة من زهور حمراء .

كان بيلادى ينتظر بالخارج ، على بوابة المقابر ، وقد نفد صبره لرغبته فى مغادرة المكان . كان يشعل سيجارة بعد الأخرى ، حتى آخر عقب فى السيجارة .

أخذنا طريق العودة من جانب البحر ، كما نسير بسرعة دون أن يكون لدينا داع للوصول مبكرًا . لم نكن نتكلم ، لأن كُلا منا لديه شيء يفكر فيه .

ربما اعتقد بيلادى - عندما رآنا نمضى صامتين - أن جويدينو هو السبب .

كان يتابع إشعال السجائر واحدة بعد الأخرى ، وفى عصبية ، ابتعد عني بخطوات سريعة ، وكأنه يذهب لحاله .

بعد ذلك تنبهت إلى أننى كنت أريد أن أتأكد من بيلادى ، من الشكوك التى بذرها الآن فى نفسى حارس الموتى الأهليين حول إرزشتاين . لكن بيلادى كان أسوأ مزاجًا من أن يعطينى الشجاعة لأكمله . وفى الوقت نفسه بدأ الندم يتسع فى عقلى : « لو كان إرزشتاين بريئًا ؟ » ودفنه فى المقابر الأهلية جعلنى أفكر فى أنه يعد واحدًا منا .. وقلت فى نفسى : « لأن الإنسان عندما يموت ، لا يعود بحاجة للتظاهر » .

واستمررت أفكر : « وإذا كان خطأ أذاع صيته كجاسوس ؟ » .

عدت بالذاكرة لأراه صغيرًا ، تشوهت كتفاه قليلا . يجلس على طرف المقعد ، بجوار محاميه فولبينى . وجهه لنا : اثنان وستون متهمًا ليجيبوا عن التشهير الذى لحق بسمعته .

وخلف درابزين تلك القاعة الكبيرة التى تقدمت القنصلية الإيطالية بطلب لاستعارتها من المحكمة المختلطة المصرية لإجراء هذه المحاكمة

الكبيرة ، تنساب الجموع من أنحاء العالم ومن أبناء جنسنا ، كلهم ذوو عيون شريرة تتجه بالكراهية إلى الجاسوس .

إرزشتاين من أوديسا ، ممثل لحساب الآخرين ، ويتاجر لنفسه فى الدقيق ، كان يظل فى ميناءنا ، دائمًا فى انتظار البواخر الآتية من الموانئ الروسية . بمجرد أن يرسو قارب روسى ، كان إرزشتاين يصعد على ظهره - وكما كانوا يقولون - سواء أكان على متنها شحنات من الدقيق باسمه أو لم يكن . (من هنا بدأت الشكوك) .

كان من الممكن أن توصف هذه العادة بأنها لوثة بريئة . أو إجراء يتعلق بالتجارة ، إذ إن صعوده فوق كل سفينة بضائع عند وصولها ومعرفة الناس على ظهرها ، يمكن أن تزوده بأخبار فورية عن تجارة منافسيه ، وتقعيد الأسعار طبقًا لتوافر البضائع عند نزولها إلى السوق .

وحتى معرفة إلى من تتجه البضائع ، ومن الذى يرسلها فى حد ذاته شىء مهم لمن يجب أن يظل يقظًا أمام المنافسة . إن مكر التجار المتزاملين وحرصهم على السرية ، يصنع نظامًا غالبًا يؤدى إلى الازدهار .

كان إرزشتاين اجتماعيا بطبعه ، فاكتسب ليس فقط صداقة القباطنة قواد السفن ، وإنما أيضًا البحارة والناس ، وصغار التجار الروس الذين كانوا يتناوبون الرحلة من كل إقليم على ذلك البحر ، فى ميناءنا . كان إرزشتاين يحاول أن يجعل من نفسه نافعًا عن طريق

معرفته باللغة .. يساعد هؤلاء الناس فى تغيير العملة. يعطيهم النصائح، فأصبح يعد بالنسبة لهم مؤشراً كبيراً ، لكونه على علم بعمليات التهريب الحقيقية التى يقومون بها . وعلى وجه الخصوص أولئك الركاب الذين يسافرون سراً ، خاصة فى الآونة الأخيرة بسبب الثورات السياسية فى روسيا ، والذين كثيراً ما كانوا يرسون بأسماء مستعارة ليجدوا ملجأً لهم فى مصر .

هم سياسيون غامروا حتى أصبحوا طلبة السياف ، مثل الثلاثة الذين سنتحدث عنهم .

ونظراً للثقة التى اكتسبها إرزشتاين داخل هذا القطاع ووسط هذه الجالية ، أصبحت حياة الروس فى الإسكندرية بمصر آلياً تحت سيطرة هذا التاجر المزيف .

وكما جاء فى التقرير الذى يشهِّر به ، « بل إنه كان ينظر إليه من جانب معظم أفراد الجالية الروسية المحدودة بالإسكندرية على أنه رجل إحسان » ، لكنهم عدوه بعد كل شىء تاجراً أميناً .

لذلك كانت شهرته تحميه وتجعله فى مأمن من الشبهات .

لذلك كان باستطاعة هذا الجاسوس الداهية أن يتردد على القنصلية على أنه أحد أعضاء الجالية ، وفاعل خير ، ويكون فى الوقت نفسه صديقاً نظيفاً لقنصل القيصر نيقولا .

لهذا – وليس لسبب آخر – كان لوشايته الفضل فى أن حكم على الثلاثة الهاربين الهابطين من الباخرة « سيباستوبولى » بالموت بسبب الأحداث الثورية الأخيرة فى روسيا .

والآن أصبح الأمر يتعلق بكيفية ضبطهم بالشكل القانونى .

يشعر الثلاثة الآن بالأمان .. فى بلد اللجوء .

ويعملون بالفعل .

يقيمون حياة ، وربما شعروا بالسعادة ، بفضل انشغالهم ، لم يكن التاجر المحسن إرزشتاين بمعزل عن هذه الحقيقة .

تعد « الاتفاقيات » التى هى عبارة عن قوانين حماية الأوروبيين فى مصر خدعة هائلة . لقد رأينا هذا عند القبض على « جماعة بارينى » ، فإن قضاء البلد لا يمكن أن يحاكم الأوروبيين ، ولا يمكن أن يقبض عليهم لذنب ارتكب خارج مصر .. اللجوء هنا مقدس للجميع . ولكن إذا ارتكب أوروبى جريمة أو أتى مخالفة سياسية حتى فى حق بلده ، فإن القضاء المحلى – الذى لا يستطيع أن يحاكمه – يقبض عليه ليسلمه إلى قنصل البلد الذى يتبعه ، لكى يطبق عليه إجراءات قانونه .

وقام القنصل باعتقال البؤساء الذين وقعوا فى البداية فى مصيدة الجاسوس إرزشتاين ، تلك المصيدة التى أكملها العملاء المحرضون بعد ذلك ، ثم أرسلهم إلى روسيا ليشنقوا من أجل الحساب القديم الذى تركوه هناك معلقًا .

الدسيسة والمؤشرات والأدلة كانت واضحة فى المذكرة التى كانت تحمل مئات التوقيعات التى تدين الوجه المعذب لإرزشتاين . أى شخص مكانه كان سينهار ويختفى إلى الأبد .. لكن إرزشتاين لم يستسلم .. هتف من قلبه :

« من يستطيع أن يقدم الأدلة ؟ فلنعطهم أيضاً خدعة قوة الأدلة » .

وسيدان القاذفون بصيغة رحبة فى القانون : « بقوة الأدلة » .

وتخير من بين مئات الموقعين جماعة الإيطاليين .. الأكثر عدداً ، كانوا اثنين وستين . وأعلن فى الجرائد الوطنية، وهو متأكد من إدانتنا ، أنه سيقوم بعد ذلك بمقاضاة الآخرين الذين وقعوا على المذكرة فى جماعات ، كل جنسية على حدة . كان يحلم بأن يرسلنا إلى السجن فى قطعان .

الآن يجلس إرزشتاين الحزين إلى جانب مقعد المحامى فولبينى الذى يدافع عنه بالعباءة المبهرجة على جسمه الطويل الضخم .

قال واحد منا : « إنه المحامى فولبينى يرتدى الروب بإحكام ، كما يرتدى الكاردينال طيلسانه بإحكام » وسُمع ضحك من هذا الجانب .

بدا التناقض بين صورة القسيس وبداية الصلع فى منتصف قفاه ، وصورة المحامى فولبينى ذى الشعر الأسود ، عندما أحنى كتفيه وقرب وجهه المزدهر من الأوراق . وجهه حليق متورد . كراهيتنا تحيط بالوجوه

واحـداً فـواحـداً . ولا يدرى أحـد كـيف يكون هـناك تشـابه بين فكرة القسيس والجاسوس ومحاميه .

لم يدم سؤال المتهمين طويلا ، حيث إن جميعهم تقريبًا أكدوا أنهم وقَّعوا على المذكرة بكامل وعيهم .. اثنان فقط كانا غير متأكدين . فقد وقعا ثقة بالأصدقاء دون أن يفهموا حقيقة الأمر . لكن المحامى عندئذ اكتفى بالقول بأنه سيترافع بعد انتهاء الاستجواب . دقيق المحامى فولبينى ، فبعد أن استشار موكله شرع فى مرافعته وهو باسط ذراعيه ، ولم نفهم منها شيئًا نحن محدودى الأفق . لكنها كانت مفاجأة للقضاة والمدافعين . موكله شخص دقيق جدًا . وفى دفاعه عن شرفه لا يعرف ذنبًا ولا يقصد إصابة الأبرياء ، ولا يعممهم بالحكم . كان يمكنه – لو أراد ذلك ، لو سكت ضميره – أن يسحب التهمة على الاثنين والستين جميعًا . لكن بما أن اثنين منهم يمكن أن يكونا ضحيتين لتصريحهما فى وجوب التكفير عن ذنب غير عادل :

« لذا فإن موكلى يسحب الاتهام بالنسبة لهذين الاثنين ويطلب محاكمة الستين الآخرين الذين أقروا بالرغبة فى التشهير به » .

لقد تسرب إلينا نحن أيضًا بعض من الثرثرة المثيرة التى دارت بين محامينا ، بينما كان القضاة فى حجرة المداولة وعادوا يقرءون المادة القانونية على المدونة القضائية ، وذكروا أنه قياسًا على سحب اتهام واحد ، فإن التهمة تسقط بحكم القانون عن الآخرين جميعًا . لكن

نظراً لبعدنا عن إمكانية تقدير أبعاد الطلب الذى تقدم به المحامى فولبينى ، فإننا تقريبًا كنا نخشى مكيدة تقضى بإدانتنا . كنا ننتظر بعصبية . حتى إنه عندما دخلت المحكمة مرة أخرى كان يلف القاعة صمت القبور .

نطق رئيس المحكمة بالحكم قائلا : « بعد الاطلاع على .... ، ونظراً لأن .... ، ونظراً لأن ... إلخ ، حكمت المحكمة ببراءة المتهمين الستين الآخرين أيضًا الذين لم يسحب الطرف المضار التهمة عنهم » .

تظاهر المحامى فولبينى بخروج الأمر من يده . لكن إرزشتاين المذهول حقًا تهالك على المقعد المجاور للمحامى الذى خانه .

تحولت القاعة إلى كرنفال من التعليقات والتهليل .

وبدأت تخلو القاعة .

والمتهم الحقيقى ظل هناك يبدو عليه تعب حقيقى ..... وحيداً ، ولازمت وجهه دائمًا وصمة الجاسوس .

كان العصر قد ولى ، عندما نزلت الحرارة ، الناس تراهم فى المقاهى المفتوحة على ميدان القناصل ، وتهب من البحر ، خلف تمثال محمد على ، نسمة هواء تحمل طعم الغروب .

مصر ليست بلد شجارات وأسلحة ... ظاهرة ، بيضاء أو نارية يحملها الكثيرون ، وخاصة الأتراك والكريتيون ، والمونتينيجريون فى أحزمتهم بنوع من التباهى ، وهى للزينة ، وربما تذكارات لشجار أبناء أوطانهم الأصليين .

الناس هنا لا يطلقون النار ، ولا يطعنون بالسكين إلا ما يحدث نادراً على سبيل الاستثناء ، فإن العرب لا يصل بهم الانفعال أبداً إلى مرحلة استعمال السلاح . وعندما يتشاجرون يمسك أحدهم بخناق خصمه ، أو بحزام القميص ، يصيحون ويثورون إلى أن يتدخل العسكرى ليرد المعتدى عمن يعتقد أنه أحق من صاحبه .

مثل هذا المشهد كان يحدث الآن أمام بوابة أحد القصور في وسط الميدان : عربى ، بربرى اتضح بعد ذلك أنه بواب القصر ، كان يمسك بخناق رجل طويل القامة وصلب العود .. يبلغ ضعف حجم البواب . كان يصيح ثائراً بكلمات غير مفهومة ، باللغة البربرية .

كان الرجل يحاول أن يتحرر من الضغط ، لكنه لم يستخدم قوته ليفعل ذلك ، خطرت لى فكرة أن الأمر يتعلق ببحار إيطالى سكران ، وذلك لشدة الارتباك الظاهر على وجهه .

تقدمت نحوهما . كنت أحاول أن أساعده وأقول : « ما الذى فعله لذلك كله ؟ » أفسح عسكرى المدينة بين الناس الذين كانوا قد تجمعوا ، انتزع الرجل من يدى العربى . فى حين تركه هذا يقبض عليه دون ثورة .

أمًا من جهة البربرى ، فقد هدأ الآن قليلا ، بعد أن أعاد الحق إلى نصابه ، وقال بلغة البلد : « لقد اغتال المحامى فولبينى » .

رفعت عينى إلى بوابة تلك العمارة . فرأيت على الجدار ، بين الأسماء الأخرى للأساتذة ، لوحة المحامى المعدنية .

حالما صعدت المجموعة الأولى من السلالم ، بين الطابق الأرضى ومدخل المكتب ، وجدت المحامى فولبينى مقلوباً على أرضية المكتب ، وبقعة من الدم قد انطبعت على القميص الحريرى بين عنقه وصدره .

والآن ، بعد حين أجد إرزشتاين تحت التراب ، هنا ، إلى جانب جويدينو فى المقبرة الأهلية .. أى انطباع يخالجنى ؟!

وأى ندم وضعته فى قلبى كلمات الشك للرفيق الحارس ؟!

وكيف استحضرت ذاكرتى على الفور دماء اغتيال فولبينى ؟!

الشر يستدعى الشر .

ليست هى المرة الأولى التى أشعر فيها بمذلة الندم .

لكن مسئولية موت إنسان إنما تسبب الفزع أكثر من أى فعل سيئ آخر .. لو كان إرزشتاين بريئًا ، وظلم بتهمة قاتلة ، هل ترانا عذبناه حتى الموت بحبل طويل من التشهير لم يغسله المحامى فولبينى ؟

ها هو ذا فولبينى .. ربما يكون قد دفع ثمن (جهله بالمحاماة أو شره ؟) لكننى أنا ، من سيمن على بالنوم فى هذه الليلة ؟

نهضت من الفراش قبل موعدى المعتاد ، متعبًا مثلما كنت مساء أمس عندما نمت .

قلت بصوت مرتفع – فلم يكن فى الشارع كائن حى – :

« لم أولد لأتحمل فى ضميرى أثقالا كهذه » .

كنت أسير ببطء حتى لا أصل إلى الورشة مبكرًا جدًا .. أحاول أن أطيل المسافة . اكتشفت أننى كنت فى شارع الراهبات متخذًا وجهة الشارع الكبير والذى لم أعبره منذ زمن طويل .. كانت بوابة فندق الأندلس مغلقة .

توقفت ...

كان بى شوق أن أقابل بيبيكو ، قلت : « أى روح طاهر ! » .

تذكرت مخاوفه من أجلى ، وقلت بصوت مرتفع : « هذا الندم لا يخامره » . توقفت أمام بوابة الفندق . لكننى - على العكس - فكرت بعد ذلك فى جورجى وإيانكو ، وقلب ميرى الأسود ، وفى الشاب المنتحر « الكوخ الأحمر » .

سرت مارًا بالحى سيئ السمعة ، هو الآن صامت . هادئ مثل الأحياء الأخرى . كان يبدو واضحًا أنه ينبذ الليل ، بعد أن احتمى بطهارة الصباح .

بعد أن تخلصت من هذه الشعوذة ، عدت أفكر فى جورجى الذى أصبح الآن ، بعد أن عاد من باريس ، أكثر ثقة وأكثر عبثية من ذى قبل ، ربما يضحك من وساوسى مثل جميع من فى منزله من الحكماء والأصدقاء . قلت : « لا الخادمة أمينة ولا أرملة سبيريديونى بإمكانهما الضحك » (استبعدت بانايوتى لأنه فاقد القدرة على الفهم) .

إذن فهذه الأحاسيس .. هذه المخاوف إنما تتعلق حقا بالطبيعة الإنسانية بشكل عام ؟

ذات مرة قال لى ماريجوندا بشمم : « إنسانى ، إنسانى جداً » . إنه كتاب جميل » .

« والوحيد ، لكنك مازلت محتدما كما نعرف » .

هل كنت إذن متخلفًا عن الشعور ؟

هل يعد هذا الشعور حقًّا بمثابة الحكم المسبق ، كالاعتقاد فى السحر ؟

كنت أفكر وأسير دون أن أرى . كل حين كان الصباح ينادينى ، جميلا مثلما كنت أراه وأنا صغير .

لكننى كنت أعود بعد ذلك لئلا أرى شيئًا .. أركز على الضمير المعذب . أساتذة آخرون من المجموعة العلية كما قلت ، كانوا دائمًا يعارضون وساوسى . الآن ماذا بوسعهم أن يشعروا من داخلهم فى هذه الظروف من الشك فى براءة إرزشتاين ، هل انتبهت عقول الأصدقاء ، وفى الحال تمثل لعينى أحد الموقعين (وقد صار متهمًا مثلى فى قضية إرزشتاين) ، هازوبولو ، لأنه عاد فى هذه الأيام من باريس هو أيضًا .

عاد فى صحبة جورجى (الذى دفع عنه أجرة رحلة العودة) . عبثى ، قال لى : إن عليه دينٌ لجورجى . قال : « إنه المدلل فى أسرته » . لكى يستطيع أن يسافر دون قلق .

« ابن البرجوازيين لديه إمكانات ، ويستطيع أن يتظاهر بأنه رفيق لنا فى الأفكار ، واجب عليه أن يفعل شيئًا من أجل زميل فقير .

« إن هذا أقل شىء لديه يفعله لكى يغفر له كونه قد ولد والأموال فى جيبه » .

قلت : « لكن ، إذا قام بواجبه ... » .

أجاب : « لو كانوا يثقون ، فهى علامة على أنه هو ونووه يستطيعون أن يفوا بعهودهم . أيًا كان الدَّين فسوف يدفعه . على كل حال ، فالمال لمن هو فى يده . والشىء نفسه بالنسبة لى . كان أهم شىء أن يكون لى تذكرة فى يدى . لكى أستطيع المجىء إلى هنا دون قلق » .

سألته إن كانت زوجته – التى أعرف أنها معتلة الصدر – قد عانت دوار البحر فى أثناء الرحلة .

« رغبة فى البعد عن المتاعب بالذات ، أتيت بمفردى وكنت متعجلا . ثم إنه بالنسبة لها لم يعد هناك أمل » .

وحكى لى أن زوجته قد ضعفت صحتها ، فى ذلك الوقت المرعب من شتاء باريس الخادع . ولما كانت حالة الالتهاب الرئوى خطيرة ، فربما كان أمامها يوم أو يومان . هكذا قال الطبيب : » ليس أمامنا سوى انتظار المعجزة » .

« لكننى لا أومن بالمعجزات .. هى – على العكس – تريدنى أن آتيها بالقسيس » .

« قلت لها: إنه لا يوجد فى باريس قساوسة أرثوذكس . لكنها أصرت، فهى رأت كنيسة أرثوذكسية . وأشارت إلى الشارع » .

« عندما حضرت صاحبة البيت ، فهمت أننى لم أكن أريد أن أحضر القساوسة » .

« دعتنى فى الممر وأومأت إلىَّ بإشارة تفيد أننى كنت وحشًا ! » .

قالت : « سأتولى أنا ،، سأتولى أنا ... » أن أدعو أنا القساوسة الأرثوذكس . سأدعو لها حتى أتباع الديانة اليابانية ، لو أرادت ذلك . لا يجب ترك امرأة تموت هكذا . سأتكفل أنا ، سأتكفل أنا ... كانت تصيح وهى تبحث عن القبعة والرداء ، فالأمر - من وجهة نظرها - مسألة حياة أو موت .

نزلت سلم البيت غاضبة .

دخلت الحجرة مرة أخرى .

فتحتُ النافذة ... برودة باريس تثير فيك الحنين إلى مصر . رأيت صاحبة البيت تخرج من البوابة إلى الشارع... تصعد فى عربة حنطور . وأشارت للحوذى إلى ذلك الجانب حيث قالت زوجتى : إنه يوجد به كنيسة أرثوذكسية .

لم يعد هناك أمل .

بعد قليل سوف أجد نفسى هنا مع القسيس . ثم الجنازة ... يجب أن تكون جنازة دينية . والمتاعب ... والنفقات . أما بالنسبة للنفقات فكنت سأضطر إلى جمع بعض النقود من الرفاق .

لابد أن تكون زوجتى نائمة .. فعيناها مغلقتان ، وكان يبدو أنها لا تتنفس .

كانت كمن مات . فلم يعد هناك أمل .

تركت باب الحجرة نصف مغلق حتى لا يحدث ضوضاء عند إغلاقه .

وعندما أصبحت فى الشارع ، وعدت أشعر ببرودة الجو ، تذكرت أننى تركت النافذة مفتوحة .

لم تكن بى رغبة فى صعود السلالم مرة أخرى . فلم يكن هناك أمل . ثم قلت لنفسى :

« هى ، التى تعتقد فى الروحانيات ، ستأخذها على محمل طيب عندما ترى النافذة مفتوحة ، ستواتيها فكرة أنها تستطيع أن تطير سريعًا إلى الجنة » .

لم يكن هناك أمل .

كانت هذه الأشياء تعاودنى ، وكنت أقول : « الندم لأننى ربما جعلت حالتها تسوء وتموت بشكل أسرع ؟ » .

« وقسوة قلبى عندما تركتها فى عناية الآخرين ، بين الموت والحياة ؟ » .

الآن فكرت « مؤكد أن هازوبولو وحش ، من وجهة نظرى أنا أيضًا . لديها حقٌ صاحبة البيت الفرنسية .

« إنه وحش مثل زميله اليوناني الآخر : الدكتور سيرافيكوس ، الذي كان في باريس أيضًا ، ويا لبؤس الطبيب عندما يتدنى هكذا بمهنته ، فهو مثل لص الحقائب في المعارض » . أيضًا تذكرت هذا وهو يمشي هكذا منكس الرأس ، قارنًا إياه مع ذكرى باريس ومع صديقه هازوبولو ، الذي كان قد رحل معه منذ عامين . لقد كان مغامرًا أكثر منه طبيبًا ، فأي شيء كان بوسعه أن يفعله الدكتور سيرافيكوس سوى أن يكون طبيبًا مزيفًا ؟ » .

من يمتلك نقودًا ويعالج عنده فهو دون شك لن يشفى أبدًا .

ومن أجل توفير دخل يومي ثابت مثل الموظف (كما أخبرني اليونانيون العائدون من هناك) ، صنع عدوى فرنسية (مرضًا سماه « لويزيتا المرحة») وألصق العدوى في ابن أحد الأثرياء ، تلك العدوى تنتشر ويتفاقم أمرها ، ليزداد المرض اشتعالا ، وإلا يمكنه أن ينطفئ ويشفى الفتى تلقائيا بفعل الطبيعة .

ظل إرزشتاين وفوليبني واليوناني ذوي تأثير عليَّ لفترة طويلة . لكن فيما بعد خفت صوتهم على البعد كما يحدث دائمًا – بسحر الوقت – وبقيت في نفسي ذكرى عزيزة بعض الشيء .

تعرفت بيترو فازاي ، وكنت أتفاهم معه . وفي الوقت نفسه كانت حياته الشريدة المغامرة تمثل بالنسبة لي كنزًا . وبعد ذلك كانت الحكم والأقوال المأثورة التي تصدر من فمه كثيرة مثل : « حتى فيما بيننا

يوجد أوغاد كبار . وكثير من الفوضويين لو كانت لديهم الثروة لأصبحوا أكثر تسلطًا من السادة . فالفوضوية بالنسبة لهم تعد وليدة الحسد .

« الصراع يكون دائمًا بين من يملك ضد من لا يملك » .

« نحن الضحايا الذين ندفع من أجلهم » .

« إن الناس لا تختار من الباقة ، بل تجعل منها حزمة بطريقة هوجاء » .

« كل القمامة لأحد المنازل تذهب فى صندوق القمامة نفسه » .

وحتى إذا سقطت جوهرة ذات مرة على الأرض ، ولم يفطن إليها أحد ، فإنه من الصعب على الخادمة المغرورة أن تبحث فى القمامة عن شىء طيب عساه يكون قد سقط .

« ولكن ليس الجميع من الصاغة . هل تدرون ماذا يفعلون ؟ » قالها فازاى ذات مرة : « الحجرة التى يشكلون فيها الذهب بالمبرد وبالمطرقة ، تكنس باجتهاد . وتوضع تلك الكناسة فى البوتقة بدلا من إيداعها صندوق القمامة ، وتوضع على النار ، وتقوى ، لكى تضفى بعض بريق الذهب من بين تلك الكناسة .

« لكن البرجوازية لا تبالى بالنوايا الطيبة للأفكار . فهى تصنع منا حزمة من الكراهية ، وتصوبها نحونا كحاطب الليل » .

« ومن ناحية أخرى ، ألا نفعل نحن أيضًا مثلهم لمن يظل خارج خندقنا ؟ » .

« إننا نرمى قطيع الذئاب البرجوازيين ، ونصوِّب نحو نظامهم ، أيًا كان الأشخاص الذين يربطهم هذا النظام » .

« ودائمًا القصة نفسها : فمن هنا أتراك ، ومن هناك مسيحيون » .

« لحسن الحظ أصبح الأطراف الآن اثنين : بعد أن كانوا ثلاثة : نبلاء ، ورهبان ، وخدم . وأيضًا حينئذ ، لو كانوا كنسوا إلى ثلاث سلال متفرقة للقممة ، فإنه من الممكن أن تعثر فى كل فئة منهم على بعض الشذرات الذهبية ، ولكن من يدرى بين كم من الأشرار » .

لكن الأخطاء الكبرى تأتى دائمًا من ذلك الجانب الذى يملك فى يده سلطة القانون والسياف فيصنع الأحكام ويقسم الأدوار .

« فى الحرب تطلق النار على العدو سواء كان فردًا أو فى جماعة ، بشرط أن يكون من ذلك اللون . هذا هو السبب فى أن سيرافيكس ، وهازوبولو والصعاليك الآخرين مثلى ومثلك يتيهون بأن لهم قلبًا أقل جفاء » .

« وهذا هو السبب نفسه فى أن سالومونى سلامة برجوازى كالآخرين حتى لو أنفق ماله فى وجوه البِرّ » .

« لأن العالم ليس بحاجة لشفقة السادة ، بل هو محتاج للمساواة الاجتماعية » .

لكن بمناسبة هذا الحكم الخاص بسالومونى سلامة ، كان فازاى يحكى لى عن أعماله الخيرية بتعاطف .. بجدة التفاصيل التى جمعها كصديق .

قال سالومونى سلامة لفازاى فى ذلك اليوم بعد أن دفن أمه فى المقابر الأهلية : « لو تفضلت .. ساعدنى على إحصاء النتائج » ، ثم قاده إلى منزله لتناول الطعام قائلا :

« لأننا لو لم نأكل لمرضنا ، وعانينا ومتنا .. وهذه الأشياء من شأنها أن تتعس أمى » ساعدنى على إحصاء النتائج . نادى سالومونى سعيداً الذى قال : إن الحسابات قد جمعت . لكن سالومونى سلامة لم يكن مقتنعاً بالصواب . قال :

« من الأفضل أن تراجعها عينان أخريان ، أنا لا أريد أن أغبن أحداً شيئًا ومن باب أولى من جهة أمى » .

لكن فازاى شرع فى الضحك عندما وقعت عيناه على مفكرة سعيد ، وقال : « آسف يا سالومونى ، لكن هذه بالعربية ! » فأكد سالومونى : «الأرقام صحيحة فى جميع اللغات . ضعها على هذه الورقة بالرموز الإيطالية . وحسنًا أن تكون صفًا .. الواحد تحت الآخر . ونسمى شيئًا بعد شىء » .

انتزع المفكرة من يد سعيد ، وبدأ يملى على فازاى الذى أخذ يدون على ورقة مقسمة إلى مربعات كان سالومونى قد أعطاه إياها .

« كاهن . جنازة . قسِّيسون . كاهن كبير . عربة كبيرة . باقات زهور متنوعة . صندوق مذهَّب . عربات مفتوحة ومغلقة . إعلانات . رجال مراسم . حفارون » ، وفى نهاية البنود كلها : « مصروفات أخرى .

والإكراميات .. والآن الحاصل » كان سعيد يرتعد خوفًا أن يكون هناك خطأ ، ولكن على العكس جاء الناتج فى صالحه . قال سالومونى :

« ثلاثة أفضل من اثنين . النواتج سأعيد أنا مراجعتها » . راجع بنفسه فى مفكرة سعيد بعد أن سهل عليه مراجعة الحساب بفضل الأرقام العربية . ثم قال – بعد أن اطمأن أن النواتج سليمة – : « يجب أن يكون العطاء بحسب الحاجة لمختلف المؤسسات ، كما يفعل أولئك الذين يفسح لأسمائهم فى الصحف ، فاتفقنا على أن عدد المؤسسات عشرة ، هل تعتقد أن مائة ليرة تكفى لكل مؤسسة منها ؟ » قال فازاى بعد أن دهش لضخامة رقم نواتج القائمة : ولكن أيّة ليرات هى ؟

تعجب سالومونى : « آه ! حسنًا .. نحن فى مصر ، هى جنيهات مصرية تفوق الجنيهات الإسترلينية بخمسة قروش » . خطر لفازاى أن يقول : « إذن فهذا كثير أيضًا » . لكن سالومونى فاجأه :

« كثير ، أبدًا ، ما دام سيذهب حقا إلى الفقراء » ، ثم أمر :

« ضع ألف جنيه تحت حساب الجنازات » .

« والآن لنذهب إلى البنك .. خذ يا سعيد حقيبتين متوسطتى الحجم » .

كان موظف الخزينة يضع على الميزان ثقلا لكل الرصيد : نبتت فكرة فى رأس سالومونى ، فجعل يغير الوزن : « ألف جنيه ، أريدها فى حقيبة مستقلة » .

وتوجه إلى فازاى مؤكداً : تلك هى الحقيبة الخاصة « بالمؤسسات » .

فقال موظف الخزينة بطريقة سيئة ، بينما كان يبحث بين الأوزان عن وزن الألف : « لا تُضع وقتى » ، فقال سالومونى : « لا أريد أن أغضب اليوم . واليوم بالذات لا أحمل معى حتى العصا ؛ لذلك فلا تشغل بالك مؤقتًا . ولتعد الأوزان إلى أماكنها وترد إلىَّ الشيك » .

وبعد أن قال سالومونى هذا اتجه إلى شباك الحسابات الجارية . وتحدث إلى الموظف قائلا : « انظر كم لى من الحساب الجارى . أريد أن آخذه كله » .

كان قد انفعل بشكل ملحوظ ، لدرجة أنه كان يبذل مجهوداً كى يظهر بمظهر الهادئ . كان الموظف يعرفه . فهم أن هناك شيئًا ما ، فبدلا من أن ينظر إلى الحسابات فى الدفاتر ، أخطر رئيس القسم .

لكن الموظف فى شباك الخزينة كان يصب الجنيهات الذهبية فى الحقائب بالمكيال ، كما لو كانت حبوب اللوبيا . ألفٌ فى حقيبة والباقى فى الحقيبة الأخرى ، ناداه ليتسلم . وبدأت تتعالى شكاوى العملاء الذين ينتظرون سحب الأموال .

كان سعيد قريبًا من سيده ؛ لأن فازاى ما زال فى شباك الخزينة ، عندما رأى الشجار ، جرى إلى شباك الحسابات الجارية .

قال رئيس القسم لسالومونى : « لو حضرتك تقدمت بشكوى فإن موظف الخزينة سوف يضار » .

« أنا لا أريد أن أقدم إبلاغات لأحد . لا أريد أن أوذى أحداً ، أريد فقط أن أسحب إيداعاتى من هذا البنك » .

كان يرفع صوته ، ولا ينوى التعقل . اقترب منه فازاى وقال له : «سترى يا سالومونى أن من سيودع السجن هو أنا ، مثل المرة السابقة » .

بهذه الكلمات عاد سالومنى إلى نفسه . تذكر حادثة ذلك الصباح حين رأى فازاى للمرة الأولى ، فهدأت ثورته بالكلية . وتوجه إلى رئيس القسم وقال برقة مفاجئة :

« متأسف للإزعاج الذى سببته لسيادتك ، تصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث . وأرجو أن يتسلم صديقى العزيز بيتر وفازاى حقائبى من الخزينة » . انحنى على الطريقة الشرقية ، وتحرك للخروج ، همس للخادم : « سعيد ، فلنذهب إلى البيت » .

تحرك رئيس قسم الحسابات الجارية من مكتبه . اصطحب فازاى إلى الخزينة ، وحتى لا تثور كلمات أخرى ، سحب حقيبتى النقود من الموظف ، وسأل فازاى إن كان معه دوبارة .

لمح فازاى بشىء من الدهشة : « لماذا الدوبارة ؟ » كانت هى المرة الأولى التى يجد فيها نفسه فى موقف تسلم نقود ذهبية فى حقيبة ، فقال رئيس القسم : « لا شىء على الإطلاق . سنمدكم نحن بها » ، وحين طلب قطعتين من الدوبارة من موظف الخزينة ، ربط هو الحقيبتين وقدمهما إليه من الجانب المربوط ، كان قد ضيق فم الحقيبة إلى الجانب

الممتلئ ، وصنع لهما مقبضًا مريحًا لكي يستطيع حملهما ، كل منهما في يد فتتدليان على الجانبين .

سار فازاى مترنحًا بهاتين الحقيبتين الموزونتين بتلك الطريقة إلى باب البنك ، وخلسة اندس وسط الزحام .

أسرع الخطى آملاً أن يلحق بسالومونى خارج الباب ، أخذ يصطدم بالناس تارة بالحقائب وتارة بذراعيه المتباعدتين ، بسبب الزحام فى تلك الساعة فى الشارع الرئيسى للمحالّ والعمال .

فى لحظة أدرك أن سرعته كانت إزعاجًا حقيقيا .. كان المارة المحيطون به يحيدون عنه وينظرون إليه : « ربما بعين الشك » كما مر بفكره . أبطأ خطاه ، وأصبح الآن منتبهًا ، وسّع ذراعيه ليتجنب أن تصدر الحقائب صوت المعدن النفيس عند ارتطامها بساقيه النحيلتين .

« شيء جميل يظنونى لصًا » كان مرتبكًا كمن يفر فى غنيمة مسروقة . انعطف فى الشارع الجانى ، ليخرج من الزحام ويمضى بسرعة أكبر . لكنه كان يلتفت كل حين ، كما لو أن شرطيًا وراءه موكلا بتعقبه ، فكر فازاى : « ربما تكون هى المرة الأولى التى يحدث لى فيها هذا ، أن أعتقل كلص ، وتذكر فى باريس أنه فى كمين للصوص الذين كانوا يسرقون بنكًا ، قبض عليه مع مواطنين آخرين ، كانوا هناك يستطلعون . ولكن حتى فى ذلك الحين عندما رآه المفتش – ويبدو أنه كان يعرفه – لم يقم باستجوابه .. قال المفتش : « هؤلاء أناس ليست السرقة مهنتهم » ، ثم أطلق سراحه .

كان يفكر وهو يمضى بسرعة أكبر ، أعطى الحق لرجل البوليس الباريسى ولا ، السرقة ليست مهنتى . لكنه كان يعرف الكثير عن الفوضويين ، وكان يؤيدهم ، لأنهم عندما يسرقون البنوك يساعدون رفاقًا مضربين عن العمل ،* أو يعينون من كان يجب أن يهرب للخارج تجنبًا للحبس . أن أحترف السرقة ، لا ، أبدًا ، لأنه إن لم يكن الأمر هكذا ، ففى وسع فازاى أن يبتعد الآن بسرعة بالحقيبتين اللتين تحتويان على ثروة حقيقية ، بدلا من أن يتوجه إلى بيت سالومونى سلامة .

كان سالومونى فى انتظاره على بوابة الشارع .

« حل بى التعب من فكرة صعود السلم . كنت أعرف جيداً أنك ستصل فورًا » .

« لقد جعلتنى أقوم برقصة جميلة بين أولئك الناس فى زحام الشارع الكبير » .

قال سالومونى : « كان يمكنك أن تستقل عربة حنطور » .

« كنت سأشيع حولى جو اللص الذى يهرب بالغنيمة . مرحى ! مرحى ! » صدرت تلك الكلمات عن فازاى تجاه سالومونى وهو يدفع إليه الحقائب « خذ ! خذ ! خذ الثروة وأنا ذاهب من هنا » . تعجب سالومونى : « كيف ؟ هل تريد أن تتركنى وأنا فى أشد الحاجة إليك ؟ وعرّفه بنواياه هناك على بوابة الشارع ، إنه ينوى توزيع تلك الأموال على المحتاجين بدلا من أن تذهب إلى القسيس والتجار » . قال : « أقصد الحقيبة التى أطلقنا عليها (حقيبة الجنازة) . وبالنسبة للحقيبة

الأخرى .. تلك التى تحتوى على الجنيهات المصرية الألف المرصودة لأجل (المؤسسات) ليس لدى صعوبة فى توزيعها بالتناسب على رؤساء (المؤسسات) المختلفة ، أكثر أو أقل إحسانًا . إنما والدتى كانت عدوًا لمرور الخير فى أيدٍ كثيرة » .

صاح فازاى وعانقه بجذل ، جعل القريبين الذين كانوا يعرفون نزوات سالومونى المجنونة يضحكون : « على الرغم من أن شكل الإحسان لم يكن فوضويًا على الإطلاق ! فإن طريقتك تعجبنى ! » .

حتى أن امرأة عربية ، تحمل طفلا على ذراعها ، توقفت فى منتصف الشارع وأخذت تضحك ، لكنها لم ترحل بعد ذلك ، وبدت كمن ينتظر أحدًا ، نظر إليها سالومونى ، وسأل سعيد بعينيه .

قال سعيد : « تنتظر لكى تدق الباب ، عندما تخلو الطريق . لا تعرف أن السيدة قد ماتت . تأتى إلى هنا مرة فى الأسبوع » .

« وكم كانت تعطيها أمى فى كل مرة ؟ » .

« قرشًا وقطعة من الخبز يا سيدى » .

توجه سالومونى إلى فازاى :

« ماذا تقول فيها يا فازاى ، هل نعطيها راتب عام مقدمًا ؟ » .

أشار فازاى : « نعم ونعطيها أيضًا شيئًا ما لملابس الطفل » .

« افتح حقيبة الجنازة ، وشرع فازاى يفتح إحدى الحقائب » . هذه هى حقيبة المؤسسات ، فحتى لا نخطئ مستقبلا سنعلِّمها بشىء : خلع

سالومونى رباط عنقه الأسود وقال : « بهذا سنربط حقيبة (الجنازات) ، وبرباط عنقك الأحمر يا فازاى نربط حقيبة (المؤسسات) » . فك فازاى رباط عنقه الأحمر ، وأعاد ربط الحقيبة التى كانت ما تزال مفتــوحة ، ثم رفع الرباط عن الحقيبة الأخرى .

التقط سعيد رباطى الحقيبتين ، وبعفوية بحث فى جيبه .. « نعم هذا هو ما حدث عندما قدم الحقائب الفارغة لموظف الخزينة ، لم يعطه الدوبارة لربطها، نظر سالومونى إلى قطع الدوبارة الأربع فى يد سعيد ، كانت نظرته مستفهمة دائمًا ؛ ولأن سعيداً أراد أن يتفادى اللوم حيث أخذ أربع قطع بدلا من اثنتين ، أخذ يشرح السبب . عرف هكذا أن موظف الخزينة قد قدم الحبلين لربط الحقائب . وحينئذ قال وهو يوسع فتحة الحقيبة : « هل الاثنان على ما يرام ؟ » .

أجاب سالومونى : « نعم ، لكننى أنا الذى سأضع يدى فى الحقيبة » .

عندما رأته المرأة يقدم إلها الجنيهين المصريين ، ابتعدت ، لأنها اعتقدت أنه يسخر منها ، وحاولت مداراة عُرى الطفل بطرف الجلابية ، وأخذت فى الابتعاد غاضبة . قفز سالومونى هناك غاضباً وقال : « يا له من استقبال جميل ! » .

لكنه بعد ذلك دس الجنيهين فى يد الطفل بطيبة وقال : « سعيد ، اشرح الأمر لهذه المرأة ، ثم اصحبها إلى الفرن اليونانى ، فى ركن الشارع ومر الفرّان أن يعطيهــا خبزًا كل أسبــوع على حسابى » ،

ثم نادى عليه وأضاف : « قبل أن تعود إلى البيت ، مرَّ على البنك وأعد قطعتى الدوبارة إلى موظف الخزينة » .

ابتعد سعيد مع تلك المرأة واتجه إلى ركن الشارع الذى لم يكن بعيداً وحكى لها أن الأمر ربما يتعلق بوصية من السيدة التى ماتت . لهذا الخبر ، شرعت السيدة فى البكاء بقوة ، كما تفعل النائحات خلف الجنازات العربية ، سمع سالومونى البكاء ، فتحول عن ذلك الجانب المقابل ورفع صوته : « لقد تصرفت بطريقة لا تجعلهم يكون بكاء مزيفًا ، ولا تحدث دعاية من هذا النوع .. اجعلها تتوقف يا فازاى ! » .

قال فازاى ناصحًا بانفعال سالومونى نفسه : « دعها تفرج عن نفسها ! » .

فانزعج سالومونى : « هل تعرف أنت سبب بكائها ؟ لا أظن أنها تبكى من أجل أمى ! » .

« وربما أيضاً نعم .. ربما تبكى من أجل أمك ....» .

« وتبكى دون أن آمرها ؟ هل تعتقد أننى دفعت لها لكى تبكى ؟ لا أريد أن أتسبب أنا فى بكاء حقيقى لأحد . هل تفهم ؟ » .

« من يدرى منذ متى وهى تكتم فى قلبها ، بل إنك قد تكون فرّجت عن دموعها المكبوتة دون أن تقصد » .

تتحنح سالومونى .

ظلت الحقيبتان المربوطتان قائمتين على عتبة الباب .

رفع سالومونى الحقيبة ذات الرباط الأسود وتوجه إلى فازاى قائلا :

« هل تعتقد أننا سنسوى الأمور فى يومين ؟ إنه لكابوس أن يكون عليك واجبات دون أن تعرف أصحاب الديون » .

مر فى تلك الأثناء اليهودى العجوز الذى يبيع أوراق اليانصيب . كما يحدث دائمًا فى كل الأيام وفى الساعة نفسها .

ربما أراد أن يصيح كما كان يفعل فى الماضى : « ورق اليانصيب !.. ورق الحظ ...! » ، لكنه لما تمكن منه الكبر بدلا من ذلك خفض صوته ، بحيث لو أراد أن يفاجئ المارة بندائه فلا بد أن يكونوا قريبين . على العكس كان كمن يعزى نفسه بنفسه . ربما يفعلها البائع بخبث ، لربما نفعه هذا الصوت الخافت ، فقد كان يطوئ الشارع متعرجًا من جانب إلى آخر .

فكر سالومونى وهو يراه يقترب : « لم يكن هكذا .. لم يكن هكذا .. عندما كان أكثر شبابًا وحيوية (وتتذكر أنه رآه على هذه الحال) ، وكان بإمكانه أن ينادى على أوراقه من منتصف الشارع إلى المارة البعيدين » .

تحول سالومونى الآن إلى الرجل العجوز : « لكن بالنسبة لك ، ألم تشتر أبدًا الورقة الرابحة ؟ » .

« يا سيد سالوموني ، أنت تعرف أنني أبيع الأوراق » .

« لكنك يمكن أن تحتفظ لنفسك بالورقة الرابحة فقط ، وتستغني عن الباقي » .

كم من المعجزات ، في وقت قصير كهذا !

لأن الحياة عبارة عن جبل ، إذا صعدت على منتصفه وأنت تنظر إلى أسفل فإنك لا تتعرف بسهولة على الوادي إلا من خلال تلك العلامات التي بقيت ونمت في قلبك في أثناء صعودك . ومن يدري بعد ذلك ، كيف ستتغير على خيالات أخرى ، عندما ستصبح على القمة ، وأنت تنظر للأسفل .

ماذا كان يعني فازاي عندما عرض على تروس إحدى الآلات وهي تتحرك قائلا : « هل تتحرك كلها من العجلة نفسها ؟ » وأشار لي كيف أن بعضها يدور جهة اليمين والبعض الآخر جهة اليسار طبقًا للطريقة التي صممت بها العجلات الترسية المسننة للأعلى وللأسفل حول بعضها البعض ، ألا يكفي حينئذ القليل من الجهد لكي تدور العجلة على المحور ؟

ماذا كان يعني أننا جميعًا نتحرك في العجلة نفسها « حتى نحن - الأحياء - ؟ » .

أو يجب أن يكون هكذا ، لو دار كل واحد منا بعيوبه وعاود الدوران تبعًا للصدمات التي يتلقاها . وهذا الدوران - وبفعل الخمول ثم (الطبع والبيئة) - يتوقف بشكل سيئ .

وأنا أنظر إلى الحياة متأملا ، على مسافة من الزمن .. فى أصدقائى كم من الطيبة ألمحها ، حتى فى أسوأ الصدمات التى تأتى من العالم المشئوم !

بقيت لدى ذكرى عن كل منهم .. عن حركة طيبة .. عن فعل طيب .. عن كلمة .. حتى هازوبولو إذ ذهب ذات مرة مع الطبيب « المدعى » سيرافيكوس الذى كان يتظاهر بأنه من حقه أن يرفض - بوصفه طبيباً - سرعة معالجة أحد القساوسة المصابين . وأتى هازوبولو بمقارنات إنسانية من المؤكد أنه ظل يحملها فى داخله .

من يدرى ما إذا كان عند موسافيسى أيضًا ترنيمة رقيقة لذلك المخلوق المختبئ وسط بخله القاسى والذى جعله يحمل لقب « الملك » ؟

أيضًا أتذكر الآن بمناسبة موسافيسى ما حدثنى به فازاى فى ذلك الوقت ، من أن سالومونى سلامة ، عندما اصطدم بمجتمعه الذى فيه أمثال موسافيسى بدأ يدور فى الاتجاه العكسى ، ليبتعد عن طريق البخل .

« كنا بسبيلنا إلى الجنيهات الأخيرة التى بقيت فى قلب الحقيبتين . وكان سالومونى سعيداً بما فعل ، يقول : « عمل معقد » مشيراً إلى العقدتين السوداء والحمراء من أربطة أعناقنا ، والمربوطة الآن فى وسط الحقائب - تلك التى كادت تفرغ الآن - كما قلت - من كل النقود .

بالنسبة للعمل « المعقد » - وبعيداً عن المزاح - كان سالومونى قد عزم أيضًا أن يعد تقسيمًا ، إن لم يكن محكمًا ، فإنه يريح ضميره ..

لم نضع فى حِسابنا كون الآخرين يهوداً أو عرباً أو مسيحيين .. كان المال يذهب مباشرة إلى يد من يبدو لنا محتاجًا . فى بعض الأحيان يبدو هكذا لأعيننا ، دون حتى أن نعرف اسم من نعطيه ، فى ظروف ذات غرابة تقل أو تكثر ، تحدث من كلمة أو من خبر تعلمه مصادفة ، وشيئًا فشيئًا من الأشخاص أنفسهم .

بل إن هذا النظام الفجائى كان هو النظام المفضل لدى سالومونى، لأنه يعطيه الإحساس بالاكتشاف . وبالنسبة للحقيبة ذات الرباط الأسود التى وهب معظمها للإحسان ، كان من السهل التكهن بها . لكن بالنسبة للمبالغ التى فى الحقيبة الأخرى ، كان يجب أن توظف بطريقة مختلفة ما . لتعطى دفعة - وإن تكن صغيرة - للبدايات المحظوظة للحرفيين والباعة المتجولين ، فهى لم تكن بالشىء الهين ، « كشف وغرس جيد » ، كما كان يقول سالومونى ويريد ، كان يسألنى كل حين : « هل سنخطئ هذه المرة ؟ » ، وكنت أجيبه إجابة لا تختلف تقريباً : « دع عنك ما أنفق فى سبيل الخير ، بأية طريقة كانت » .

« حتى لو عرفت أيها تكون الرابحة ، فإنى لن أفعل ، لأن ذلك حينئذ يعد غشًا ، بينما يمكن أن يجعل الحظ الأعمى من أية ورقة تلك الورقة الرابحة » .

قال سالومونى لفازاى : « لكن هل تكون بعد ذلك أمانة كبيرة ؟» .

« هذا العجوز يبدو أن به رغبة لأن يكون صاحب دين علينا » .

ضغط فازاى على كتف سالوموني . فاقترب ولمس مجموعة من الأوراق الخافقة بين يدى العجوز ، وسأل :

« يا سيد سالوموني .. في الصندوق توجد أيضًا كل هذه الأرقام وحضرتك دون أن تعرف التي تفوز ، يمكنك أن تلمسها » .

« إذن أشتريها كلها ! » .

وتوجه إلى فازاى : « ولكن بما أن هذه محاولة مزيفة مصنوعة ، وبها شيء من أعمال المضاربة ، فلكي نرى تغير خط عجوز فقير ، سنعطيه من قلب حقيبة المؤسسات » .

كان فازاى يضحك وهو يتهيأ لفك ربطة العنق الحمراء عن رقبة الحقيبة سأله سالوموني عندما رآه يضحك :

« ألا تعتقد أن هذا عمل طيب ؟ » .

« نعم ، نعم ، فهمت .. أنت تريد أن تمنحه الأوراق . لكن بالنسبة لهذا العجوز ، ربما أراد منا ربحًا حقيقيًا » .

عد العجوز الأوراق ووافاه بالناتج وهو يقدمها إليه . وضع سالوموني يده في الحقيبة . أخذ النقود ودفع . بعد أن أعاد تسليم الأوراق للعجوز قال : « أنا أهديك إياها على أمل أن تكون صاحب حظ » .

« شكرًا يا سيدى ، أحقًا تهديها لى ؟ إنها أول مرة تكون معى أوراق هى ملكى . سأعيش فى حالة من الزهو حتى ساعة السحب . لقد أسعدتنى بآخر هدية يا سيدى ... » .

« إذن ، الجائزة الأخيرة أنا أراهن عليها . عد بعد السحب لتستوفيها منى إذا لم يخرج اسمك من صندوق القرعة » .

قال فازاى : « هكذا أنا أشعر الآن بالسعادة » .

ابتعد العجوز وهو يتعرج فى سيره - كما اعتاد أن يفعل - هنا وهناك من جانب إلى آخر من الرصيف متابعًا الغمغمة (فى هذه المرة فقط قالها من داخل نفسه) .

« أوراق الحظ » .

هذه الذكريات ، يمكن أن تتوقف عند أية نقطة . أو تقفز قفزات كما يبدو أمامك ، ودائمًا سيفهم القارئ فيما بعد من أية التجارب خرجت متفائلا وذا رأى مختلف .

الآن .. أصبح لى زوجة ، وثلاثة من الأبناء .. رتبت ظروفى ، من عامل إلى مشتغل بالصناعة وتاجر ، لم يفتر فىَّ الطموح . فقد انتقلت من الأمية إلى المعرفة ، الآن ... أعرف الحروف .. خلاصة الأمر أنى أقرأ الكتب ولكن بى شوق إلى المزيد .

ويهوذا الذى كان مسيطرًا على روحى حتى ذلك الوقت لاعتبارات مختلفة ، علمنى الآن أن أضيف شكلا ملموسًا للمأساة التى طالما أرهقتنى ، حتى قبل أن أبدأ الإمساك بالقلم . أما الآن فلم تعد ليهوذا السيطرة المطلقة علىَّ كما كانت من قبل ، حيث إن الحجة غالبًا

مـا تتـحـول إلى شـعـر ، حـتى فى مـأسـاة يهـوذا التى سـأظل أدين له بابتكارها انطلاقًا من عنادى ، وهو فى الحقيقة تجديف فاضح .

نحن فى عام ١٩١٤م .

أنا فى الثالثة والثلاثين من عمرى ، الفترة التى كنت أحسب منها تلك السنوات التى تهيأت فيها للتشهير بمشاهد حياتى .

ثلاثة وثلاثون عامًا . قليلة .. لكنها بالنسبة لمن قضاها كلها تقريبًا بين صدأ هذا العام القبيح ...

مع كم إنسان ارتبطت وتحللت من ارتباطى؟ أولئك الذين لهم تاريخ فضل علىّ (جدير بالذكر أن بعضهم قد مضى الآن) .

« بالنسبة لى كانت بداية الإزعاج أن تكون وظيفتى نائب محسن شرفى ، ولم يكن يهمنى كثيراً أن سالومونى يخطئ أحيانًا فى عطائه» . بالنسبة لى عندما تنتهى من إفراغ الحقائب ، احتفظ لى برباط عنق : الأسود أو الأحمر فهما يستويان ، أليسا فوضويين كلاهما ؟ أنا كنت ألمّح إلى الألوان ، لكنَّ مَنْ يدرى ماذا فهم هو ؟ شرع فى البكاء والأنين كطفل : « لكن لماذا وضعوك فى السجن هكذا مرات كثيرة ؟ » .

منذ تلك اللحظة أرادنى أن أضع يدى فى الحقائب وأقسِّم المال .

« وبين رفاقك ، ألا يوجد من هو بحاجة إلى دفعة تعينه على البدء ؟ » .

حينئذ قفز بيلادى إلى ذهنى ، هو الذى قلت : إنه يدين بفكرة «التحرر» ، ولكى أثير مشاعر سالومونى حكيت له عن موت جويدينو . لكن سالومونى أجابنى : « إذا كان قد مات ، فلم تعد به حاجة للمال » .

حينئذ قلت له : إن أباه قد حمله إلى المقبرة على عربة ، فى صندوق حقير من الخشب العادى كما فعلت أنت مع والدتك .

كان الدافع يبدو عظيمًا بمقتضى قانون العطاء من حقيبة «المؤسسات» وإن لم يكن المبلغ كبيراً ، فالذنب يقع على بيلادى الذى عند سؤاله عن القدر الذى يلزمه من أجل « التحرر » .

أجاب : « اثنا عشر جنيهاً » .

آخر إحسان من حقيبة « المؤسسات» كان لرجل ضئيل ذى بشرة حمراء ، ربما أرمنى ، ربما يونانى ، وربما أيضاً من أى جنس آخر .

كان يحمل على عنقه فى صندوق مثل صناديق بائعى الكبريت ، بضائع يبيعها . جلس فوق أحد الحجارة ، عند اقتراب الليل على ممر رصيف الميناء .

كان يعلق الصندوق فى رقبته بواسطة الحزام . وعندما أسنده على ركبتيه أصبح كمكتب للمحاسبة ، ثم أخرج دفتراً صغيراً لمحنا له غلافاً أحمر ، وصفحاته شبه مربعة .

كان الرجل يحصى البضاعة ويسجل .. وفى غمرة اهتمامه بالحسابات لم يفطن إلى أننا كنا هناك نتطلع فى فضول .

قال لى سالومونى وهو سعيد بالاكتشاف : « هذا الرجل لديه حقيقة توجهات واضحة » .

كان يبدو أن الرجل لم ينتبه إلينا . ولكن عندما لمسه سالومونى بالعصا حتى يواجهنا . أجاب :

« كنت أعلم أنكم ترمقوننى . ولكن ألم تفطنوا إلى أن دكانى مغلق ؟ جلست لأسحب الحصيلة من خزينة اليوم » .

« ولكن ألا تريد أن تبيعنى شيئًا أحتاجه هذه الليلة ؟ » كان سالومونى يعتقد أن تلك الإجابة عبارة عن دعابة .

هل يجب على أن أعيد الإحصاء يا سيدى . إنه عمل فوق العادى لم أعمل أبدًا بعد الغروب . سيصبح عليك أن تدفع مائة فيما يستحق واحدًا ، حتى تجعلنى أعمل مرة ثانية .

« إذن فأنا مستعد لهذا . ومستعد أيضًا لأن أعطيك المال دون أن آخذ شيئًا » .

« لا أريد صدقات .. لا أقبل شيئًا فى مقابل لا شىء . فأنا أيضًا سيد من وجهة نظرى .. فى كل الأيام . حسبما أستطيعه من قياس أهدى أجزاء من أتعابى لكهوف البحر » ، همس واستأنف : « لا يجب أن تفعل هذا . ولكن حيث إنى قد قلت كلمة وأنت قبلت العرض . فإنى سأفتح الدكان مرة ثانية » .

« لكن أفعل بسرعة . ليس لدى وقت لأضيعه » .

عندما فرغت الحقيبة من الجنيهات المصرية قال سالومونى :

« ها هى ذى وخذ الحقيبة أيضًا . وأعطنى زوجًا من رباط الأحذية على سبيل المبادلة » .

بعد أن أخذ الرجل الحقيبة فحصها جيدًا وأجاب :

« أنت تستغل صبرى ، وكفى رباط واحد فى مقابل هذه الحقيبة » وقدمه له ، أعاد وضع الجنيهات فى الحقيبة ودون أن ينظر إلينا بعد ذلك عاد إلى جرد البضائع » سحب الحصيلة على الدفتر . فحص الجنيهات التى كانت فى جيبه الأيمن . وأجرى عملية طرح فى الدفتر ، رفع من الكومة حصيلة معينة مرت هذه المرة إلى جيبه الأيسر ، كل الجنيهات الأخرى ألقاها فى فوضى فى الحقيبة مع الجنيهات المصرية وأخذ يربطها .

عند هذه النقطة تذكر سالومونى وشاحى الأحمر . وأراد أن يسترده ، لكن الرجل رفض أن يعطيه إياه حتى بعد أن عرض عليه سالومونى أن يعيد شراءه .

« دكانى مغلق . ولن أبيع اليوم أو أقايض » .

نهض وابتعد دون أن يحيينا .

قال سالومونى : « إنه شخصية غريبة .. شخصية .. إنه رجل أعمال » كررها سالومونى فخورًا باكتشافه .

« هل رأيت يا فازاى ، بأى دهاء أخذ منى مائة لما يساوى واحداً ؟ » .

أجبت : « على العكس ، يبدو بالنسبة لى أنه جنون » .

كان سالومونى متحمساً ويريد أن يقنعنى بالنقيض .

قال : « إنه رجل غير عادى . أنا أتطلع لأن أعرف أين يعيش » .

وهكذا ونحن نتحدث ذهبنا خلف ذلك الرجل الذى تسلق الصخور التى تصد الأمواج على رصيف الميناء بعد أن غادر الشارع فجأة .

لكننا توقفنا على جانب حتى لا يرانا ، بعفوية دون أن نتبادل المشورة ، لأنه لم يكن هناك وقت لذلك ، فالرجل كان يمشى على الحاجز الصخرى بسرعة كبيرة . وعندما وصل حيث الموج يضرب ، رأيناه يطوح ذراعه فى الهواء ويلقى بالحقيبة فعلا فى البحر . كانت هى الحقيبة حقا ، لأننا رأينا لون وشاحى الأحمر كسهم نارى .

ابتعد الرجل بعد أن عاد إلى الشارع .

ربما أراد سالومونى أن يستوقفه ليعرف سبب تلك الحركة الحمقاء ، لكن مفاجأة أخرى أوقفتنا على الفور فى أماكننا كملاحظين : ظهر عربى من خلف الحاجز الصخرى ونزع فى عجلة وتلهوج جلبابه وغطس فى البحر ، فقد كان من الواضح أنه يريد التقاط الحقيبة . حينئذ اقتربنا من الكهوف .

وعندما عاود العربى لبس ثيابه صاح سالومى : تلك الحقيبة حقيبتى ... لقد سرقت منى . لم يهرب العربى ، سلم الحقيبة ... وحكى

أنه فى كل مساء فى تلك الساعة يقيم هذا المغفل ذو البشرة الحمراء توازنًا للبضائع التى باعها بعد أن يحتجز ثمنها ليشتريها فى اليوم التالى ، يلقى بالباقى فى البحر .

الأمر لا يتعلق بحصيلة كبيرة ... ولكن منذ سنوات وهى إعانة بالنسبة لى ، ثم أضاف : « لا تعتقدوا يا سادة أنها لم تكن جنيهات كسبتها بجهدى هذه القروش اليومية القليلة ، لأن الرجل ذا البشرة الحمراء – كما رأيتم – لا يلقى بالقروش فى البحر مجتمعة دائمًا فى صفيحة ، فإنه يكون من السهل حينئذ أن أعيد التقاطها كلها معًا ، وإنما فى أكثر المرات يلقيها هكذا قطعة قطعة كما لو كان يلهو بقذف حصى فى الماء ، وحينئذ يمثل لى العثور عليها مرة أخرى مشقة كبيرة من بين الصخور والرمال والرواسب التى تستقر فى العمق بعد ارتفاع البحر ، ثم مضى العربى يضيف : « لم أكن أعرف يا سادة أن ذلك الرجل ذا البشرة الحمراء لص أيضًا » .

فقال سالومونى : « فى الواقع هو ليس كذلك ، لكن أليس لديك حرفة أخرى غير إعادة تحصيل هذه النقود ؟ » ، « ألا ترى يا سيدى ! كيف أستطيع أن أدفع الحياة ولى ستة أبناء ؟ أعمل حمَّارًا فى الميناء ، لكننى لا أملك حمارًا ، ولى ابن كبر بدرجة تمكنه أن يساعدنى ... ولكن أنَّى لنا أن نتصرف فى شراء حيوان آخر ؟

سأل سالومونى : « وكم يبلغ ثمن الحمار ؟ » .

فأخذ يفكر بصوت عال ، ويقول : « حمار قاهرى نحتاج على الأقل ستة جنيهات مصرية » .

« فى الحقيبة يوجد أكثر من هذا المبلغ . اشتر الحمار ، واشتر له علفًا يكفى لوقت طويل » . واحتفظ سالومونى هذه المرة بالوشاح الأحمر وهو يقدم الحقيبة « للحمال » .

كنت أتسلى بانخداع سالومونى . لكننى لم أرد أن أسىء إليه .. فانتظرت أن يقول هو شيئًا .

سنتوجه فورًا إلى المدينة ، ونسلك ذلك الشارع الجميل الذى يسمونه « بوليفار» ونتجه إلى وسط المدينة .

قال سالومونى : « إنه مالح » .

وسألت على سبيل الدعابة : « الدرس ؟ » .

« وشاحك . إنه مالح . وأسوأ ما فى الأمر أن الملح يبلى الحرير » .

قلت أنا : « دائمًا توجد الحاجة للملح .. الملح يساوى أكثر من الوشاح » .

« هل تريد أن تقول : إننى غبى ، حين حكمت على ذلك الشىء التافه ذى الجلد الأحمر ؟ » .

« لقد كان مقهورًا أكثر منه معارضًا .. لكنه خاضع » . أضاف : «أيحدث هذا وأنا الذى أعربت عن سعادتى عندما انتهيت من توزيع محتويات تلك الحقيبة بشكل جيد .

« إننى أنفعل بسهولة » ، وبعد قليل قال :

« من يدرى كم من أخطاء أخرى سأرتكبها . أنا متهور .. أعرف هذا .

لكن الحقيبة الأخرى المغلقة من اختصاصك . لن أفعل شيئًا إلا بعد مشورتك المطلقة » .

كان هادئًا ، لكنه مغموم . كنت أريد أن أهدئه . فقلت : « إن الانفعال يعد فى الوقت نفسه الميزة الأولى للإنسان .

كارثة لو لم يكن هناك انفعال فى العالم . التجار المضاربون والمرابون . البرجوازيون الاستغلاليون الذين لا يجرى فى عروقهم دم كريم ، يظلون باردى الإحساس .. يعملون لمصالحهم الشخصية . يقيسون كل شىء بمقياس لا ترتفع حرارته أبدًا . ولو كنت أنت كذلك ، لما أضعت وقتًا معك .

وبخصوص الخطأ هناك مثل يقول : « من لا يفعل شيئًا لا يخطئ ، من لا يفعل أبدًا لا يخطئ أبدًا » . وأنت الذى اعتقدت وآمنت بعمل الخير الذى تراه والدتك ، يجب أن تكون أكثر سعادة بلا شك . أما جنونه هو فقد تحطم ، وهو يلقى بالحقيبة فى البحر ، وها هو ذا يحدث العكس ، سمِّه معجزة مؤسفة ، أن يعود الخير إعانة .. لقد تحول إلى حمار صغير .

ووالدتك يمكنها أن تراه يعدو ويكسب عيش تلك الأسرة الفقيرة .

لو أنني كنت متأكدًا أن والدتك ترى هذا ، لطوقت عنق ذلك الحمار بوشاحى الأحمر بجرس معلق لمزيد من البهجة (كم مرة خلع السجانون الوشاح عن رقبتى !) .

ويكون بوسع والدتك أن تقول : «إنه وشاح صديق ابنى سالومونى ، ذلك الصديق الذى لا يعتقد فى الجنة أدنى اعتقاد ... أرأيت كم أخطأت أنت أيضًا ؟ » .

كنا قد وصلنا إلى ركن الشارع حيث بائع الفواكه فى المدخل .

كان بعض المحالّ لا يزال مضيئًا أنواره لتلفت النظر ، على الرغم من أن الليل لم يكن قد حل تمامًا .

يبدو لى الآن أن أتوقف .. كنت أتمنى أن تأتى لحظة التخلص من الحقيبة الأخرى . الشىء الذى استغرق وقتًا أطول من اللازم ، وأيضًا بدأت تتعبنى صحبة سالومونى سلامة . وهكذا بمجرد إن رأيت على باب الفاكهى رجلاً ذا هيئة مسكينة بالجاكيت الأوروبى فوق الجلباب ، كما يرتدى الأرمنيون فى بعض الأحيان (هى لم تكن ممزقة ، وبالنسبة لكونه فقيرًا فقد كانت نظيفة) ، اقتربت لأرى إن كان الأمر يختص بواحد من أولئك الفقراء الذين ينقذون المظاهر بالثياب المرتبة . على أية حال هو متسول يستحق الإحسان ، وينتهى الأمر .

ألقيت نظرة واكتفيت ...

بسط على الأرض منديلا كبيراً أصفر اللون ، كان صبى الفاكهى يهز فوقه السلال المحتوية على قليل من الفاكهة مثل العنب والتين الجاف والبلح . كانت السلال كثيرة . والمحل الخاوى الآن ظل مفتوحاً للتنظيف . ترص السلال التى رجت فى منديل المتسول خارج المحل على الرصيف لتدع الرفوف خالية للسلال الممتلئة التى تصل ليلا . وضعت السلال هنا جاهزة لتحمل مرة أخرى وهى فارغة .

« هذا بالتأكيد يحدث كل يوم ، فكرت ، بينما الرجل الذى لا بد له سرب من الأنباء ومن البؤس ، خجل من أنه مضطر للتسول ، لذلك كان يختلس الأوقات التى لا يكون فيها أحد هناك يشترى من المحل ، لم يكن بالمحل سوى الصبى الذى يقوم بالتنظيف لكى يشترى عشاء أبنائه ببعض الفاكهة التى كانت ستؤول بتلك الطريقة إلى عربة البلدية القانورات .

قمت بعرض الموقف وكأنه تقرير عن حالة الرجل .

« نعم . نعم ، نعطيه الحقيبة » أجاب سالومونى ، لكنه لم يكد يتم موافقته حتى صاح : يا للخيبة ! إنه الملك ! الملك الملك !

موسافيسى : ملك البخلاء ... الآن كنت أنا الذى سأنخدع : كان ذلك أغنى رجل فى المدينة ، أشار لى سالومونى : إنها عماراته تلك التى فى المواجهة ، ذو قلب مغلق أمام أى إنسان يطلب منه خمسة دراهم حتى لا يموت ، لكن بالنسبة لنفسه (يفضل فى قرارة نفسه أن يأخذ

حتى السم ... لكى لا يعطيه ، إنه خسيس . أشعر بأقصى الحياء لقرابتنا . كانت أمى تضرب به المثل للبخل المقزز ، وعندما كانت تحدثنى عنه كانت تبصق كما لو أن فى فمها مرارة . صمت سالومونى كما لو كان يمعن التفكير ، اقترب من البخيل وقال برقة مهذبة : « هل عرفت يا سيد موسافيسى أن والدتى ماتت ؟ » .

« آه ! ... نعم ... سيدة فاضلة أعرف هذا .. نعم أعرفه » ، فغمز سالومونى : لكنك لا تعرف أنها فى وصية الموت الشفاهية معى ، ذكرتك مرات كثيرة ، ودائمًا يكون لذكرى الماضى معنى ، فهل أستطيع أنا الآن يا سيد موسافيسى أن أقدم التقدير الذى كانت والدتى تحمله لك ... وذلك الذى تركته لك ذكرى ؟ » .

بسط موسافيسى يده متحمسًا ، وهو يعتقد أن الأمر يتعلق بتركة له على سبيل الذكرى فى الوصية ، كما هو معتاد بين الأقارب .

حينئذ انحنى سالومونى على تلك اليد المفتوحة حتى لا يخطئ التصويب ، وبصق أكثرمن مرة ، بينما أخذ البخيل يقول وهو مضطرب : « شكرًا ... شكرًا ... وسلام على روحها الطيبة ... » .

لن أكف بعد ذلك عن الكلام .

وكان يسعدنى بعد ذلك أن أتناقش مع فازاى ، من أجل معرفة الخير والشر الذى وعيته عنه .

لم أرد أن أتحدث عنه بكلماتى ، ولكن بذكر وقائع .. حتى لو كانت

صغيرة .. طفولية ، فإنها تصور بوضوح مشاعر رجل يعده العالم خطراً ؛ ولذلك تلازمه عين البوليس والبرجوازيين ، من أجل المجتمع الذى يضطهده .

كان فازاى إذن يعد أسوأ رفاقى المذكورين ، حيث إن سنوات السجن قضاها من هروب إلى هروب ، من بلد إلى آخر .

وبالنسبة له الآن ، يبدو طبيعيًا جداً أن يسجن ذات مرة بدلا من شخص آخر . كما يبدو له منطقيا تمامًا أن يقبض عليه هذه المرة ، عوضًا عن ذلك الاسم الذى هو مجهول بالنسبة له ، أيًا كانت أسباب القبض على ذلك الآخر ، فإنه لا يقول شيئًا ، ولا يبرئ نفسه

« هل أنت المدعو باسكوالى فيللا ؟ » .

أجاب فازاى بعد أن فكر : « لا بد أنه سيئ الحظ مثلى » .

« لكن ماذا فعل ؟ » .

« أنت تعرف ما فعلت » . « على أية حال تعال معنا » .

ثم أمام القضاة أصر على نفى التهمة . لكنها ثبتت كما يحدث دائمًا . وعندما اكتشف فيللا الحقيقى ، كان قد قضى نصف مدة الحكم فى السجن .

لكن القاضى حينئذ تحفظ عليه لتزوير الهوية . وفى الوقت نفسه مضى يحقق معه ؛ لأنه لم يكن مقتنعًا أن يعرِّض رجل نفسه للإدانة - دون دافع - من أجل شخص لا يعرفه أدنى معرفة .

استمر التحقيق وقتًا ، لأن آثار هذا الخطر - فازاى - كانت منتشرة في العالم ، وفى النهاية عندما لم يستطع القاضى عمل شىء آخر ، ليكشف اللغز ، طرده من تلك الدولة بوصفه فردًا خطرًا على المجتمع .

« حدث أننى تعلمت فى تلك السجون شيئًا عن الآلات الطائرة » .

« هى ليست مناطيد يمتلئ أعلاها بالهواء ويزيد ارتفاعها كلما زاد انتفاخها ، وتتحرك فى مختلف الاتجاهات تبعًا لدفع الرياح ، ثم بقوة المقود ، ولكنها نسر حقيقى ضخم من الحديد والخشب والنسيج ، هذه الآلات الطائرة بمروحة أمامية تدور فى الهواء كتلك التى تدور فى الماء للسفينة ، وفى الخلف لهذا النسر الضخم دفة توجهه فى السماء - تمامًا كالذيل الذى يسيِّر القارب البخارى فى البحر ، أيضًا عكس الريح حسب رغبة القائد أو المرشد أيًا كان .

الصعوبة هى عندما تستوى الآلة عاليًا ، لكى تدور المروحة بقدر الضرورة ، سريعًا وبقدرة على رفع ثقل هائل » .

أنا - الذى كنت ميكانيكيا - ظللت غير مصدق .. كان يبدو لى مستحيلا أن تستطيع آلة ثقيلة أن تسير بنفسها فى الهواء (دون العلب التى تعمل كأجنحة ، من النسيج والخشب) ، وهى من الحديد ، دون غلاف حريرى ممتلئ بالهواء يحفظها معلقة . لكن فازاى كان يريد أن يقنعنى بأن المروحة تتلولب فى الهواء وتمتص وتجر الآلة فى السماء ، كما يسحب الحصان العربة عبر الشارع .

« الآن يلهو الأولاد فى أوروبا بلعبة المروحة ، كما كانوا يلهون من قبل بلعبة « العفريت » بحبل صغير مركب على رأس عصوين » .

وصنع فازاى محركًا على سبيل التسلية كما هو شأن الأولاد .

دق أربعة مسامير فوق بكرة (وهى بكرة خشبية مثقوبة من التى يلف عليها الخيط للحياكة على ماكينة الخياطة) . قطع بالمقص قاع علبة من علب الصفيح . وصنع بها مروحة وجعل ريشاتها منثنية قليلا . وثقب أربعة ثقوب فى وسط المروحة لتوافق المسامير الأربعة فى أعلى البكرة ، أخذت المروحة مكانها داخل تلك المسامير الأربعة ، من حيث يمكنها على أية حال أن تعلو وتهبط بسهولة ، فالثقوب كانت أوسع من اللازم والمسامير بدون رأس .

كان معظم الشغل قد انتهى ، حيث إنه يكفى بعد ذلك تمرير البكرة فى مسمار كبير من الحديد ويمكن إمساكه باليد على شكل مقبض من أحد الجوانب . ثم يقوم بلف حبل حول البكرة مثلما يحدث فى لعبة النحلة ، ثم يشد أحد طرفيه لدرجة التمزق ، لدرجة تجعل الحبل وهو ينفك يدير البكرة حول المسمار بأكبر سرعة ممكنة . حين حدثت تلك الحركة على البكرة ، رأيت المروحة تتحرر من المسامير الأربعة التى كانت تمسك بها بصفة مؤقتة وتصعد كالقذيفة فوق أسطح المنازل .

كان فازاى يتابعها بعينيه . ويضحك مندهشًا ، جرى معى لنستعيدها بعد أن كانت قد سقطت بعيداً .

وكان عمله ذلك عمل صبى يتسلى .

لكنه تنهّد بعد ذلك .. وفى تلك التنهيدة كان الحنين إلى بلده :

« عندما تكون لدينا الآلات الطائرة فى متناول الجميع، من الصباح إلى المساء ، سنطير من هنا إلى فلورنسا » .

كان يوم عيد الميلاد لسنة ١٨٩٩م .

فلورنسـا !

وإن كان فازاى يتحدث عن فلورنسا ، حتى فى السنوات التى بعد ذلك ، فقد كان حكاياته دائمًا - بعد بغض الاعتقالات الأولى - فى مثل صفاء نهر الأرنو فى الربيع والزهور ، كما لو لم يكن فى فلورنسا أبدًا فصل آخر غير ذلك .

زهور وربا معروشة بالعنب ، والزيتون ، والسرو المتسلق على حافة المدينة تقريبًا كأنه يمكنه أن ينعكس ليرى صورته فى المرآة المائية للنهر الذى يقسم المدينة .. كان فازاى يقول : نعم .. كان هذا .. الأشجار البرية التى تحيط بفلورنسا ظلت بالنسبة له انعكاسات مقلوبة فى نهر الأرنو ، مثل منازل الجسر القديم « بوىنتى فيكيو » .

كل هذا كان حقيقيا من وجهة نظره ، كما كان حقيقيا أن فلورنسا لها فصل واحد دائم ، لكن عين الذاكرة كانت تؤطر الزمن السعيد لبدايات العمر . والزهور كانت هى الحنين لذلك الزمن . ومهما سار فى

العـالم اليـوم ، فلن يجد أبداً زهوراً أجمل منهـا . وعلى مـدى سنوات طويلة لم أسمع حديثًا عاشقًا للزهور مثلما كان حديثه .

رفـيـق آخـر ، كان يحـكى أيضًـا عن زهـور وعن نباتات غـريبـة وعن أعـشـاب ، كـان طبـيـبًـا بـارد المشـاعـر . فى الوقـت الذى يبـدو فـازاى - ببساطة - شاعراً عاشقًا . كان الرفيق الآخر- بوصفه عالمًا - يضحك من أحاسيس فازاى . فهو مشغول - حسب قوله وبصفته عالمًا أخلاقـيًا واجـتـمـاعـيًـا - بإثبات أن كل مـا ازدهر وأفرزته الأرض كـفيل بتوفير الغذاء .

هكذا كان يقــــول عن حشائش هـــو يعرفـها - بوصـفـه عـالمًا - إذا قطعت فإنها تنبت مرة أخرى وفى لمح البصر فى أى إقليم من العالم .

ربما كان من الممكن التـصـدير ، وإقامة المروج أينما كانت ، حيث يمكن أن ترْى الماشـيـة بحرية ، طوال شـهـور السنة الاثنى عشر (فذلك الحشيش لا يؤثر فيه تقلب الطقس) .

« طوال شـهور السنة الاثنى عشر ، هل فهمتم ؟ » .

وفى أوروبا لن يكون هناك تبن بـعد ذلك للمـاشية فى خـلال الفصـول الشتوية - وهى أطول من الربيع والصيف - بل أعشاب !

عشب ناضـر ورقـيق لمن يـــريد ، دون حـاجـة للاقتـصــــــاد ، لأنه إذا حُصِد أو رعته الماشية فى موضعه ، عاد لينبت من جديد فى اللحظة

نفسها التى يقتلعه فيها المنجل ، أو يقتلعه فم الحيوان . وبعد أن يصير هذا العشب لحمًا ، سيجعل من كل ثور منجمًا من « الروزبيف » .

والإنسانية المتحررة سيكون لديها لحم للخبز ، لأنه أيضًا سيتكلف جهدًا أقل فى إنتاجه .

« إنها لجريمة أن نبدد مترًا من الأرض لزراعة الزهور التى تنحصر فائدتها فى تزيين صالونات السيدات » .

أجاب فازاى : « أنا لست بسيدة ، ومع ذلك فَلَدَىَّ ثلاثة أصص فى النافذة أسقيها صباحًا ومساء » ، وعرض عليه قرنفلة يعلقها فى عروة السترة ، فقال الرفيق العالم باعتزاز : « لكن هذا جنون ولا يعول عليه » .

« لكن أيضًا (مناجمك السمينة) من أجل الشعب هى أوهام .. هل أنت متأكد تمامًا أن الحشيش الذى يحمل من موطنه الطبيعى ، لينمو عندنا أيضًا كما تقول ، سيأكله بقر أوروبا ؟ » .

وفازاى أيضًا - مثله مثل الجميع غالبًا ما كان يناقض نفسه ، أو بالأحرى كانت الحياة العملية تتناقض مع الأفكار .

إن الشعور الذى يتولد قبل الأفكار يشتد عندما يتقدم للأمام .

لم يكن للعالم حدود ، لكن فلورنسا كانت جمهورية فى حد ذاتها !

والإيطالى كان لديه الحق دائمًا فى أن يؤمن بهذا مثل الآخرين وأكثر . إن أفعال الرحمة تعد من الفضائل المسيحية ، لكن فازاى كان حقًا يقسم القليل الذى معه ، حتى لو كان هو ما يقتات به .

وعندما قلت : « لكن هذه رحمة نبيلة وطيبة مثل جميع الأعمال الأخرى » .

أجابني بالنفي .. لا ، لأنها لم تكن رحمة نابعة من الشعور بالإحسان ، فإن غرضه هو : « تضامن إنساني » .

سدت هذه الكلمة فمي ، لكنها لم تقنعني . إذ ماذا تعني إذن ، الرحمة التي كان فازاي غنيًا بها تجاه الفقراء ؟

وماذا تعني أيضًا تلك التي كان يزاولها الرحماء المسيحيون أو غيرهم ، تجاه المحتاجين ؟ كان يسفسط الأمور .

« المساعدة – ولا أريد أن أقول ذلك الإحسان الذي يلقي فيه الأغنياء ذوو الطيبة الزائفة – فتاتهم للمتسولين . المساعدة عمل عالمي لا نسأل عليه أجرًا في الجنة . ليس هو الخير الذي يعود علينا بفائدة طيبة ، تلك الأموال التي نعطي بالربا كما يقول القساوسة : « سيعاد إليك الواحد بمائة » .

ويواصل : « والإنسان الذي اعتاد أن يمد يده على اعتقاد أن الخبز الذي يأكله هو كرم من السادة ، لن يموت إلى جانبنا على الحواجز » .

وفي مرة أخرى كان يقول في إصرار : « إذا كنت محتاجًا ، فالأمر لا يحتمل أن تنتظر حتى تعطى ، فالخبز تناله اليد القوية إذا لزم » وكان متحمسًا .

« فليعش رافاشول ! ثم قال : « « لا تأخذنا رحمة بالبرجوازيين » .

لكن حدث ذات يوم أن أصاب الإعياء إحدى السيدات ، فسقطت في الشارع . نبيلة كما يبدو .. تلبس ملابس فاخرة .. قبعة ونقاباً على أحدث صيحة في الموضة ، كمت ترى في كبرى واجهات العرض بالشارع .

الآن نسى فازاى الكراهية تجاه المجتمع الذى تنتمى إليه المصابة .

تصرف كما لو كان الأمر يتعلق بقريب له .

صاح لكى يساعده المارة .

المكان بعيد عن وسط المدينة .. ليس هناك مواصلات لتسعفها .. عربات الحنطور لا تمر بالقرب من هنا . والأمر يحتاج إلى التصرف بسرعة ...

سار فى كل الاتجاهات لكى يجد أية وسيلة مواصلات سريعة . وبما أن هذه الوسيلة التى يمكن أن تنقلها بسرعة ، تتأخر فى المجىء ، قال : « نحملها نحن على أذرعنا ... أين طريق المستشفى ؟ استدعى خبرة الطفولة ، ومارسها ، كان يوازن تلك العقدة المشّكَّلة من أربع أيدٍ ، بينه وبين زميل اللعب ، وحملوها كأن قد مستها ساحرة الغابة ، حورية نائمة .. كانت ما تزال طفلة صغيرة . يد أحدهما اليمنى تقبض على معصم اليسرى ، وتشدد هذه الضغط على المعصم الأيمن للزميل ،

الذى يقترب ويمنح معصمه ليسرى زميله ، ليغلق الكرسى ، الذى يشبه عقدة سالومونى .

كان الأطفال يسمونها : « عرش الملائكة المثقوب » .

استقلت السيدة فاقدة الوعى على تلك الأيدى الأربع ، كما يستوى الميزان على طبقه . رأسها مستند إلى كتف فازاى . وذراعها حول عنقي حامليها .

لم يكن الثقل كبيرًا على اثنين . لكن من المستحيل المرور بسرعة كما كان يريد فازاى ، كانت ملقاة كما لو أنها لو لم تعد حية . عليها شحوب الموتى ، وذراعاها حول عنق حامليها ، لا يصدر منها أى دليل على المحافظة على توازنها ، عندما يهتز الجسد عند السير .. جسد ميت فوق تلك الأيدى الأربع .. مقعد مغامر متعجل . ميتة ؟ نعم ... أيضًا .

أعرب فازاى عن شكه بصوت مرتفع : « ربما تكون ميتة أيضًا » .

وأية راحة عندما لمح عربة حنطور تقبل على البعد .

أية راحة ... أسرع العدْوَ للوصول إليها .

وعندما توقفت العربة ، وعند وضعها على تلك الكنبة ، أدرك أنها حية . وعندما رآها وعيناها قد فتحت على باب المستشفى متباطئة على النقالة المريحة ، واثقة من عناية المرضين . شعر بالسعادة .

تحول وقال وهو يصعد إلى العربة مرة أخرى ، كما لو كان يريد أن يحتفل بنجاة تلك السيدة من الخطر : « اليوم أذهب إلى البيت فى عربة حنطور أنا أيضاً » .

وبعد قليل من عدو تلك العربة .. انحرفت إلى شارع منزله ، وهو باسط ذراعيه على الكنبة الجلدية ليستمتع بالنزهة ، فجأة ، دون تنبيه ، شعر بيده تقبض على النقاب وريش القبعة الخاصة بالسيدة المصابة ، التى نزعها عنها الممرضون ليريحوها على النقالة .

ود فازاى أن يحول العربة . لكنه فكر بعد ذلك أنه فى الغد ، وهو يحمل القبعة والنقاب ، يمكنه أن يطمئن على تحسن حالة المرأة المريضة .

وها هو ذا فى اليوم التالى ، معه القبعة والنقاب ، ملفوفين فى جريدة يسأل بواب المستشفى عن أخبار المريضة .

فأجاب البواب : « لكن السيدة أصبحت بخير منذ مساء أمس ، حتى أن أسرتها حملتها إلى المنزل » .

١٨٩٩ - ١٩١٤م . مرت خمسة عشر عاماً على لقائى بفازاى ، (عامان أو ثلاثة بعد وصولى إلى مصر) وما زال قصة بالنسبة لى .

هبة من القش ، هى الحياة .

لكنها لم تنقض كلها فى رماد ذكريات ميتة . حياة الخمسة عشر عاماً التى انقضت هنا ويزيد ، لو استطعت أن أعود للوراء ، لوجهت إلى عقلى استفسارات لم أكن قادراً عليها من قبل .

تهذيبات .. خيبة آمال .. وبعض التوقعات المؤكدة .. تلاشيات .. توسلات جديدة ، اليوم الذى أصبحت فيه أكثر توازنًا من أمس بالنسبة لكثير من الموضوعات ولم أمنح مما كان يخلصنى شيئًا ، دون مساعدة ، ولا حتى أعرف ممن ..

أيضًا منذ أربع سنوات ، وكنت على وشك الرحيل مع الأسرة فى اتجاه موطنى . تصاعدت الشكوك مثل اليوم . ومثل ذلك الحين أيضًا تقافزت اليوم أمام أعين ذاكرتى ، كما لو كانت تريد أن تقول وداعًا على الدوام ، وتعانى من أجل الانفصال ، صور الأشخاص الذين كانوا رفاق الحياة فى المتاعب ، فى الأخطاء ، فى الحب .

ولكن منذ أربع سنوات كانت لدى على الأقل الجرأة فى أن أحرق الأشياء التى كتبتها متهجيًا ، وتلك التى كان بها بعض الفكر من الكتابات الجارية .

كان أبنائى حينئذ فى سن خمس وست وسبع سنوات ، يتسلون بنزع الأوراق وبعثرتها ، وانتزعها أنا من الأيدى الصغيرة عديمة الخبرة ، حتى لا يحرقوها بوضعها على الفرن الذى كان ملؤه لهبًا شديدًا .

إن ذلك بمثابة عيد جديد بالنسبة لهم !

لكنه لم يكن هكذا بالنسبة لرفيقتى ، التى لم تكن تريد أن تظهر ذلك ، ربما بسبب تقديرها الزائد على الحد لى .

لكن ربما أيضًا من أجل حسرتها الشخصية ، إذ كان من بين تلك الأوراق تذكارات أولى للقائنا وحتى السباب .

وكان بين الأشياء التى يلتهمها اللهب ذلك الخنجر الذى كنت أريد أن أقتلها به بسبب الغيرة .

تظاهرت بعدم الانتباه إلى ذلك .. حتى لا تتحرك مشاعرى . فإخفاء مشاعر الضعف عندى شىء طبيعى .

لكننى أكن من المشاعر أكثر بكثير مما أظهره .

تظاهرت بعدم الرؤية .

أخذت الخنجر خلسة من وسط النار وذهبت إلى الحجرة لتعيده بين البياضات فى الدرج .

والآن - فى ليلة السفر - ها هى ذى الشكوك تعود ، بالنسبة لبقية الأشياء المكتوبة .. فبعضها نجا من المحرقة منذ أربع سنوات من أجل غيرة أونجاريتى الذى كان مصممًا على الخلاص من السر الذى لا يمكن معالجته . والنجاح الصغير الذى أعقب فعل ذلك الصديق لم يقلل بالطبع الطموح الذى يتميز به الآن شيطانى .

وهكذا ، وجد مخطوط يهوذا مكانه فى حقيبتى بعد قرارات كثيرة اتخذت ، ألغيتها وأعدت اتخاذها .

إنه شهر مارس .

الحرارة هنا وصلت غايتها تقريبًا تزيد حماستنا للرحلة إلى الوطن .. وينتابنا شعور بأنها الرحلة الأخيرة .

أرحل بعمر يزيد على الضعف بقليل ، منذ أن وصلت إلى هذا الميناء ، فى عام ١٨٩٦م . على الرغم من أنه يبدو لى قد حدث بالأمس .

وأعجبنى أن أجد نفسى ذا ثلاثة أولاد ، كبار هكذا .. تسع ، وعشر ، وإحدى عشرة سنة . شعرت معهم أننى أستطيع أن آتى بالخوارق ، وأنا الذى كنت ما أزال أمتلك روح صبى ، وإن كان نصف حياتى قد انقضى .

كم من الذكريات ملأتنى فى تلك الليلة ، عن أولئك الذين كانوا رفاقًا لى ؟ وكم حجبهم عنى الوجود ؟ لا أعرف شيئًا عن الكثيرين منذ وقت طويل ، كما لو كان أولئك أيضًا قد ماتوا .. فلن أعرف عنهم شيئًا أبدًا .

ومع ذلك فهم هنا لكى يودعونى .

كنت أود أن أسميهم جميعًا واحدًا واحدًا ، بالاسم واللقب ، حتى وإن كان نطقه الأجنبى صعبًا .

لا أريد أن أسأل أحدًا المغفرة ، لو كنت رفيقًا سيئًا . إذا كنت تمردت وأتمرد ، فإننى لا أفعل ذلك على سبيل الخيانة . وإنما لكى أحيا بأقل قسوة ممكنة ، بحريتى .. الكنز الوحيد فى هذه الحياة ، التى لا يمكن - لقصرها - أن يتوصل أحد أبدًا إلى أن يحياها كلها ... قصيرة هى حياة الإنسان !

يسمي عمال السفن ذوو البلط "sciverto" الألواح جيدة الصنع . المصنوعة من خشب طيب لبناء السفن ، لكن اللوح المعوج بشكل طبيعي .. شديد الاعوجاج ، فإنهم يحاولون أن يجعلوه فى صنع الوصلات المصقولة للسفن .

وعلى العكس ، فمن أجل استغلال هذه الأخشاب ، فى اتجاه معين فإنها تشكل لصنع الأجزاء شديدة الانحناء فى مقدمة السفينة ومؤخرتها .. كذلك من أجل تنظيم هيكل القوارب .

هكذا ربما نكون نحن البشر أيضًا .. يمكن أن يوجد لدى الشيطان اتجاه ، لأن يكون قديسًا .

ترى ماذا يكون حال الرفاق فى خلال خمسة عشر عامًا أخرى ، أولئك الذين أضحوا الآن بالنسبة لي أسماء فى الذاكرة ؟

لكن القديس الشيطان بيترو فازاى ، له فى عقلى ذكرى تفوق الجميع . وحين صاحبنى فى الرحيل ، تذكرت كم له من فضل فى إشعال حنينى إلى إيطاليا ، هو ، الذى لن يستطيع أن يعود إليها .

« لو استطعت أن أغير الاسم والملامح ... فسأعرف أنا مكانى .. لأن ذلك المكان مفعم بهواء وطنى » .

هكذا كان يقول لنفسه : « ليس هذا تحيزًا ، فأنا أعرفه بشكل أوضح عندما يهب على تل من تلال إقليم توسكانا ، برقة تجعل هامات

السرو تنحنى » ، ثم يثوب إلى نفسه فيقول : « ولئن لم يكن هواء الوطن نقيًا ، فأنا متأكد أن هناك – على ذلك التل – ستشفى عديلة أيضًا ... » .

لأن عديلة دخلت الآن حياة فازاى ، ولا شىء ، ولا أى سبب فى العالم يمكن أن يبعده عنها .

والفكرة الأشد إلحاحًا الآن هى صحة كليهما ، وصحتها هى بصفة خاصة فى هذه اللحظة ، فقد قال الطبيب ، وأعاد القول أكثر من مرة :

« ليس من الخير النوم فى الفراش نفسه ... » .

وكان فازاى يجيب : « محال ... لا أستطيع » ، ثم يفكر :

« هل أكون أنا الذى أنقل إليها العدوى ؟ » .

الندم الخيالى والحب من شأنهما أن يعطلا أية حكمة . هكذا كان كلاهما يدمر الآخر رويدًا رويدًا .

قال لى ، وهو يشير إلى الخارج عبر النافذة وفى آخر يوم ذهبت إليه فيه : « هل ترى ؟ الزهور ليست بحاجة إلى دواء . تظل فى النافذة دون عناية حتى فى الليل ، ولا يصيبها برد أبدًا » .

« أنا وعديلة – على العكس من الناس هنا – لا ننجو من الإصابة بالبرد » .

تنبهت إلى أنه كان يرفع صوته عمدًا ليجعلها تفهم أن هذه الوعكة أيضًا لم تكن إلا بردًا .

الآن عديلة تتكلم الإيطالية ، مغنية بلهجة فلورنسية طفولية ، شائعة لدى العربيات عندما يتحدثن لغتنا . عندما سمعت عديلة وهى تغنى ، تذكرت أمينة . وقلت لنفسى : ربما تشتركان فى كارثتهما الأولى .

فتح فازاى النافذة ، كان هناك إلى جانب الطين الخاص بالزهور ، صندوقان صغيران مليئان بالتراب .

ترك فازاى فتاتًا من الخبز على الجانب الخالى من إفريز الشباك ، وقال : « أقوم بالرعاية من أجل الفائدة أنا أيضًا كما يفعل المتظاهرون بالتدين » .

وشرح لى : « لو لم أضع الخبز كطعام للطيور ، لحفرت فى الصناديق ونقرت ما زرعته اليوم فى تلك المساحة الصغيرة من الأرض » .

تقافزت العصافير التى كانت فى انتظار على المرتفعات المقابلة ، فى طيرانها ، وحطت على النافذة ، ونقرت من بين يدى فازاى دون خوف .

قلت أنا : « إن العصافير تعرفك يا سان فرنسيسكو » .

أجاب فازاى : « نعم ، حتى سان فرنسيسكو كان مولعًا بأن يطعم العصافير ... هل كان عنده هو أيضًا فائدة يرجوها ؟ » .

لم تكن عديلة تفهم فيم يتحدثان ، فسألت :

« بيترو ... من يكون ذاك ؟ » .

أجاب فازاى : « إنه مجنون أكثر منى يا ابنتى ... » ، وأغلق النافذة فى عجلة ، لأن العصافير سيحزنها أن يدخل إلى داخل البيت .

« ابنتى » ، هكذا نادى فازاى عديلته . وهى فى الواقع كما لو كانت ابنته حقًا . فكرت : بالقياس فإن ابنتى فالنتينا امرأة هكذا ... هى طفلة فى المظهر ، وربما فى العمر أيضًا . لكن المصريات هنا يبلغن مبكرًا ، وعمر الزوج لا يمثل لهن شيئًا – حسب العادة – فقد اعتدن الزواج حتى دون حب . لكونهن حتى لا يعرفن الرجل الذى سيتزوجن منه ؛ لأن مباشرة تقاليد الزواج موكولة إلى الوالد .

والوالد ينظر بطريقة أخرى ، وهكذا تصبح لدينا إماء ، بدلا من زوجات .. إماء لا يحببن سيدهن .

لكن القدر الحنون ليس فلتة نادرة ، فربما تتولد العواطف نفسها ، ثم يصل الأمر إلى الغيرة .

والقدر هذه المرة لم يكن ليستطيع أن يصنع معجزة أكبر من هذه بالنسبة لعديلة ، فهى لم تكن تعرف أن هناك اختلافًا بين عمريهما .

تولَّد فيها هذا التعلق على الفور ، عندما رأت رجلا يعالجها فى أثناء الولادة ، بشكل لم تكن قد تعودته .

فى البداية اعتقدت عديلة أنها فى المستشفى ، وأن فازاى هو الطبيب الذى يعالجها ، حيث لم تكن تعرف شيئًا عن المستشفيات ولا الأطباء .. حجرة .. فراش ، ورجل يعتنى بها ، يمكن أن تكون هى التى قالوا لها عنها : « عندما يقترب موعدك ، الأفضل أن تضعى نفسك تحت العناية فى المستشفى . فهناك يوجد طبيب دائم . لن تكونى بحاجة

حتى للمولِّدة (القابلة) والعناية لا تتكلف مالا ، لأن الحكومة تدفع » ، لكن ماذا كانت تعرف هى عن الوقت المحدد ، وعما ينبغى عمله ؟

وافتها اللحظة التى شعرت فيها بعلامات الوضع الوشيك ، بينما كانت تنزل من السماء أمطار مفاجئة هى حدث نادر فى مصر . ولما كانت مبللة من السيل ، فقد اضطربت لما حدث لها ، وظنت أنها فقدت التحكم فى نفسها .. وأصابها شىء مما يحدث للأطفال .

شىء من لا شىء ، كما كانت تظن هى ، لكنها عندما جرت لتصل إلى البوابة المفتوحة لأحد البيوت ، أبطأت سرعتها بسبب الوحل فى الشارع .

هذه السيول المفاجئة ، والنادرة قصيرة العمر أحدثت اضطراباً فى الشوارع .. جرى سريع للمشاة والعربات دون نظام ، لذلك فغالبًا ما يسبب الصدام والسقوط كوارث حقيقية . لم تكن إذن عديلة وحدها ، هنا هى الساقطة على الأرض . لكنها جذبت الانتباه ، لأنها كانت تبدو - وهم يساعدونها على الوقوف - على مشارف الموت .

كان فازاى فى نافذة حجرته يستمتع بمشهد المطر التى يعد بالنسبة لنا - نحن المولودين خارج مصر - مهدئًا لأعصابنا .

هنا ، حيث لا تمطر أبداً ، تأتينا - نحن المعتادين طقوسًا - رغبات ملحة وثابتة فى الإنصات لصوت المطر يسقط على زجاج النافذة . وعندما تمطر يكون عيداً .

كان فازاى يتسلى برؤية الناس يهربون ، والقطرات الغزيرة المصفرة تصيبهم . أيضًا لون المطر - بالإضافة إلى شدته - كان له استقبال جديد .. الشارع بدلا من أن يغسل ، اتخذ شكل فراش نهرى لامع . لكن المطر كان يحمل هكذا الانتعاش للحناجر المترتبة من جفاف الشهور ، ويعطى راحة للأعصاب . توقف المطر فجأة .

هنا فى - وسط الشارع - كان لا بد أن تحدث كارثة .. لمح فازاى أناسًا مضطربين حول أحد الأشخاص الساقطين .

(كثيرًا ما كان يردد : « كان قدرًا أن أجلس فى النافذة فى تلك اللحظة ») ، ووفقًا لطبيعته ، كان فازاى فى الشارع .

وعندما رأى الشخص الذى ما زال على الأرض ، مبتلا كما لو كان السيل قد عبر فوقه ، قال دون أن ينشغل بشيء آخر :

« الآن نحملها إلى حجرتى ، قبل أن تصاب بالتهاب رئوى » .

بمجرد أن رأت صاحبة البيت كل أولئك الناس قرب البيت غضبت وصاحت : « لا تضعوها على الفراش وهى مبتلة هكذا » .

انتبهت إلى أن المصاب امرأة ، فنادت نساء أخريات ليساعدنها . وأخرجت الجميع من هنا .

حملت بعض ثياب من عندها .

بدأت عديلة تفيق وتئن . وبدأت صاحبة البيت والنساء فى نزع ثيابها عنها محاولات أن يجعلنها تقف على أرجلها ، حتى لا تبلل فراش

المستأجر . لكن النساء أدركن فى لحظة - عندما جردنها من ثيابها المبللة - أن تلك الصبية حبلى ، وأنها على وشك الولادة .

تركت صاحبة البيت الفتاة بين عناية أيدى النسوة ، وذهبت إلى الممر . قالت لفازاى غاضبة : « لكن انظر ما حدث لى ، إنها تحتاج لنقلها إلى المستشفى . لكن فوراً ، فوراً ، لعلك لا تريد أن تجعلها تلد هنا ؟ » .

فسأل فازاى : « هل هذا ممكن ؟ هل من الممكن أن نجعلها تلد هنا ؟ » .

أجابت صاحبة البيت مندهشة : « ممكن ؟ ممكن جداً ... لكن الولادة شىء طويل وخطير .. يحتاج إلى مولِّدة ، أو طبيب فى بعض الأحيان . وآلاف النفقات فى الصيدلية .. وتحمُّل كل هذه المتاعب .

ثم لماذا ؟ لماذا ... وأين سأضعها ؟ » .

كادت تبكى من الغضب .

« أما فيما يتعلق بالمكان ، فدعوها تلد فى فراشى . وأنا سأكيف نفسى » . وبينما كانت تلك تلح متوسلة - حتى يذهب فازاى ليبحث عن عربة ويجعلها تسرع خرجت إحدى النساء من الحجرة تقول إنه يلزم حضور المولدة على الفور ، لأن الولادة وشيكة ... وربما أصيبت بالبرد ، فقد كانت تبدو مريضة .

قفز فازاى الدرج اثنتين اثنتين .

« أعطونى ما يلزم لامرأة تلد » .

وبينما كان الصيدلى يعد لفافة من الشاش والقطن ، وزجاجات الدواء ، أخذ فازاى عنوان أكثر من مولِّدة حتى لا يضيع وقتًا ، ولحق ببيت أولاهن وكانت يونانية . ولحسن حظه وجدها فى المنزل غير مشغولة فى هذه اللحظة . كان منفعلا لدرجة أنه لم يعطها وقتًا لارتداء الجاكيت . واصطحبها معه إلى الشارع . كان على درجة كبيرة من التأثر إلى حد أن قالت له المرأة : « لا بد أنك أب للمرة الأولى » .

عندما وصل فازاى إلى المنزل مع المولدة ، كانت النساء قد بدأن فى إعداد الأمر . يقال : إن المولدة تفحص المريضة . لكنها أعادت غطاء الوالدة على الفور ، وخرجت لكى تنبه الزوج – حسب اعتقادها – إلى خطورة تلك الولادة .

عندما رآها فازاى تظهر مرة أخرى من الاتجاه العكسى ، فهم . وقبل أن تتكلم هتف :

« هل ستحتاج إلى الطبيب ؟ » .

أجابت المولِّدة :

« مع الأسف ستحتاج إلى جراح . لن تستطيع الولادة .. فالطفل قد مات » .

حينئذ شرع بيترو فازاى فى البكاء ، كما لو كان ذلك الطفل ابنه حقا . نزل الدرج مرة أخرى . وذهب ليستدعى طبيبًا .

منذ تلك اللحظة رأت صاحبة البيت أن أحمل عديلة إلى هنا للتخفيف عنها ، لم يكن مصادفة ؛ لذلك عندما انتهى كل شيء ، وذهب الطبيب والمولدة ، جاءت إلى الممر وقالت لفازاى : « الآن يمكن أن تذهب إليها لتراها » .

فتحت له باب الحجرة : وحين رأته مترددًا فى الدخول شجعته قائلة : « ادخل ... ادخل ... المهم أنها نجت هى ... » دفعته إلى الداخل وجذبت الباب خلفها .

كان يبدو أن عديلة نائمة .

وعندما رآها فازاى وعيناها شبه مغلقتين ، اقترب من خصاص النافذة وبدأ ينظر إليها فى شبه الضوء وهو جالس على مقربة من الوسادة .

كانت طفلة حقا .. الوجه الزيتونى الصغير .. الشعر والفم البرونزى .. والأنف المتضخم قليلا .

ثم فتحت عينيها .. كانتا سوداوين هما أيضًا ... وابتسمت له ، هو الذى كانت تراه حينئذ ، وكأنها قد عرفته منذ القدم .

لم يكن فازاى يصدق عينيه .. وهو يراها هنا بعد أن تخطت كثيرًا من الأخطار . وعاود التفكير فى الذنب ، وخمن بمرارة « أى وحش ذلك الذى سبب لها الضرر ، مستغلاً كونه سيداً ؟ » .

ثم - بعد أن طرد الكراهية - تلطف وقال :

« كيف كان يمكنك أن تلدى طفلا ، أنت الذى جعلك الجميع امرأة رغمًا عنك ؟ » .

فكر الآن أنه لولاه فى هذه الساعة لربما ماتت . كان راضيًا .. راضيًا ضميره تمامًا . لكنه ليس مبتهجًا ، أولى بسحابة من الأسف أن تغشاه ، أمام تلك المخلوقة التى عانت كثيرًا بمجرد أن تفتحت للحياة ، ذنبها أنها ولدت فى مجتمع شرير ، حيث يمكن للسيد أن يطأ المسكين الذى يخدمه .

كان يبدو أن القدر يبادر ليهيئ لما حدث فيما بعد - متأخرًا جدًا - بين فازاى وعديلة .

للنساء خصوبة فى الخيال . وعندما يتعلق الأمر بالحب ، فإنهن حينئذ يذهبن إلى أبعد مدى فى تقدير الإصابة من الألف إلى الياء ، مخترعات أحداثًا تبدو حقيقية .. مقدرات جانب الشفقة العفوية لدى الآخرين ، كتلك التى ننشغل بها . أى إشارة - على الرغم من أنها غير ذات معنى - فهى تجتمع لديهن بدافع الغريزة ، لتفتح صفحة لقصة كاملة ، غير مستعدات للاعتقاد فى براءة أمثال هذه الإشارات ، خصوصًا فى العلاقات بين امرأة ورجل كلها تتحول فى النهاية إلى اعتبار المرأة أكثر حيوانية .

ومن عساه يدخل فى عقل صاحبة البيت بأن فازاى - بعد أن رأته يبكى - يمكن أن يكون قد اختلق قصة المطر والسقطة والمجهولة ، التى

كانت بالصدفة المحضة حبلى ؟ بينما فهمت هى العكس فوراً أن الأشياء على ما يرام .. والسقطة والمطر دخلت فى القصة بمحض الصدفة ، ليجعلها تصغى إليه .

على أية حال ، فالفتاة الآن فى بيت ، وصاحبة البيت ليس لديها اعتراض معين على أن تضيف فراشًا صغيراً (أكثر من الذى وضعته هنا) فى تلك الحجرة ، ومن ثم قرر فازاى أن يدفع إيجاراً مناسباً .

عندما كان جالسًا على وسادة النفساء ، جاءت صاحبة البيت لتنتزع فازاى من تأملاته ، وهى تطرق الباب ، وتقول عند دخولها :

« ساعدنى على إدخال هذا الفراش » . كان الفراش خارج الباب . وكان هناك أيضًا حشية ووسائد .

« بالنسبة للموقف الحاضر يمكنكما أن تتكيفا هكذا . والفراش الصغير المماثل لهذا موجود فى حجرتى ، لكنه غالبًا لا يستعمل . يمكننى أن أرتبه إلى جوار هذا ... » . نظرت إلى فازاى نظرة ذات معنى ، وأضافت :

« يمكنك أن تذهب إلى عملك كالمعتاد ، اليوم أنا التى سأتولى أمر الفتاة .. المولدة تأتى فى الصباح فقط، ربع ساعة من أجل التمريض » ، ثم قالت بشىء من التأثر : « لكن ليلا لو كانت بحاجة إلى شىء فأرجو أن تساعدها أنت ... » .

قال فازاى : « مضبوط تمامًا ، فإن شيئًا من الندم كان سيصيبنى لو كان الذنب ذنبى » .

تلطفت صاحبة البيت قائلة : « لا عليك مما قلت ، فأنا قد فهمت جيداً حتى منذ البداية » . وسألت ببشاشة أكبر ، وهى مغتبطة أنها خمنت ودفعت فازاى إلى الاعتراف.. أجاب فازاى مضطرباً من السؤال: « ما اسمها ؟ لا أعرف » .

فابتسمت صاحبة البيت : « لا تعرف عمرها بالضبط ... لكن الاسم ... بأية طريقة تناديها ؟ » .

أكد فازاى : « تأكدى أننى لا أعرف ، وهذا طبيعى .. إذ لم أكن رأيتها أبداً قبل الساعة » . وكان ضحك فازاى من صاحبة البيت كأنه استمرار للمزاح .

حتى إن المريضة - التى كانت تفهم الإيطالية قليلا - شرعت فى الضحك ، ثم نطقت اسمها من تلقاء نفسها : « عديلة » .

هكذا بدأت حياة فازاى المعتادة مع عديلة .. الآن دون طيف من الغدر ، لأن دافع المساعدة دون انتظار المقابل عند فازاى كان فوق أى شعور آخر .

وشيئًا فشيئًا تحسنت عديلة وشفيت ، وبدأ الحنان والرحمة ينموان من جانبه ، أما من جانبها هى فقد تولد حب خالص .

كان فارق السن والعناية المحبة تهيئ فيها إحساسًا كبيرًا .

لكن فازاى - على العكس من ذلك - كان مشغولا دائمًا بالمستقبل : « كيف سيمكننى أن أسرحها ذات يوم بعد أن تشفى تمامًا ؟ » .

كان يتعجل العودة مساء ، كما يفعل أب له طفلة مريضة تنتظره . هو – لحرمانه من الأبوة – لم يكن قد شعر أبداً بشوق جارف من أجل حالة دقيقة كهذه ، من الصعب تحديدها .

أى شعور كان يحسه بالضبط تجاه عديلة ؟ إنه لا يستطيع تبينه ، لكنه لم يكن حبًا بالتأكيد ، كان يجول بخاطره ، لأن أشياء أخرى يعرفها ترتبط بالحب فى تفكيره . وتلك الأشياء تظل بعيدة عن عقله عندما ينظر إلى عديلة .

هى ليست عنيدة .. لا تتكلم كثيرًا حسب طبيعتها .. تعيش ، واحدة من بنات هذه البلد نضجت مبكرًا ، فقط تعبر عن مزاجها قدر ما تستطيع ، كابحة جماح ما تعانيه ، نتيجة لعبودية وراثية للرجل . ليس لديها مشكلات تحتاج للحل . هى لا تستفهم .. تومئ ، وتشير مثل فازاى ، وتنطق بكلمات بسيطة .

والآن بعد أن نهضت من الفراش بحثت فى صناديق الحمام .. تنشر غسيل فازاى وتطويه بطريقتها . تغير مكان الأمتعة . وتقول لصاحبة البيت :

« لكن لماذا لم تحملى الفراش الصغير المماثل لهذا ؟ » .

وجدت اللفافة الورقية التى تحوى القبعة والنقاب التى لم يستطع فازاى أن يعيدها فى ذلك الصباح إلى السيدة المصابة ، والتى شفيت فور مغادرته المستشفى . ظلت تلك اللفافة فى قلب دولاب صغير ،

كما لو كان يريد أن يحتفظ بها فى خفاء . عندما رأتها عديلة مرة أخرى سخطت :

« هذه القبعة وهذا النقاب .. ترى لمن يكونان ؟ » ، ولكنها بعد ذلك جازفت وفكرت : « وماذا لو أن السيد قد اشتراها لى ؟ » .

ارتدت القبعة على رأسها .

بسطت على وجهها الزيتونى النقاب الحريرى .

تنظفت .. امتشطت .. تأنقت فى الملبس إلى حين يأتى هو هذه الليلة .

« ينبغى أن تغرق فى الماء الذى لا يمكنك أن تشربه » .

كان الشيطان القديس فازاى يلمِّح إلى تدبير زواجه من عديلة قائلا : « ليس بوسعى أن أندهش لأننى يجب أن أموت بالتزود بالزيت المقدس » .

حدث هذا بعد الأحداث التى حكيناها ببضع سنوات .

كان صيفًا عندما تدهورت صحة فازاى . لكنه كان يشعر منذ وقت أنه ليس على ما يرام . منذ زمن طويل وقد ارتبط بهذا البلد ، بل الأكثر من لك أنه اعتاده .. كان مجبرًا أن يغير مكانه كل حين ، لكن هنا لا حاجة لذلك ، فقد وجد فى مصر الحرية أكثر ما يكون فى ترحاله الطويل .. لا إزعاج من جانب البوليس .. وعمل ثابت يكفل له حياة طيبة إلى حد كبير .

على أية حال كان يقول : « يوماً أو آخر لابد أن أرحل .. سيحدث شيء ما .. سيظهر فجأة عائق ما .. أنا واثق من هذا .. فدائماً ما يحدث هذا .

وحينئذ كيف سيمكنني أن آخذ عديلة معي ؟ » .

والآن يبدو حقيقة أن اعتلال الصحة يجبره على التعجيل بالرحلة لكي ينجو من الحر الذي كان يقتله .

« وماذا أفعل مع عديلة ؟ » .

والمصرية لا تستطيع على الأقل (حتى لو وجد طريقة لمساعدتها بالمال) أن تحصل على جواز سفر خاص بها .

ربما يضطر إلى تركها « لبضعة أشهر » كما يقول الطبيب لكن «بضعة أشهر» في تصوره هو تمتد إلى الأبد .

أدرك حينئذ أنه لا يستطيع الابتعاد عنها ، لم يدر بخلده فكرة تركها . كل يوم تقل إمكانية استمرار حياته بعيداً عن عديلة .

حاول أن يقنع نفسه . ويبحث عن الطريقة . وظل يؤجل القرار كل يوم ، حتى حل سبتمبر .

« وإذا وقع الحادث ، بين دقيقة وأخرى ، ووجب أن أمضي مسرعاً ، كما اضطررت إلى هذا كثيراً من قبل ؟ » كان يعذبه هذا الإلحاح .

هو تقريباً مرض معدٍ أيضاً هذا الذي يثقل جسمه المرتعش .

كان يتدبر النتائج .. هو ربما يعانى ، معروف هذا ، لأنه يحبها لكن لن يظل التفكير كله بعيداً هناك فى القضايا الخطيرة التى كان يخشاها وتسبب له رعباً .

ماذا عساها تفعل هى ، بعد أن يتركها دون مال ، بعد استقرارها كأنها زوجة لعدة أعوام ؟

كان فازاى يتحرى ويتشاءم .. ويقدر الأسوأ .. أكثر ما يمكن أن يحدث سوءاً .. ويغضب . ويلقى على نفسه التبعة أيضاً .. لم ينبغ له أن يفعل ، لا أن يمنحها النجاة ، ولا أن يعطيها تلك المكانة ، ولا أن ينقل إليها المرض ... هل تكون مريضة هى أيضاً ؟

وإذا كان قد أخذها بفساد المجتمع الذى وضع العوائق ونصب الفخاخ أمام كل شىء ولكل الناس .

كان يقول : « وها أنذا قد مارست طوال حياتى حباً حراً ، والآن لو أردت أن أعيش فى وئام مع ضميرى وأحمل معى للعالم رفيقتى التى اخترتها لنفسى ، فلابد أن توافق القنصلية الملكية على خاتم الزواج كأى برجوازى حقير » .

الآن أتحدث عن نفسى ، مسميا البعض فقط عند الوداع الذين هم بالنسبة لى - إن لم يكونوا الأكثر معزة - الأقرب فى سيلان هذه الذكريات الشاردة .

ولتكريم الموتى ، سأصمت عنهم .

مع الموتى ، سأدفن مجهولى الأسماء بالنسبة لقارئى (فهم لدى حاضرون جميعًا .. تصورات وتأثرات وردود أفعال) ، وأيضًا أولئك الذين لم ترد عنهم إشارة هنا .

منزل الإخوة تويل على الصخرة ، لم يعد فى غاية الجمال ، مثلما كان عندما جئنا هنا للمرة الأولى أنا وأونجاريتى .

الأوتاد التى كانت تدعمه من الجهة البحرية ، متآكلة من أعلى بالإضافة إلى خيط الماء الذى كانت غاطسة فيه . لابد أنها تسنده ، وتدًا فى مقابل وتد .

ولأن البلاط قد انخفض ، كان يرى من سياج الشرفة التى تدور حول المنزل كله ، ومن خلال النوافذ التى لم تعد على زاوية مستقيمة مع الدعامات .

من يسكن البيت الآن أشاع الإهمال فى كل الجهات ؛ لأنه وإن كانت الأبواب آثارًا بسبب العواصف التى هدت أعلاها ، فإن شيئًا من الطلاء يمكن أن يعيدها أكثر جدة .

كيف يكون الداخل ؟

توقفت هنا لأنظر إلى البيت متذكرًا الماضى . ولو شعر المستأجرون بالفضول بسبب تطلعى ، ودعونى للدخول ، فإنى أرتبك . أفضل أن أتخيل أن الجدة والحفيدة ما زالتا فى البيت .. واحدة فى غاية الجذل والأخرى فى غاية الرصانة كما كانتا عندما رأيتهما فى آخر مرة .

سأشعر بالألم لو اكتشفت أن الجدة لم تعد موجودة . وأن الحفيدة - إن كان الأخ ليون قد حملها معه للتزوج فى باريس - فقد نتقابل ، هى التى لم تكن ذات طابع فرنسى ، بعكس تلك التى اختارها القاص صاحب « الثلاثى الملعون » لنفسه زوجة . زوجة وهروب من مصر .. القاص ليون .. ربما للطموح نفسه الذى يحفزنى .

إنها الحياة .

الأخ الآخر ، هنرى الشاعر ، المريض بالحب ، كما قلنا فى بداية هذه المذكرات ، أنقذته معجزة الحب .

عوفى عند النقطة القصوى على حافة الجنون ، النقطة التى بدا عندها أنه غير قابل للشفاء .

من دم العروس الأولى نفسه ، كانت زوجة هنرى تويل الجديدة . تنحدر من الأصل الشرقى نفسه .. الأرض الحالمة .

وربما حمد هذا التشابه والمساواة بين الزوجتين لشاعرنا ، فهى إشارة مماثلة إلى غمر الهاوية التى جذب منها صديقنا .

كانت هذه المرأة الحالية فوق سن المراهقة بقليل .

نحيفة كالصبيات اللاتى يكبرن مبكراً قبل النضج .

عينان فى غاية النقاء تعكسان روحًا ما زالت تتمتع بالطهارة . الأنف به انحناءة النبلاء .

الوجه أبيض وليس بشاحب ، الخلاصة أن وجهها وهيئتها يوحيان لهنرى تويل بالتبجيل والإقناع ، كأنَّ بهما قرينة لكونتيسة طرابلس بسوريا . منذ ذلك الحين غادر هنرى تويل هذا البيت القائم على الصخرة .. لقد توظف فى الهيئة السياسية .. سكرتيراً خاصاً لملك مصر ، واستقر فى بلاط الملك .

كان من الواجب أن أبدأ بذكر جوزيف أونجاريتى ، فقد يتضايق لكونه ذا طبيعة متوثبة . لكننى سأدرس الانفعالات بتوسع من أجل هذا النموذج البشرى الذى أواجهه ، لم أرد أن أدرجه فى المقدمة ، لأنك لن تعرف أبداً أى تصور يمكن أن يتخذه حصان ذو أصل مشبوه هكذا .

السكة الحديد التى تبدأ من محطة الإسكندرية ، وتمر من تحت أحد الكبارى ثم تنحنى مباشرة بالقدر الذى يجعلها بعد ذلك خطاً مستقيماً منبسطاً على الوادى الجميل حتى القاهرة ، هى بمثابة حد فاصل لضاحية محرم بك .

هذا الحى المتوسطى لليهود ، وللعرب ، ولفئة ضئيلة ومجنسة .. كانت الطرق حينئذ غير ممهدة ، والبيوت .. من أجل الناس الذين ذكرتهم . ولو أنه على النقيض من هذا ، كانت تتناثر حول الحى هنا وهناك فيلات للسادة من الوطنيين وسط حدائق رائعة ، فإنك تلمح البؤس حقًا إذا مررت بتلك التناقضات مساء الجمعة ، عندما يكون محظوراً على اليهود إشعال النار حسب العادة، حتى غروب يوم السبت، إذ إنهم يعودون فى هذا اليوم بدواً كآبائهم ، وهم يجهزون طعام

عشائهم البسيط على ما يشبه الموقد فى وسط الخلاء خارج مدخل البيت ، وكأنهم قد عادوا إلى الصحراء .

فى هذا الحى ، سنة ١٨٨٨م – على ما أظن – ولد جوزيف أونجاريتى .. فهنا كان مخبز آبائه اللوكيين . خبازون .. قلة من المهاجرين من كورنكورديو بلوكا إلى مصر بخلاف الكثيرين من أمثالهم فى تلك الأيام ، الذين كانوا يفضلون اتخاذ طريقهم إلى الأمريكتين .

عندما عرفته يافعًا ، لم يكن والده على قيد الحياة والمخبز الذى كانت تديره والدته فى الأواخر ، كان مغلقًا .. فقد شعرت الأم الشعبية المليئة بالحيوية ، بالتعب فى النهاية للاحتفاظ برئاسة الخدم العرب .. الخبازين والصبية ، وهى التى كان يجب الآن أن توجه كل عنايتها لنفسها .. كان الكسالى ينعسون (لأن العمل فى المخبز عمل ليلى) ، فكان هناك الخوف من النار ، بالإضافة إلى شخير الخنزير (حيوان معروف جيداً ومحرم فى القرآن) ذلك الخنزير الذى كانت تقصد أن تسرحه فى منتصف الليل فيدخل فى مكان نوم العرب الكسالى فيكون بمثابة شيطان لا يمكن الدفاع عن النفس منه ، وكان يتسبب فى قلب كيان المكان وكأنه ذئب يهجم على قطيع من النعاج .

لكن الأبناء مهذبون ، تعلموا اللغات ، فاعتقدت الأم اللوكية أن الوقت قد حان لكى تستريح وتصفى الشركة ، ونظراً لنظام الاقتصاد فى سنوات طويلة من العمل ، قسمت الحصيلة ثلاثة أقسام ، واحتفظت لنفسها بالثلث . أودعت لحساب كل واحد من ابنيها جزءاً ، واثقة

من كيـفـيـة النظام الادخـارى . والآن بعـد أن توظف الأبناء لـم يعـودوا بحاجة إليها .. كانت مؤمنة بتجربة العمل الطيبة .

لكن صـاحـبنا أونجاريتى بدلا من ذلك - كـان يشكو من الوظيفـة ويرتاد « الكوخ الأحـمـر » فـى ذلك الوقت .. كـان يتـولى المراسلـة باللغـة الفرنسية لدى شركة تجارية .

تمرس وزيف أونجاريتى إذن - منذ أن كان صبيًا - بنقاش الفوضويين والملاحـدة فى ذلك « الكوخ الأحـمـر » الشـهـير بشـارع حـمـام الذهب ، سيئ السمعة . بسبب المتمردين الفوضويين الذين يجتمعون هناك من كل أنحاء العالم ، تضمهم الأفكار الثائرة على اللّه وعلى المجتمع .

كنت أنا المؤسس لذلك الكوخ وصاحبه . لكنْ ليس الاشـتـراك فى الأفكار الثائرة ، ولا الخصام الاجتماعى لهذا العالم المزعج ، هما اللذان ولَّدا الجـاذبيـة بينى وبين أونجـاريتى . هو حب الشـعـر بلا شك ، الذى اكتشفته على الفور فى ذلك الغلام الأشقر .. غرام ممزوج بشعور أصيل من الطهارة البريئة .

كان أونجاريتى خياليًا سريع التصديق للأشياء البعيدة عن التفكير . لم يدهش كما ينبغى إزاء ما قلته له ذات مرة من أن طائرة ، مصنوعة ، آلة وأجنحـة من الرخام وصلت من إيطاليـا إلى مـصـر ، عـبرت البـحـر طيرانًا .. ولم يتـألم ، لكرمه المتـأصل ، عندما قام من فراشه ذات صباح ، فلم يجد فى الدولاب مـلابسـه ، ولا حـذاءه ، ولا غسيله ، لأن رفيقًا كان قد استضافه استيقظ قبله وسرقه .

كان الشعر والطيبة المجنونة هو ما جعلنى أكتشف تميزه وسط هذه الشرذمة الدولية ، وفى الحال تعاطفنا .

أنا أكبره بسبع سنوات . وأصبح لى زوجة وأبناء ، وكنت أعيش مع الأسرة بين اضطرابات «الكوخ» . منذ ذلك الحين وأصبح أونجاريتى أقرب إنسان لى .. الوحيد الذى استطاع أن يعيش فى تلك البلاد ، حيث يشح الرجال الذين يرتعدون من حب الشعر .

منذ ذلك الحين ونحن نشارك فى المناقشات والخصومات فى هذا الجحيم المؤلف من لغات كثيرة تتمثل فى « الكوخ الأحمر » ، ولأنه كان مخالفًا دائمًا بدافع التنفيس عن شبابه ، فقد كنا ثائرين غالبًا ضد الثوريين ، ماديين فى العالم الذى لم يكن يعجبنا .

لم نكن على وفاق مع الكثيرين .

ولم تكن كل هموم الصراعات من أجل الخبز ، فقد كانت هناك رغبة الشباب فى التحرر .. الإصلاح ، ليروا كيف تصاغ الحياة .

لكن الشعر فى الوقت نفسه كان يطغى على الطموحات الخاطئة .

قلت : أونجاريتى كان فتى أشقر جميل الطلعة .. نبت له بعض الشعر فى ذقنه على طريقة المسيح ، جعل وجهه فى الأيام الأخيرة طويلا بعض الشىء . الشفاه الغليظة والفم الواسع والشعر الغزير المنفوش على الجبهة العريضة .. والعيون الزرقاء الوديعة كانت تشى بطيبة روحه حتى فى ثورة الغضب .

أذكر أننى جردته من السلاح ذات يوم وقد أخذه الغضب فكان يريد أن يقتل خصماً .

لكن بعد غداء أحد الأيام ، كنت جالساً تحت شجرة الباشا ، عندما لاح لى أونجاريتى ، فى يده المرتعشة (إعلان زواج . نظرت إليه وهو يبكى ويقول : « لقد كانت خطيبتى منذ عدة سنوات ») .

والآن وبعد أن سيطر على رأس المال الذى ائتمنته عليه والدته ، دخل أونجاريتى فى صفقات وتبدد رأس المال . وهذا خير .. كارثة وقعت فى وقتها المناسب ، لأن خسارته أفضت به إلى طريق باريس ، حيث تواجد فى هذا التاريخ .

(ثم جاءت الحرب الكبرى .. وفى طين الخندق تدفق من قلبه المتضخم بالعشق ينبوع الشعر الأول) .

باريس هوة كبرى تجذب من كل العناصر .. الخير والشر . كان أونجاريتى من الفئة الأولى . وجورجى وأصدقاؤنا الآخرون من الفئة الثانية ، لكن حتى ماريجوندا اختار منذ بضع سنوات طريق باريس ، مثل هازوبولو وسيرافيكوس (الذى كان هناك حتى اليوم ، ويتغير للأسوأ عاماً بعد عام) .

اصطحبت ماريجوندا إلى الميناء : كنت أتظاهر بالأسف لتركه ، بينما أنا على العكس ، كنت أشعر فى قرارة نفسى بالسعادة لرحيله .

منذ بعض الوقت أصبحت صحبته بغيضة إلىّ .

بينما كانت السفينة تبدأ المناورة ، وتنتزع المراسى ، رفعت «الهلب» .. وتحركت . وأخيراً أطلقت صفارة «الوداع» كنت أتلهف على إقلاع السفينة . وأنا على مقعدى . خوفًا أن يندم ماريجوندا وينزل مرة أخرى .

ولم أرحل إلا بعد أن توجهت السفينة إلى مخرج الميناء واتخذت سرعتها وأنا أراها تتصاغر فى الأفق .

حينئذ وليت ظهرى للبحر ، واتجهت لأعود إلى المدينة بعد أن تخففت من ثقل . كان لدى الشعور بأننى تحررت من مستبد . ولم أكن أعرف حقيقة لماذا حدث هذا . لدرجة أننى تخيلت أن روح يهوذا قد حلت فى ماريجوندا .. ذلك اليهوذا الذى ظل فى الماضى مستشارى لفترة طويلة ، عندما كان يريد أن يتخذ مواقف إنسانية .

وبهذا الخيال قطعت الشارع إلى المدينة ، فصادفت ، أحد الزملاء ، الذى ما إن عرف من أين جئت حتى أساء إلى بقوله :

« أراهن أنك الوحيد الذى رافق ذلك الجاسوس إلى الميناء ! ... » .

شعرت بالدهشة والمهانة .

أضاق الرفيق :

« لابد من سرعة إبلاغ الأصدقاء هناك » .

فكرت فى الكتابة إلى جورجى ، لأنه كان من النشطين فى تلك الجماعة :

ثم قلت بينى وبين نفسى : « هل يكون حقا ؟ » .

لكن لا الفكرة ، ولا الشك فى أنها جاءتنى ، خرجت من فمى . كنت متوجسًا، وقلت : « أنا لا أعرف أحدًا فى باريس » .

عندما عاد جورجى من باريس ، عرفت أن الخبر قد وصل قبل ماريجوندا .

بعد أن عاد جورجى من باريس أصبح أكثر حيوانية من ذى قبل . تعرف هناك بإيطالى عبقرى . فعرف أن «العبقرية» لا تحتاج إلى التعلم فى المدرسة . وهذا هو السبب فى أنه هجر الدراسات .

الذكرى الوحيدة التى يجلها هى حركة « بونو» .. تنفس – مع الصديق الإيطالى – هواء تلك الأيام . وتحدث هو عن ذلك ، كما تحدث عن نتيجة مغامرة مجيدة . يقول : « ما زالت تلوح أمام عينى السيارة الحمراء للص الثورى » .

وهتف : « لقد كان ذلك رجلا ! » .

ويفخر بأنه اشترى زجاجة شمبانيا كانت مزدهرة فى واجهة محل البقالة من قذيفة مسدس بطله ، بينما كان يدافع عن نفسه من مطاردة الشرطة .

« فى صحتك يا بونو ! » .

شرب جورجى وصديقه الإيطالى ، على مائدة النزل ، مشهرين بالبرجوازيين المتقاعدين . وبهذا حصل جورجى على الشهادة .. وسيظل يحكى هذا الحادث طوال الحياة .

منذ فترة قصيرة اتخذ جورجي زوجة . وأصبح الآن سيد البيت خلفًا لإيانكو الذى قد مات فى لمح البصر لإفراطه فى الطعام .. فقد أكل بشره ، وفى ساعة متأخرة من الليل ، حيوانات بحرية كانت قد فسدت بسبب فترة التزاوج فى الشهور التى لا تتضمن حرف « ر » .

لم تكن ميرى قد انتحرت بعد .

أصيبت أرملة سبيريديونى بسوس فى العمود الفقرى جعلها تزيد انحناء عامًا بعد عام . لكنها تواصل عملها خادمة مع خادمات المنزل . وتواصل تدليل بانايوتى ، المفضل لديها على الدوام ، والذى أصبح عجوزًا هو الآخر . لم تنزل أرملة سبيريديونى إلى الشارع منذ سنوات عديدة .. منذ موت زوجها ، لم تشاهد سوى مرتين فقط فى الطابق الأرضى المضاء بالسقيفة الزجاجية متعددة الألوان .. مرة عندما حملوا إيانكو للخارج ، ومرة عندما تزوج جورجى .

لكنها لم تنتبه إلى لون واحد من الألوان الجميلة التى كانت تحيط بها .. أمينة تجمع شعرها الرمادى فى المنديل المزين ، المعقود خلف رقبتها .

كان المنديل يلمع كتاج على جبينها وحول رأسها ، تهدده الفصول ويصدر بعض الرنين عندما تسير أمينة بسرعة بسبب الزينة النحاسية التى توشيه .

بعد أن فشلت المحاولات فى ارتباط إحدى سكان الجزيرة ببانايوتى بخاتم ذهبى ، وبموت السيدة كاريكليا ، صانعة عقود الزواج المستحيلة ، فإن قصب النصر ظل على الدوام فى قبضة أمينة .

ولـــــكن أمـينة لم تبدِ أى نوع من التبـاهى ، وظلت هـى الخـادمـة كمـا كانت من قـبل . وأقصى مـا كانت تقوله : « الآن أنا متـأكـدة أننى سأموت فى هـذا البيت » .

حتى يكون لديك مقياس مضبوط عن كيف يتغير شكل الناس فى فتـرة سنوات قليلة فـقط ، فإن الأمـر يحتـاج أن تبتـعـد عمن تعـرفـه من الناس ، وتفكر فيهم – أصدقـاء وأقرانًا – بعين العقل الشـابة ، كمـا كنا نفـعل مع أولئك الأقران والأصدقاء ، حين كانت تجرى الحياة الطبيعية والعلاقات المألوفة بين المقربين .

الوجه الطبيعى يسير موازيًا للوجه الأخلاقى .

الوجه الذى يسجل لك حتى مـا تفـكر فيـه الآن وتـؤمن به وطـريقة حياتك ؛ لأن الحياة هى التى تروض الناس من الخارج ومن الداخل .

فـعلى سـبيل المثـال .. ثلاث نسـاء ، رأيتـهن مـرة بعـد أخـرى بعـد خمسـة عشر عامًـا ، نسـاء مليئـات بالخبرة ، عـانين الصـراع من أجل البقاء ، لهن وضـع اقتصادى معين ، يثير دواعى الشفقة على أيَّة حال .

هـا هن أولاء :

آرجا بيلادى . والدة جيرفازيو . أندلسة والدة بيبيكو .

لكن واحدة منهن فقط نحيفة . ظروفـها الاقتصـادية لابد أن تكون فى غاية السوء ، ويبدو أنها لم تتزوج مرة أخرى .

شعرها مكوى .. يختلط فيه السواد بالبياض ، ممشط ومنساب . مطلق هكذا دون الكثير من العناية بتشكيله .

الملابس التى ترتديها – مجددة – هى تلك التى كانت ترتديها حينئذ ، لكنها هى لم تعد بداخل تلك الملابس .. كان بالداخل بدلا منها شىء آخر ، عوضًا عنها ويقلدها .

تسير نشطة تلك الملابس .. صباحًا وبعد الظهر وبعد العشاء مساء تسير وذلك الشىء ما زال يحيا بداخلها ، لأنها تدعمه . حتى أنا لابد أن أكون قد تغيرت إلى الحد الذى جعل والدة جيرفازيو لا تتعرف علىّ .

لم تكن أندلسة ترضخ بعكس الأخرى .. إنها تلك التى كانت ، ولكن لم يتبق مما كانت عليه سوى الملامح الساخرة .. كبرت العيوب ، بالألوان الزاهية على الجلد المرتخى ، وبذلك تغطى حتى القليل من الطيبة الموجودة تحته .

وهى – على العكس – تؤمن بأن الشباب تحفظه ريشة الزينة . تُرى هل هى فى حاجة إلى البعد عن الشيخوخة ؟

« جئت لكى أحيى بيبيكو . سأسافر فى خلال بضعة أيام » .

تعجبت أندلسة من موقفى هذا بعد خمسة عشر عامًا لم ترنى فيها .

فقلت لها : « لدينا جميعًا شىء من الجنون » . وحينئذ أجابت :

« أعرف هذا » .

ثم اعترفت لى على الفور بمخاوفها تجاه بيبيكو ، منذ ذلك الحين وفيما بعد ، وقالت لى : « بعد أن انفصلتما – ولسنوات متتابعة – كان

بيبيكو يذكرك فى صلواته المسائية .. كان هناك دائمًا دعاء مكرس لك . ويقول : « من أجل ذلك الإيطالى ، فليحفظه من أعرفه أنا » .

ثم حكت لى أندلسة عن زوجها المشلول منذ ثلاث سنوات ، وعن فشل الفندق ، وآلاف التفاصيل الأخرى .

« هل صمتت عن شيء ؟ » .

« فعلت حتى ما لم أكن أريده ، من أجل ابنى ... لكنه الآن ، والحمد للّه ، يعمل نائب مدير أحد البنوك فى مصر العليا » .

تحولت آرجا إلى سمينة جميلة .

تشبه هولندية أكثر مما تشبه إيطالية من بيزا .

يمكن أن تكون ذات ثمانية وأربعين عامًا الآن ، لكن الشعر الأبيض لم ينتشر كثيراً فى رأسها . فهو مرتب بعناية ، ما زالت آرجا امرأة متجددة الشباب . مشرقة ، ووفرة اللحم (التى تعنى وفرة الحياة) لا تتعارض مع شخصيها ، نشطة كما هى ، مثلما كانت عندما عرفتها ، وكان مظهرها مختلفًا تمامًا ، وأستطيع أن أقول حتى مظهرها الاجتماعى .

ومن ثم فهى هكذا تعد أسرة من الشعب فى اتجاهها ، لأن تكون برجوازية .

لو كان جويدينو لا يزال على قيد الحياة ، لنال الآن شهادة فى أحد العلوم .

وحتى لو كان لآرجا ابنة ، فقد كان من الممكن أن تعزف البيانو في الصالون الطيب ، في أيام الاستقبال .

دفعة واحدة لبيلادى من أجل « التحرر » كما كان يقول هو حينئذ . لكنه نال أكثر من « التحرر » ثراء سريعًا ، كما يحدث في هذه البلاد ، مرة واحدة ويعرف الطريق ..

من يدرى لو عرف سالوموني سلامة ثمرة الجنيهات المصرية القليلة التي ذهبت إلى أيدى بيلادى ، والمسلوبة من رسوم جنازة والدته !؟

* * *

الخميس

آخر مارس ١٩١٤م .

ومع ذلك ، فلا يمكن الرحيل والعيون جافة .

ربما سيكون أشد وطأة ، لأن المراسي رفعت عندما كانت الشمس تنحدر .

المواقف .. الأشخاص .. رؤية الأماكن التي نودعها .

وتلك الساعة من اليوم التي تتمثل أمام الرجال ، فوق مقاييس النفي الأخرى ... كل شيء يثقل على النفس فيضاعف الإخلاص أكثر

من عواطفنا المصنوعة الأخرى (ربما يكون الأفضل ألا نسلم بالهجر أبدًا؟ مخترقًا الساعة والدقيقة الخطرة .. تشرد النظرة إلى الأشياء اللاذعة . أو تشارك فى المناقشات الثائرة ، ملحًا على السبب لكى يبدو قويًا ، فى أثناء الإقلاع الأول ؟) .

لكننا ، الآن - بخلاف ذلك - على سطح الباخرة ، حتى لا يعمينا البريق الأعلى ، عند فم الميناء ، كنا ندير رءوسنا تجاه مقدمة السفينة ، التى تشرع فى التحرك بخبرة المرشدين ، جهة مخرج الميناء .

ببطء ، لأن الصخور القديمة التى فى الأعماق تحت المياه العكرة فى هذا الميناء ، غير مرئية ، والشرود لحظة عن ذلك الحدس الذى يتوارثه مرشدو السفن مع الدماء من الأب إلى الابن .. شعور تقريبى ، عن الطرق المفتوحة فى الأعماق بين آلاف الصخور . الشرود لحظة يكفى ، لكى ترى السفينة ترتطم بصخور الميناء المدفون ، الذى كانت تحدثنى عنه أخت تويل الحسناء .

وكان شيئًا ممتعًا بالنسبة لى ، وأنا أشاهد الأثر الذى تتركه السفينة وهى تشق الماء المزيت للميناء (ذلك الأخدود الذى يتجه نحو المدينة) كأنه طرق ملتوية تحدها أسوار محصنة ، من يدرى من أية صخور جهنمية صنعت ؟ ربما من البازلت ، أو الجرانيت بحجارته ، مثل تلك التى شيدوا منها الأهرام .

ولبرهة وجيزة ، كانت هذه الأخاديد هى مظهر الفتنة الخيالية الوحيد لروحى المنزعجة ... وبعد ذلك نادتنى المدينة التى كانت تبتعد .

حتى بيوت « المكس » الصفراء ، اختفت تفاصيلها .. لأنها كانت تنسجم مع لون الرمال .

عبرنا أمام « رأس التين » إحدى البواخر راسية على الجسر تنفث الدخان ، ربما هى « نور الدين » نفسها ، منذ كنت أعمل بها ، وهى موقدة دائمًا .. مستعدة لإنقاذ السفن التى تتعرض للمخاطر .

ذكرنى ذلك الدخان بالغلاية والمخاوف . بيبيكو .. محمد ، والنجاة بسر الكتابة التى أبعدت عنى الشيطان، والتى كنت أضحك منها حينئذ . أنت أيضًا كنت تضحك يا محمد ، لكن عن يقين .. كنت تعتقد بأنك عرقلت الشيطان وطردته من أجلى .

محمد .. كم كنت أكثر سعادة منى ... !

ألقيت باللوم على الشمس وهى تغرب ، بل سحبت عليها شيئًا من ضيقى . الشمس التى زاحمت السفينة وبدت مجهدة وهى تبعثر الكثير من الضوء . لكن بالقلب نفسه نظرت إلى المدينة نظرة وداع ، تلك المدينة التى أنفقت فيها شطرًا من حياتى .

إنه شعور طبيعى دون تمييز للجنس، حين لا يكون الإنسان وحشًا، أو حين لا تجمل براءة الطفولة المندهشة (كتلك التى لأولادى الذين لم يعانوا الفراق) ذلك الشعور ، الذى ربما يبدو على العكس عديم الحس .

زوجتى التى ولدت هنا ، تقف معى على سياج سطح المركب ، ولا تتكلم .. لا تستطيع أن تنتزع نفسها من المدينة التى تتلاشى ،

وأشعر أنها فى بيت الطفولة تتأمل فى داخل نفسها ، مع ذويها ، حين كانوا يافعين .

فى المنزل الذى كانت فيه زوجة وأمًا بعد أن رحل الكبار إلى مملكة الراحة . الخلود ، هناك على هذا القارب على سلم السنين ، لنقاسى نحن ، ولينبهر الأبناء بالمتعة التى تمنحهم إياها بداية الرحلة ، مفاجأة بعد مفاجأة .

كل برهة يتركز انتباههم على شىء تافه ، يصبح بالخيال كبيراً ، ويحكم أعمارهم هائلا ..

والشمس التى يرونها دائمًا لا تمثل لهم شيئًا ، لا شىء يفاجئهم .

لكن قوارب النجاة المعلقة فى الهواء وتتدلى بالحبال إلى دعامات من الحديد معقوفة من الخارج .. تظهر فى البحر على يمين ويسار المركب ، هى ليست مراكب للإنقاذ ! لكنها اكتشاف غريب ، توجد فى المركب حيتان الملاهى التى يستمتعون بها فى الميادين فى العيد ، لأنه أيضًا فى مصر توجد « مراجيح وبلياتشو » فى احتفالات رمضان .

وصيحات الصفارات التى تريد أن تقول وداعًا ! والتى تخرج مفترقة من بين جانبى المدخنة ، وتبعث عاليًا فى الهواء سحابة من البخار شديدة النقاء ، تعود لتسقط رذاذًا متقاطرًا على ألواح سطح المركب التى تمتلئ بالنازحين السوريين .

يصيح الأولاد من فوق جسر السفينة الذى تغطيه خيمات الاحتماء « المطر ! المطر » فرحة منطلقة .. صياح وتقافز .

ولحسن الحظ فالأولاد ليس لديهم قلب فى ذلك الحين يعرف الأحزان .

ولو أنى قد قلت ذلك لأولادى إن أولئك المهاجرين الفقراء ، النساء والرجال والأطفال ، كانوا ينامون على « السطح » حتى لا يختنقوا من الدخان ومن الحرارة ، فى مركب الشحن ، حيث اجتمعوا على موائد كتلك التى للمسجونين، فإن أغلب الظن أن أولادى قد نسوا هذا الكلام .

وعلى أية حال ، فإن ذلك الرذاذ من المطر شتته فى الهواء عواء الصفارات وانحدار شمس الغروب بين اللونين الأحمر والذهبى .. كان المشهد على درجة من الإبهار جعلت إحساسهم بالبؤس يتحول إلى سعادة غامرة ، حتى لو كانت هناك أمطار حقيقية وبللت فرشهم ، ففى وسع المهاجرين أن يناموا عليها .

جاء صوت جديد لآلات السفينة فوق سطح البحر الهائج قليلا ليقطع على الكبار أفكارهم ، وعلى الصغار مرحهم ، حتى أن الباخرة توقفت قليلا لفترة تسمح بنزول قائديها إلى القوارب التى تعود بهم إلى الميناء بعد أن انتهى واجبهم . نحن الآن خارج بوابات الميناء على الحزام الأول من الصخور التى تتكسر عليها الأمواج ، أصبحنا فى مواجهة البحر المفتوح .

وإذا نظر الإنسان إلى الأفق من مقدمة السفينة ، بمساعدة الشمس التى لم تعد قوية الآن ، فإنه يلمح السماء مقعرة فوقنا والبحر المجعد ، ينحنى حول عالمنا المستدير .

الأمراض الطبيعية ، يقاسيها الكبير والصغير على السواء ، المجانين فقط هم الذين لا يعانون . وبالنسبة للرضع فنحن نعرف أن بكاءهم عندما يكونون جائعين .

لكن كل الفئات الأخرى من البشر بدءًا من عمر معين فما فوقه ، فإنهم يعانون بؤس «الأسقام» ، وفى هذا يقاسى الأبناء مثل الآباء تمامًا وليس هناك عقل للتقدير ، إذا لم يكن شيء من التحمل للألم عند الآباء ، حتى لا يظهروا بمظهر النذالة أمام الأبناء . ولقد تحققت أن هذا الحب الخالص غير مغروس فى غريزة الأبناء .

الآن لم يعد أولادى يجرؤون على المرح .. بدءوا يتألمون الآلام الملحوظة من دوار البحر .

أنا أحاول أن أشغل نفسى وأحاول أن أشغلهم أيضًا ، فأشير إلى قارب صغير ذى مجدافين بزغ الآن فجأة بين الأمواج ، بمجرد أن نشر ربانه الأشرعة ، انتفخت بالرياح بعيداً عن الميناء ، ذلك القارب ، فى وسط البحر تمامًا والتفكير كيف سينجو إذا حل المساء ، أو إذا ارتفع إلى بحر آخر كما يبدو بأنه يريد أن يفعل ، وأسرع المجدفون كأنهم يريدون أن يصلوا إلى سفينتنا لا إلى الميناء . يحددون اتجاهنا بكل عزم . ولكن بدون فائدة ، لأن السفينة تستعيد حركتها ، وتزيد سرعتها دقيقة بعد دقيقة .

وأى عناد ذلك الذى عند المجدفين ؟

إنه شيء غامض لا أعرف كيف أجيب عن فضول الأولاد الذى يدفعهم لمتابعة الأسئلة ، سؤالين أو ثلاثة فى نفس واحد .

فكرت فى خداع البصر . فأوحيت إلى أولادى بهده الفكرة الخيالية .

لكنى يجب أن أراجع التفكير فوراً : هم أحد البحارة بالتخلص من صندوق مليء بالقمامة بإلقائه فى البحر ، وكان هذا البحار قريباً من السطح ، بين المهاجرين .. تحت المكان الذى كنا فيه .

طفا الصندوق فوق الأمواج الثائرة .. ثم أصبح نقطة بيضاء على المياه الزرقاء .. أولادى يريدون أن يفهموا .

أفهمنى أحدهم أن الأمر يتعلق بشحنة تهريب مخدرات محظورة قانوناً .

أولادى يريدون أن يفهموا .. يثير الحظر فضولهم .. يلحون بالأسئلة : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » .

وأنا أقول لهم : « إنه سم يسكر به العرب ، فقد حرم عليهم محمد شرب الخمر » .

منذ سنة وأنا لم أستمع إلى قداس ؟

اليوم استيقظت قبل بزوغ الشمس على الماء . من الفجر وأنا مستيقظ فى « القمرة » ، رأيت البحر من « النافذة » . قلت لنفسى : « هذه معجزة » أن أراه عابساً من النسمات ، كما لو كان ورقة شفافة تهتز برقة من أى نفس .

أين ذهبت الأمواج المزعجة الشيطانية التى كانت أمس وأول أمس وسببت لنا المعاناة ؟ والعواء المخيف للعاصفة ؟

إن هـذا عالم حالم صامت !

الماء صاف مثل ماء نبع صاف . والسماء معكوسة عليه . شفاف ساخن يبشر بشمس شديدة تعشى أعيننا عن رؤية مياه البحر .

جديد :ولدت من جديد .

صفاء فى عقلى لا أذكر أنى شعرت به أبدًا من قبل .

الصوم فى هذه الأيام وكونى متحررًا من الصفراء (كنت أشعر بها بسبب المرارة التى تتخلف فى فمى ، بعد كل إصابة بدوار البحر) استطاع أن يوهن ساقى ، فى الواقع أنا أترنح كما يحدث عندما ينهض الإنسان من الفراش ، عقب مرض ، لكن هـذا الضعف لم يؤثر فى عقلى ، فإنه ناصع اليوم مثل عقل أعيد تنظيفه من السموم ، كل شىء يمكن أن يدرك يمقياس مضبوط .

كانت بالنسبة لى معجزة ثانية ، فلقد استطعت أن أتأمل فائدة الصوم . صعدت إلى سطح الدرجة المتميزة .

ما زالت خالية من المسافرين . البلاط مبتل ، من جراء عملية النظافة التى قام بها البحارة فجرًا .

الرجل الذى يلمع النحاس بالقرب من السياج الذى يشرف على الطبقة السفلى الخاصة بالمهاجرين السوريين موجود هناك للحراسة ،

وأيضًا لفتح الكراسى التى تحتاج للإصلاح وترتيبها فى وضع معكوس ، هذه الكراسى المخصصة لاستراحة المسافرين ، وبمجرد أن رآنى أحضر لى كرسيا وفتحه ، وقال لى :

« فى أى موقع هنا على السفينة تريده اليوم ، ستكون بخير .. ليس هناك رياح ، والبحر مثل صفحة الزيت ، لا يصل إلى تكوين الزبد» كنت مواجهًا للسياج عندما نادتنى تلك الأصوات الآتية من الأسفل .

المهاجرون كلهم فى حالة استعداد .

قلت : « لقد جاء الجمع مبكرًا » .

أجابنى البحار : « حدث هذا بالقوة ، فعندما تمر بالمضخات من أجل تنظيف الطبقة السفلى فى الصباح الباكر ، فإننا نكون أكثر من المنبه ضجيجًا ! والأمر يحتاج إلى تكويم فرشهم فى عجلة ، إذا أرادوا النجاة من زحف الماء عليهم . ولكنهم عمومًا يعودون بفرشهم تحت السطح ويستقلون عليها ويعاودون النوم » .

« لكن اليوم الأحد ، ألا ترى حضرتك أنهم يلبسون ثياب العيد؟ » .

فى الواقع ، طريقة لباسهم تبدو أكثر دقة منها عندما كنت ألاحظهم يوم الرحيل ، وأيضًا الألوان . وخصوصًا ثياب النساء والأطفال ، فإنها زاهية جدًا . ويبدو من جدتها أنها محتجزة ليوم الأحد .

من ممرات الدرجة الثالثة ، يواصل ذوو اللباس الجميل الخروج ، يخرج الكثيرون منهم حليقى اللحية . شواربهم تلمع مرتفعة لأعلى .

وسوالفهم الطويلة المفروقة على الخدود اللامعة ، لكن الكثيرين ينتظرون دورهم ، كأنهم فى صالون حلاقة ، عند أحد الجوانب «للطبقة السفلى» ، حيث قام اثنان من المهاجرين بتوفير خدمة الحلاقة . وكأنه ميدان فى قرية يوم أحد .

هؤلاء الناس الذين يبدون اليوم سعداء ، هم محرومون من كل شيء . ما عدا الأمل فى العثور على عمل وخبز فى وطن أقل جحوداً من ذلك الذى شهد مولدهم .

تعاطفت معهم ، وتحركت مشاعرى عند رؤيتهم مغيرين ثيابهم ، على طريقتهم هذه فى الاحتفال بالعيد ، هؤلاء المهاجرون السوريون أصبحوا منا لو كانوا مواطنىَّ من لوكا على سفينة فى طريقها إلى أمريكا ، متنكرين كما هى العادة فى الاحتفال بيوم وصول الرحلة مروراً بخط الاستواء .

الشمس الآن تشارك فى المأدبة .. تبرز فروق الألوان الزاهية ليوم الأحد .

العيد هو فى اجتماعهم ، حيث أعدت مائدة فى منتصف «الطبقة السفلى» وكل واحد من المهاجرين أخذ مكانه حولها .

« أوليمة هى فى وقت مبكر كهذا ؟ » .

واصلت سؤال البحار : « هل هى ساعة إفطارهم ؟ » .

فأجابنى : « لا . إنهم يعدون الهيكل للصلاة » .

« الصلاة على متن المركب ؟ » .

« لكن هل هى حقا صلاة مشروعة ؟ » .

يقوم بها أحد القساوسة وكأنها قداس فى ساحة المعركة خلال الحرب ؟

« هو حقًا هكذا. هؤلاء السوريون المهاجرون إلى أمريكا، يحرصون على أن يكون معهم قس من طرفهم ، مهاجر هو أيضًا » .

« الآن ستراه . ومن جهة أخرى فإن البواخر القادمة من البحر الأحمر تحمل على متنها دائمًا قسيسين ورهبانًا عائدين إلى أوطانهم » .

« وعلى هذه الباخرة. معنا بالإضافة إلى المهاجرين الفرنسيسكان، ثلاث راهبات وأب عجوز من طائفة سان بنيديتو ، طاعن فى السن ، وبالتأكيد هو من الشخصيات البارزة . يقطن الدرجة الأولى ، وأعتقد أنه – على أقل تقدير – لم يدفع تذكرة » .

لكن البحار نظر إلىّ متأسفًا وقال :

« لقد رأيتهن الآن ، الراهبات ، على المائدة ، فى الدرجة الثانية على السطح فى هذه الأيام » .

« لا . لم أر أحدًا . كنت قابعًا فى حجرتى ، مصابًا بدوار البحر حتى هذه الليلة » .

« أنا صائم . وعند رؤية تلك المائدة ، راودتنى فكرة أنه موعد تناول الإفطار ، فجعلتنى أبتسم » .

« أيضًا هؤلاء صائمون » .

« لكنهم ينتظرون بعد الصلاة ، لتناول الطعام ... بينما سأذهب حالا لأحضر لحضرتك شيئًا .. فإننى هنا للحراسة ولتوفير هذا أيضًا » .

كان يريد أن يحضر لى هنا ، فى انتظار إفطار ركاب درجتى ، – على الأقل – فنجانًا من القهوة السوداء ورغيفًا صغيرًا محشوًا « بالزبد والأنشوجة» كنت أقول لنفسى : « تكون جيدة للمعدة بعد متاعب دوار البحر » .

إن سماع تسمية هذه الأصناف الشهية كان إغراء كبيرًا لشهيتى .

غير أن حبًا خالصًا منعنى من الشروع فى الأكل وشرب القهوة هناك ، على الحاجز ، على مشهد من المهاجرين الصائمين .

وحيث إنى لم أكن أعرف التصميم ، فإن البحار الساخر قال لى :

« ولكن كيف يا سيدى ؟ لا أعتقد أنك تنتظر أخذ البركة مثل السوريين ؟ ! » .

فأجبت : « لا أريد أن أتخلى عن المشاهدة » .

لكنه ألح :

« المشاهدة تراها الأعين ، والأسنان ماضية فى المضغ » .

« سيدى ، استمع لى ، لا تحتقر معدتك » .

فأجبته بلهفة :

« لا ... ! لا ... ! سأنتظر أنا أيضاً ، لآكل بعد الصلاة » .

حينئذ نزع البحار الكرسى المريح الذى كان قد قربه لى ، وطواه ، وقرب كرسيا عاديا إلى الحاجز . وقلبه من جهة الظهر على السياج وقال : « إذا أردت حضرتك أن تتكئ بركبتيك عليه ... » .

لم أجب ...

لقد خضع البحار .

لكن الثقة نفسها فى كلماته صدمتنى .

المفرش الآن فوق المائدة فى وسط « السطح » كان دائرى الشكل ومزيناً ، وحتى لا يطير المفرش فى حالة هبوب الرياح ، فإن حبلا كبيراً ينسدل من الجوانب الأربعة على أرجل المائدة يمنعه من الطيران .

قلت لنفسى : « إذن فهل فكروا فى هذا أيضاً ، قبل الرحيل ؟ » .

الآن المهاجرون الفرنسيسكان هناك يراقبون نظام المائدة . يثبتون المفرش على أرجل المائدة الأربع .

وفى الوقت نفسه ، ومن مكان يبعد قليلا عن المائدة كان آخرون يحملون كرسيين وعلى واحد منهما صندوق صغير ، ويسيرون باحتراس كما لو كان الصندوق يحتوى على أشياء قابلة للكسر .

ظل مفتاح ذلك الصندوق فى حلقة مع صليب فى قلب التاج ، متدليًا من الحبل الذى ربطه القس فى جنبه .

وضعوا على الكرسى الآخر سلة من الخوص كانت تبدو مليئة بالغسيل . ولكن فى الواقع ، بعد أن رأيتها ، عرفت أن ما بداخلها كان أغراضًا من أجل الشعائر .

رفع الفرنسيسكان التاج . ضيق بإصبعيه السبابة والإبهام حلقة المفاتيح وفتح الصندوق الصغير الذى بداخله شىء ضخم هو عبارة عن علبة بيضاء شبه مربعة ، وتميل إلى الطول .

أوقف تلك العلبة ، على المفرش ، رأيت أنه كمن يحفظ كأسًا زجاجيًا . فى الواقع كان الأمام كله فتحة صغيرة : انفتحت طوليا ، وكان هناك فى الأعلى صورة عصفور ربما كرمز لروح القدس التى تتشكل فى شكل حمامة . أو ربما ، كان هذا الرسم ، بجعة ذات منقار تنزع من صدرها الريش الناعم .

أو شىء آخر يشبه هذا يجب أن يكون مرسومًا هنا ، على ذلك المنفذ رسم صغير أستطيع أن أخمنه من موقعى هذا أكثر مما أراه .

أصبحت العلبة الآن « كقبة العهد » .

انتزع الفرنسيسكان من الصندوق الكبير زجاجتين : واحدة فيها ماء والأخرى فيها نبيذ ، وقطعة مربعة صغيرة من الرخام وضعها فى وسط المفرش .

منصة وكتاب صغير للصلاة . وشمعدانان بهما الشموع ، وجرس صغير .

علبة فضية صغيرة ، وصليب محاط بمجموعات صغيرة من الزهور الورقية .

الآن اكتمل الهيكل عندما فرشت سجادة سورية أمامه على الأرض .

هيكل صغير (هذه الأشياء الدقيقة لأداء الشعائر) مثل تلك التى يصنعها الأولاد بواسطة أدوات خيالية مقلدة ، فى شهر مايو فى فيرسيليا ، الآن أتذكر هذا .

منذ كم سنة لم أستمع لقداس الصلاة ؟

بعد أن جهز الفرنسيسكانى متوسط العمر ، المذبح ، كشف الغطاء عن السلة . وأخذ عباءة القداس ولبسها . واتجه صوب الدرجة الأولى .

بعد قليل ، ظهرت أمامى الراهبات الثلاث (اللاتى حدثنى عنهن البحار من دار الأيتام التابعة للقديس قوتولينجو .

يا لهن من جميلات ! جميلات !

من وراء الحجاب اللامع مثل المرآة تظهر وجوههن الشابة ، ذات اللون الزيتونى .

الراهبة الأولى كانت تسند كرسيا من الكراسى المريحة .

الثانية تحمل وسادة على ذراعيها .

والثالثة تمسك بيدها اليمنى شمعة صغيرة رقيقة مشتعلة ، كتلك التى توقد فى عيد الفصح . وفى يدها اليسرى تحمل مبخرة من الفخار فى داخلها قطع الفحم المشتعلة .

وضعت الأولى الكرسى بالقرب من السلة الخوصية ، التى ما زالت فيها الأمتعة المقدسة .

والثانية وضعت الوسادة على السجادة ، أمام الهيكل ، من أجل الركوع عليها .

وأسندت الثالثة المبخرة المشتعلة إلى جانب الهيكل . وأشعلت شموع شمعدانين هنا وهناك عند قبة العهد . وأطفأت مشعلها الذى يشبه مشاعل عيد الفصح .

بعد ذلك انتحت الراهبات الثلاث جانباً ، وفى الحال جثون راكعات من المهاجرين الذين ظهروا الآن ، كان الراهب الفرنسيسكانى يدير الأمر ، فهو البطرك الموقر . كان شكله يوحى بأنه مثقل بالسنوات ، ولكنه فى الحقيقة صغير البدن .

اللحية البيضاء ليست طويلة مثل لحى قساوسة القرن السادس عشر ، ولكنها مستديرة على الطريقة السامية ، تكشف عن طول بقائه فى الشرق .

وأيضًا طريقة منح البركة وطريقة التحية : تقليدية وبطيئة ، لا أقول إن هذا البطء فقط بسبب التعب وكبر السن ، ولكن بسبب الرقة المكتسبة من العرب ومن اليهود .

الآن ، حل الصمت ، أدركت فيه تمييز خطوات القسيسين تزحف بعضها على طاولات سطح المركب وتدب الأخرى بوقار الفرنسيسكان بصنادلهم المرفوعة .

الآن بينما كان الراهب يخرج الأمتعة من السلة الخوصية ، كان الأب المبارك يبدو فى جلسته واثقًا من نفسه قام بحركة توحى إلى المهاجرين بأن ينهوا حركة الركوع وتحول ببصره إلى الأعلى ، على السياج الذى نقف عنده ، مبتسمًا (لم أعد هنا وحدى ، فالبعض ينتمون إلى أديان أخرى) .

وهو يبتسم لبعض المسافرين الذين يطلون مثلى ويتطلعون إلى المشهد . كنت خاضعًا لذلك العجوز المقدس الذى يراقبنا ونحن نتطلع وظل يرمقنى طويلا ، لأننى أقرب شخص إلى وسط السور وكأنه يريد أن يقول فى لوم ودود : « يمكن للإنسان أن يكون ملحدًا ، وخاصة إذا كان غريبًا عن ديننا وأمام هذه الطقوس . ولكن هذا لا يعنى أن يفتقد إلى الأدب » حينئذ نزعت القبعة من فوق رأسى .

أيضًا الملابس كانت وظيفة طقسية ، فكل قطعة يضعها الفرنسيسكانى على ظهر القس العجوز ، كانت تصحبها صلوات وإشارات ، ومن ناحيتى فلم أفلت أية شعيرة ، حتى لو كنت غير فاهم الكلمات ولا المعانى ولا الإشارات .

كان الأب متأهبًا ، نهض على قدميه ودون أن يتقدم قصد إلى قراءة كتابة منقوشة على لوحة صغيرة مطلية بالدهان . وفى أثناء هذا

الوقت اقترب الفرنسيسكانى من المذبح . وفتح العلبة الفضية الصغيرة، التى – كما رأينا من قبل – تحتوى على البخور . بملعقة نظيفة كانت فى داخل العلبة ، غرف من المادة البيضاء ذات الرائحة العطرة – التى ذكرتها – ووضعها على الفحم المشتعل فى المبخرة التى تركتها الراهبة هناك . جثا على ركبتيه . نهض . فتح شباك قبة العهد . وعاد إلى جانب الأب ، الذى تحرك بدوره تجاه المذبح .

« وبدأ الصلاة المعهودة » .

أحاطت بى الكلمات الأولى للصلاة ممتزجة بسحائب البخور المنبعثة من المبخرة أعلى المذبح ، تتصاعد شفافة متداخلة : فتصنع جوا سماويا .

بعقلى الذى صقله الصوم ، – كما ذكرت كثيراً من قبل – اهتديت إلى التواريخ والمراحل التى مررت بها من الإيمان إلى الإلحاد .

رأيت الأماكن رؤية بصرية :

ها هو ذا سان توربه فى بيزا عام ١٨٩٥م .

ها هو ذا سان توربه فى بيزا . أيضًا وقتها كان شهر مارس (١٩ من مارس يوم عيد القديس يوسف) ، حيث فى أثناء الصلاة ، وبسبب صومى للأيام المباركة فقدت الوعى .

كانت تلك واحدة من آخر الصلوات التى استمعت إليها فى خشوع التدين ، قبل أن أركب البحر فى فجر الشباب . ثم بعد ذلك وأنا مهاجر مثل السوريين الذين يركعون اليوم على أرض السفينة .

وعندما تحول القس : فتح ذراعيه ، وختم الصلاة .. ونهض المهاجرون ، وانتبهت إلى أنى أنا أيضًا كنت راكعًا على الكرسى الموضوع هناك فى مكان جميل على ذلك الشكل ، وضعه البحار ، الذى شعرت منذ قليل إزاء كلماته بالكبرياء والاضطراب والغيظ .

* * *

المؤلف فى سطور :

إنريكو بيا Enrico Pea

- ولد فى إيطاليا - مدينة Lucca - مقاطعة Serravezza عام ١٨٨١م يتيمًا - كوّن ثقافته تكوينًا ذاتيًا ، اضطر أن يعمل فى الأعمال اليدوية .

- نزح إلى مصر وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، حيث اشتغل ميكانيكيا فى ميناء الإسكندرية لبعض الوقت ، ثم دخل فى تجارة الرخام .

- عاد إلى موطنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥-١٩١٨م ، استقر فى Viareggio، حيث أدار مسرحًا .

منحته الأكاديمية الملكية الإيطالية جائزة (Angiolo Silvio Novaro) عام ١٩٤١م .

- بدأ حياته الأدبية بمجموعات شعرية ، وأعمال مسرحية .

- أهم أعماله القصصية : Moscardino - والوجه المقدس - وخادم الشيطان - وأشواق المسيح .

وفى النثر الفنى : الحياة فى مصر - وقطار الحصى - Spaventacchio ، وغيرها .

* * *

المترجمة فى سطور :

د/ نجوى عمر كامل حسن

تاريخ الميلاد : ٢٣/٦/١٩٦٤م – المنيا .

المؤهلات : ليسانس اللغة العربية – كلية الألسن – جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م .

– ماجستير الألسن (النقد الأدبى) بعنوان : { الجوانب الأدبية فى مؤلفات زكى نجيب محمود } عام ١٩٩١م .

– دكتوراه الألسن (الأدب المقارن) بعنون : { الأدب فى مصر وثقافة البحر الأبيض المتوسط فى مطلع القرن العشرين – دراسة تحليلية مقارنة } .

التدرج الوظيفى : انتهاء بالحصول على درجة أستاذ مساعد عام ٢٠٠٢م .

– الأبحاث والمؤلفات والنشاط العلمي – أبحاث أكاديمية في حقل الأدب المقارن ، والنقد الأدبى الحديث (الأسلوبية) ، وكتب دراسية .

– الإشراف على مجموعة من رسائل الماجسيتر :

– كتاب (سياحة فى أدب زكى نجيب محمود) .

– كتاب (الحرب فى الكتب المقدسة – دراسة مقارنة) .

– كتاب (الحرب الصليبية الأولى بين الشعر العربى والإيطالى) .

– مجموعة قصصية مترجمة لدينو بوتساتى بعنوان : (شبح الجنوب) .

– ديوان شعر بعنوان : (وشاعرة) .

– ديوان شعر بعنوان : (أغنيات عروس الوادى) .

المراجع فى سطور :

د . عامر عبد الحميد الألفي

تاريخ الميلاد : ١٥/٣/١٩٤٥م - بورسعيد .

المؤهلات : ليسانس الألسن عام ١٩٦٩م ، دكتوراه من جامعة روما (إيطاليا) عام ١٩٧٨م فى (تاريخ اللغة الإيطالية) .

العمل : كلية الألسن - جامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩م .

- التدرج فى الوظائف حتى أستاذ عام ١٩٩٥م .

- معار حاليًا فى جامعة الملك سعود - كلية اللغات والترجمة .

الأبحاث : أبحاث فى مجال اللغويات الإيطالية ، واللغويات المقارنة ، والأسلوبية .

- الإشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه .

المؤلفات : كتاب فى مجال تطبيقات الترجمة من وإلى العربية ، من ثلاثة أجزاء - مقبول للنشر بمركز بحوث كلية اللغات والترجمة - جامعة الملك سعود .

* * *

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوامريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام توميسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرا متي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسي
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مي التلمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنري ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوي	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧-	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادي	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩-	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	في انتظار البرابرة (رواية)	ج. م. كوتزي	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبري محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وأخرون	توفيق علي منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	علي إبراهيم منوفي
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوي
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	علي بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومي
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٦١-	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو منذوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	علي يوسف علي
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصرا ع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (جـ١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (جـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٢٧٩- ملك في الحديقة (رواية) — سنيل باث — جمال عبدالرحمن
٢٨٠- حديث عن الخسارة — جونتر جراس — شيرين عبدالسلام
٢٨١- أساسيات اللغة — ر. ل. تراسك — رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢- تاريخ طبرستان — بهاء الدين محمد إسفنديار — أحمد محمد نادى
٢٨٣- هدية الحجاز (شعر) — محمد إقبال — سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال — سوزان إنجيل — إيزابيل كمال
٢٨٥- مشترى العشق (رواية) — محمد على بهزادراد — يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى — جانيت تود — ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر) — جون دن — بهاء چاهين
٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر) — سعدى الشيرازى — محمد علاء الدين منصور
٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى — نخبة — سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى — إم. في. روبرتس — عثمان مصطفى عثمان
٢٩١- الحافلة الليلكية (رواية) — مايف بينشى — منى الدروبى
٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية — فرناندو دى لاجرانجا — عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣- في قلب الشرق — ندوة لويس ماسينيون — زينب محمود الخضيرى
٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون — بول ديفيز — هاشم أحمد محمد
٢٩٥- آلام سياوش (رواية) — إسماعيل فصيح — سليم عبد الأمير حمدان
٢٩٦- السافاك — تقى نجارى راد — محمود علاوى
٢٩٧- أقدم لك: نيتشه — لورانس جين وكيتى شين — إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨- أقدم لك: سارتر — فيليب تودى وهوارد ريد — إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩- أقدم لك: كامى — ديفيد ميروفتش وآلن كوركس — إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية) — ميشائيل إنده — باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات — زياودن ساردر وآخرون — ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج — ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت — ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان) — تودور شتورم وجوتفرد كولر — عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى — ديفيد إبرام — ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية) — أندريه جيد — حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩ — مانويلا مانتاناريس — جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه — مجموعة من المؤلفين — طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر — جوان فوتشركنج — عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة — برتراند راسل — إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن — كارل بوبر — الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى — جينيفر أكرمان — أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢) — ليفى بروفنسال — بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر) — ناظم حكمت — محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب — باسكال كازانوفا — أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية) — فريدريش دورينمات — أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر — أ. أ. رتشاردز — محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روي متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتي روي	فخري لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوي وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرية السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علماً دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكرادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير روناك ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	علي عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	جين فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأعمال التى رقصت فى بغداد من ١٩٢٢ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	التربة المعبر الحضارى	وليم ى. آدمز	فؤاد مكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جي دي موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوي
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبري التهامي
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي	ألفن جولدنر	علي ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماسارو ميوشي	ليلى الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطي
٦٧١-	قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوي
٦٧٤-	ديوان الإمام الخميني	آية الله العظمى الخميني	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨-	تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلي فش	أحمد الشيمي
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكري	صبري محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاييم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى

٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمني	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باجين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد
٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة ( )	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٧٣٥ / ٢٠٠٥